اخترنا لك ١١٩



مذكرات
ونستون تشرشل
٢

اخترنا لك

١١٩

مذكرات

ونستون تشرشل

٢

الجزء الثانى

مأساة ميونخ

كم من الأسفار العديدة التي كتبت وستكتب عن الأزمة التي انتهت في ميونخ بالتضحية بتشيكوسلوفاكيا ولست أريد هنا إلا أن أثبت بعض الحقائق الأساسية وأبين الخطوط الأساسية للوقائع . لقد ألقى ليتفينوف في الجلسة التي عقدتها الجمعية العامة لعصبة الأمم في الحادي والعشرين من سبتمبر الإنذار الرسمي التالي :

« تتعرض تشيكوسلوفاكيا في الآونة الحاضرة لتدخل دولة مجاورة لها في شئونها الداخلية ، وتتهددها علناً بالهجوم عليها . وهكذا سيرى هذا الشعب الذي يعد من أقدم الشعوب الأوربية وأكثرها حضارة وأشدها إقبالا على العمل والذي نال استقلاله بعد قرون من الذل والعبودية ، سيرى نفسه اليوم أو غدا مضطراً إلى حمل السلاح دفاعاً عن استقلاله .

ولما تركت بلادي ورحلت إلى جنيف منذ بضعة أيام تلقيت لأول مرة سؤالا عن موقفنا إذا تعرضت تشيكوسلوفاكيا للعدوان فأرسلت باسم حكومتي الجواب الصريح الآتي :

« لقد عزمنا على أن نوفي بالتزاماتنا . ونقدم لتشيكوسلوفاكيا بالتضامن مع فرنسا كل عون بالطرق الميسورة لنا . وإن وزارة حربيتنا على استعداد للاشتراك حالا في مؤتمر يجمع ممثلين عن وزارتي الحرب في فرنسا وتشيكوسلوفاكيا لدراسة الخطط المناسبة لمواجهة الظروف الحالية .

ومنذ يومين تلقت حكومتي استفساراً رسمياً من الحكومة التشيكوسلوفاكية عما إذا كانت حكومة الاتحاد السوفياتي على استعداد — وفقاً للمعاهدة السوفياتية التشيكية ، لأن تقدم لها المعونة العملية العاجلة ، وأن فرنسا ستقدم لها هذه المعونة وفاء بالتزاماتها فكان رد حكومتي صريحاً بالإيجاب » .

ولم يؤثر هذا البيان الرسمي الواضح الذي أصدرته دولة من أعظم الدول على مفاوضات المستر تشمبرلن ولا على موقف الفرنسيين من الأزمة . وقد تجاهلت

الدولتان هذا العرض بالفعل ولم يحسب لهذه الدولة العظمى حساب فى ميزان الأوضاع ضد هتلر ؛ وقد عوملت بطريقة تدل على التغاضى إن لم يكن على الاحتقار ، مما كان له أثره على عقل ستالين وتفكيره فقد ظلت الأمور تسير فى طريقها وكأن روسيا السوفياتية دولة لا وجود لها . وقد كان لهذا التجاهل أثره البالغ فيما بعد .

وألقى هتلر مساء السادس والعشرين خطاباً فى برلين فأشار إلى انجلترا وفرنسا ، بعبارات مناسبة مهدئة وقد حمل فى نفس الوقت حملة شعواء على بنش والتشيكيين . وقال بصورة حاسمة : إن على تشيكوسلوفاكيا أن تجلو فى الحال عن بلاد السوديت وقد أكد أنه إذا تمت تسوية هذه القضية . فلن يهمه مايقع لتشيكوسلوفاكيا فيما بعد . وأن هذا آخر مطلب إقليمى له فى أوربا .

وفى الساعة الثامنة من تلك الليلة قدم المستر ليبر رئيس إدارة الصحافة فى وزارة الخارجية البريطانية إلى وزير الخارجية بلاغاً رسمياً للتوقيع عليه هذا نصه :

« إذا حدث على الرغم من المحاولات التى يبذلها رئيس الوزراء البريطانى . هجوم من ألمانيا على تشيكوسلوفاكيا فإن النتيجة العاجلة أن فرنسا ستهب لمساعدتها ولا شك أن بريطانيا العظمى والاتحاد السوفياتى سيقفان إلى جانب فرنسا » .

وقد وافق اللورد هاليفاكس على هذا البلاغ وعجل بصدوره وبدا أن ساعة النضال قد أزفت . وأن القوى المتعادية قد اتخذت أماكنها . فقد كان للتشيكيين مليون ونصف مليون من الجنود المسلحين يقفون وراء أقوى خط دفاعى فى أوربا ، تساندهم قوات ميكانيكية عظيمة فى عتادها وتنظيمها . وقد تمت تعبئة الجيش الفرنسى جزئياً . وكان الوزراء الفرنسيون على الرغم منهم أعلنوا رغبتهم فى التمسك بالتزاماتهم لتشيكوسلوفاكيا .

وأصدرت الأميرالية البريطانية فى الساعة الحادية عشرة والدقيقة العشرين من صباح الثامن والعشرين من شهر سبتمبر أوامرها بتعبئة الأسطول البريطانى .

وفى خلال ذلك بدأ صراع شديد مستمر بين الفوهرر وبين مستشاريه العسكريين . فقد تبين أن الأزمة قد هيأت سائر الظروف التى كان يخشاها القواد الألمان .

فقد حشد من ثلاثين إلى أربعين فرقة تشيكوسلوفاكية على حدود ألمانيا الشرقية . وبدأت قوات الجيش الفرنسى التى تفوق قواتهم بنسبة ثمانية إلى واحد تصطف على الجدار الغربى . وتستطيع الجيوش السيوفياتية أن تعبر إلى الأمام عن طريق بولندا ورومانيا . وقد قام بعض هؤلاء القواد بمؤامرة لاعتقال هتلر « وإنقاذ ألمانيا من هذا المجنون » . وأعلن آخرون أن معنويات الشعب الألمانى المتهافتة لا تستطيع الوقوف فى حرب أوربية كما أن القوات الألمانية المسلحة على غير استعداد لخوض غمار المعركة . ووجه الأميرال ريدر القائد العام للبحرية الألمانية إنذاراً شديداً إلى الفوهرر أسرعت بتأكيده الأنباء القائلة بتعبئة الأسطول البريطانى .

وأخذ هتلر فى التردد . وفى الساعة الثانية من الصباح أذيع من محطة الإذاعة الألمانية بيان رسمى ينفى اعتزام ألمانيا إعلان التعبئة العامة فى التاسع والعشرين وقد أصدرت وكالة الأنباء الرسمية الألمانية فى الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين من نفس اليوم بياناً مشابهاً سلمته إلى الصحافة البريطانية ولا شك أن الضغط على ذلك الرجل الفرد وعلى عزيمته الجبارة كان شديداً فى هذه اللحظة .

وكان من الواضح أنه قد أصبح على شفا الحرب العامة . فهل له أن يخطو هذه الخطوة إزاء الرأى العام الجارف الذى يواجهه وأمام هـذه الإنذارات المتتالية من رؤساء أركان حربه الذين يمثلون الجيش والبحرية والطيران ؟ ولـكن هل يستطيع الآن أن يتراجع بعد أن عاش على سمعته المدوية ردحاً من الزمن .

ولـكن المستر تشمبرلن كان كذلك يقوم بنشاط بالغ فى هذه الآونة وكان يشرف إشرافاً كلياً على سياسة بريطانيا الخارجية . وكان اللورد هاليفاكس على الرغم من الشكوك الـكثيرة التى تنبعث من جو وزارته يتبع توجيهات رئيسه ، وكان مجلس الوزراء يساوره القلق ولـكنه مطيع لأوامر رئيسه ، وكان فى مقدور مراقبى المجلس أن يحافظوا على الأغلبية التى تتمتع بها الحـكومة .

كان هناك رجل واحد يوجه سياستنا ويقود شئوننا ، ولم يكن ليتردد أمام المسئولية الـكبيرة الملقاة على عاتقه ، وأبرق فى الرابع عشر من سبتمبر إلى هتلر دون أن يستشير أحداً يقترح أن يقوم بزيارته . وطار رئيس وزراء بريطانيا إلى ألمانيا

ثلاث مرات وقد اقتنع هو ومستشاره اللورد رانسمان بأن السبيل الوحيد لإرضاء هتلر هو فصل السوديت عن تشيكوسلوفاكيا .

وكانت المرة الأخيرة زيارة ميونخ وقد انضم إليه المسيو ديلادييه رئيس وزراء فرنسا وموسوليني . ولم توجه دعوة ما إلى روسيا كما لم يسمح للتشيكيين أنفسهم بحضور هذه الاجتماعات . وقد أبلغت حكومة تشيكوسلوفاكيا بعبارة جافة مساء اليوم الثامن والعشرين أن مؤتمرا يضم ممثلي الدول الأوربية الأربع سيعقد في اليوم التالي وتم الوصول إلى اتفاق بين الدول « الكبار الأربع » بسرعة هائلة .

فقد بدأت المحادثات في الظهر وظلت حتى الساعة الثانية من صباح اليوم التالي . وأعدت مذكرة عاجلة ووقع عليها في الساعة الثانية من صباح اليوم الثلاثين من سبتمبر . وكان جوهر المذكرة يشتمل على الموافقة على المطالب الألمانية .

فقد تقرر أن يتم الجلاء عن مناطق السوديت في خمس مراحل تبدأ في اليوم الأول من أكتوبر وتنتهي في العاشر منه ، كما تقرر أن يعهد إلى لجنة دولية بتخطيط الحدود النهائية .

وقد وضعت الوثيقة أمام المندوبين التشكيين . فأحنوا رءوسهم لهذه القرارات وقالوا إنهم يودون أن يعلنوا احتجاجهم أمام العالم على قرار لم يشتركوا في وضعه واستقال الرئيس بنش لأنه يرى أنه قد يكون عائقا في سبيل التطورات التي يجب على الحكومة الجديدة أن تكيف نفسها وفقا لها » وقد ترك تشكوسلوفاكيا ليجد له ملجأ في انجلترا . ومن ثم بديء في تقطيع أوصال تشيكوسلوفاكيا . ولم يكن الألمان وحدهم هم الذين تكالبوا على الفريسة . فقد أرسلت الحكومة البولندية إنذارا إلى التشيكيين تطلب إليهم أن يسلموا إليها عاجلا منطقة تيشين الواقعة على الحدود بين البلدين في ظرف أربع وعشرين ساعة . ولم يكن هناك مفر من قبول ذلك الطلب القاسي وجاء المجريون كذلك يحملون مطالبهم المزعومة .

وبينما كان الساسة الأربعة ينتظرون الانتهاء من إعداد الوثائق النهائية سأل رئيس الوزراء هتلر . إذا كان يرى الحديث إليه حديثاً خاصاً ، فتوثب هتلر لقبول الفكرة واجتمع الزعيمان في شقة هتلر الخاصة في ميونخ صباح الثلاثين من شهر

سبتمبر . ولم يحضر معهما أحد إلا مترجم واحد . وأخرج تشمبرلن مسودة بيان كان قد أعده . يعلن فيه « أن مسألة العلاقات الإنكليزية — الألمانية هى أهم شىء بالنسبة للبلدين ولأوربا جميعها وأن الفريقين يعدان الاتفاق الذى وقع أمس والاتفاق البحرى الإنكليزى الألمانى هما رمز على رغبة شعبيهما فى أن يحارب أحدها الآخر»

وقرأ هتلر الوثيقة ووقعها بغير تردد

وعاد تشبرلن إلى انكلترا . وقد لوح بورقة البيان المشترك التى حمل هتلر على توقيعها بمجرد هبوطه من الطائرة — وقرأها على مسمع من أعيان الشعب ووجوهه ممن حضروا إلى المطار لاستقباله وبينما كان فى طريقه إلى داوننج ستريت والسيارة تنهب الأرض وسط هتاف الهاتفين أسر إلى هاليفاكس الجالس إلى جواره بقوله : « سوف ينتهى كل هذا خلال ثلاثة أشهر . ولكنه عاد يلوح بقصاصة الورق التى فى يده من نوافذ داوننج ستريت وقال مخاطباً الجماهير من النافذة « هذه هى المرة الثانية فى تاريخنا التى عاد فيها السلام مع الشرف من ألمانيا إلى دوانتج ستريت . وأعتقد أن هذا السلام سيظل طوال جيلنا » .

وهكذا انتصر رأى هتلر وتقديره من جديد . وباءت القيادة الألمانية العليا بالخزى والخجل . فقد تبين ثانية أن الفوهرر كان على حق . إذ استطاع بعبقريته وإلهامه وحدهما أن يقدر سائر الظروف العسكرية والسياسية تقديراً سليما . وانتصرت زعامة هتلر مرة أخرى على معارضة القادة العسكريين وكان كل هؤلاء القواد من الوطنيين الصادقين . وكان همهم أن يروا بلادهم تستعيد مكانتها الأولى بين أمم العالم وكانوا يقضون أوقاتهم كلها ليل نهار فى القيام بكل ما يؤدى إلى تقوية ألمانيا المسلحة ولذا أحسوا من أعماقهم بغصة شديدة لظهورهم بمظهر الذين لايقدرون الأحداث . وتحولت كراهيتهم لهتلر وعدم ثقتهم به إلى نوع من الإعجاب بمواهبه الخارقة . وجده المزعوم وتأكدوا من بزوغ نجم يجب أن يسيروا على هداه . ومن ظهور دليل يجب أن يتبعوه ، وهكذا أصبح هتلر أخيراً السيد المطاع لألمانيا وقد أصبح الطريق واضحاً للمشروع العظيم واختفى المتآمرون وراء ستار من الخزى بعد أن امتنع زملاؤهم العسكريون عن إفشاء نواياهم فى المؤامرة .

* * *

وليس من اليسير الآن بعد أن مرت بنا تلك السنوات فى طيها الجهود الشاقة والتوتر الفكرى والبدنى — أن تصدر الاجيال القادمة تلك العواطف التى كانت تضطرم فى بريطانيا بسبب موضوع اتفاق ميونخ . وقد انقسم الرأى بين أفراد أسر المحافظين وأصدقائهم المخلصين إلى حد لم أر له مثيلا فى حياتى من قبل . وكان الرجال والنساء الذين تربطهم وشائج قوية من الصلات الحزبية والروابط الاجتماعية والعائلية ينظر بعضهم إلى البعض نظرات تحمل شيئاً من الازدراء والغضب . ولم يكن من الميسور تسوية هذه القضية بهتافات الجماهير التى احتشدت للترحيب بالمستر تشمبرلن عند عودته من المطار إلى داونتج ستريت ولا عن طريق الجهود التى يبذلها مراقبو المجلس وأنصار الحزب . ولم نكن نحفل نحن الأقلية بما نقابل به من السخرية والهزء من أنصار الحكومة .

وقد اهتزت الحكومة من أسسها . ولكن كان كل مافات قد انقضى . فتماسك أعضاء الحكومة حفظاً لكيانها . ولم يصمد فى الميدان غير المستر داف كوبر وزير البحرية الذى استقال من منصبه الكبير الذى كان قد حافظ على كرامته بالأوامر التى أصدرها بتعبئة الأسطول . فى الوقت الذى كان فيه المستر تشمبرلن يسيطر على الرأى العام سيطرة كلية . اندفع هذا الوزير الشجاع من بين الصفوف ليعلن مخالفته لموقف زعيمه ورئيسه .

وألقى المستر كوبر خطاب استقالته فى أيام المناقشة الثلاثة التى قامت فى مجلس العموم حول اتفاق ميونخ وكان هذا الحادث من الحوادث البارزة فى حياتنا البرلمانية . فقد تحدث الوزير المستقيل بزلاقة مرتجلا أربعين دقيقة وقد سيطر على مشاعر الغالبية من خصومه من نواب الحزب .

وكان من السهل على نواب العمال والأحرار المعارضين كل المعارضة للحكومة القائمة أن يصفقوا له وأن يهتفوا . فقد كانت هذه الاستقالة فاتحة لانشقاق فى حزب المحافظين .

ولم تكن المناقشة التى جرت فى المجلس إلا خانقة بالمشاعر التى استثيرت فى البلاد والقضايا المعرضة للخطر وإنى لأذكر تماما أننى حين قلت مرة فى المجلس :

« إننا أصبنا بهزيمة كلية لانظير لها ثارت ضدى عاصفة شديدة فى المجلس توقفت معها عن الكلام لحظة قبل أن أستأنفه . فقد كان هناك شعور جارف من الإعجاب بالمحاولات التى يبذلها مستر تشمبرلين للمحافظة على السلام . ومحاولاته الشخصية فى هذا السبيل . ومن التعذر على فى هذا الكتاب أن أترك الإشارة إلى سلسلة الأخطاء الطويلة التى جرت فى التقدير . وسوء التقدير للرجال والحقائق التى استند إليها . وإن كنت لا أنكر الدوافع التى دفعته إلى هذا السبيل الذى سلكه واستدعى أقصى مايمكن من الشجاعة الأدبية ، وقد أثنيت على هذه الشجاعة بعد سنتين حين ألقيت خطابى بمناسبة وفاته .

وكان فى استطاعة الحكومة أن تركن إلى حجة أخرى عملية واسكنها بالغة حد الخطورة . على الرغم مما فيها من تعريض بها فلا يستطيع أحد أن ينكر أننا لم نكن على استعداد لدخول الحرب ولكن هل كان ثمة من هو أسرع منى ومن أصدقائى فى إثبات هذه الحقيقة

لقد سمحت بريطانيا العظمى للقوة الجوية الألمانية بأن تتفوق على قوتها إلى حد كبير . فسائر مراكزنا المعرضة للهجوم تحتاج إلى الحماية . ولم يكن فى أكبر مدن العالم وأكثرها ازدحاما بالسكان أكثر من مائة مدفع مضاد للطائرات . وهى فى أيدى أناس غير مدربين على استخدامها . ولو أن هتلر كان صادقا وكان ما تم فى اتفاق ميونخ سلاما حقيقيا . فإن تشمبرلين يكون على حق أما إذا كان قد وقع فى خدعة لسوء الحظ . فإن علينا أن ننتهز فرصة هذا التوقف العاجل لنصلح ما كان من اهمالنا وأغلاطنا وكانت هذه الاعتبارات هى التى سيطرت على أفكار مؤيدى الحكومة .

وأقر المجلس سياسة حكومة جلالة الملك التى تجنبت الحرب فى الأزمة الأخيرة ، بأغلبية ٣٦٦ صوتا إلى ١٤٤ ولم يستطع الثلاثون أو الأربعون نائبا من المحافظين المنشقين أن يفعلوا أكثر من تسجيل معارضتهم بالامتناع عن التصويت .

وانتخب رجل نكرة رئيسا لما تبقى من حطام تشيكوسلوفاكيا هو الدكتور هاشا . وتسلمت حكومة جديدة زمام الحكم فى براج وقال وزير خارجية هذه الحكومة المهجورة « إن الأمور فى أوربا وفى العالم بأسره لاتبشر بأمل فى قيام فترة طويلة من

الهدوء في المستقبل القريب » وكان هتلر يرى هذا الرأى نفسه وقد تم اقتسام الغنائم بصفة رسمية بين ألمانيا وبين الطامعين الآخرين فى الأول من نوفبر واحتلت بولندا مقاطعة تيشين دون أن يزعجها أحد . ونال السلوفا كيون الذين استخدموا كمخالب القط من لدن ألمانيا استقلالا ذاتيا عجيبا . ونالت المجر قطعة من لحم الفريسة على حساب سلوفا كيا فلما أثيرت كل هذه المسائل فى مجلس العموم أوضح المستر تشمبرلين أن العرض البريطاني والفرنسي بتقديم ضمانة دولية لتشكوسلوفاكيا وهى تلك الضمانة التى قدمت بعد اتفاق ميونخ لا تؤثر على حدود الدولة الحالية وإنما تشير إلى افتراض حدوث عدوان لم يسبق باستفزاز وقال وكأن الأمر لايعنيه فى كثير أوقليل: إن ماتراه الآن لا يعدو أن يكون تعديلا للحدود التى وضعتها معاهدة فرساى . ولاأدرى إذا كان الذين خطوا هذه الحدود كانوا يظنون أنهاستبقى ثابتة كما هى . وإنى لأشك كل الشك فى أنهم قد تصوروا ذلك وإنما أعتقد أنهم قدروا أن هذه الحدود ستكون عرضة للتعديل من وقت لآخر . وأعتقد أننى قد قلت ما يكفى فى موضوع تشكوسلوفاكيا ولكن الفرصة الأخرى كانت لاتزال فى انتظاره .

وقد تردد كثيرا السؤال عمن استفاد أكثر من غيره من السنة التى تلت اتفاق ميونخ فى موضوع تدعيم القوة وتأمينها . أحجم الحلفاء وهتلر ؟ . وقد أحس كثيرون ممن يعتقدون بحاجتنا إلى الحماية الجوية بشعور من الارتياح عندما رأوا تطور قوتنا الجوية من شهر إلى آخر ومصانعنا تكاد تنتج الأنواع الجديدة من طائرات هاريكين ونافثات اللهب . وأخذت أسرابنا الجوية يزداد عددها ومدافعنا المضادة تتضاعف . ولكن هذا التقدم على ماله من أهمية يبدو قليل الأهمية إذا قورن بتسليح ألمانيا وقد أوضحت فيما سبق أن انتاج العتاد على نطاق شامل يتطلب أربع سنوات من التخطيط .

فى السنة الأولى لا يكون ثمة انتاج على الاطلاق وفى السنة الثانية يكون إنتاج قليل وفى السنة الثالثة انتاج كثير أما فى الرابعة ففيها فيض من الانتاج . وكانت ألمانيا الهتلرية قد وصلت إلى السنة الثالثة أوالرابعة من استعدادها الكبير على حالة تشبه تماما حالة الحرب . أما بريطانيا فكانت تسير على أساس سلمى مألوف لا أثر

فيه للطوارىء . وبحافز أقل ونطاق أضيق . وقد بلغت نفقات بريطانيا الحربية سنة ١٩٣٨ — ١٩٣٩ فى مختلف الأنواع نحو ٣٠٤ ملايين من الجنيهات إلى جانب (٢٣٤) مليونا فى العام السابق و ٣٦٧ مليونا للعام الثانى والف وخمسمائة مليون من الجنيهات لألمانيا . وقد تكون ألمانيا فى السنة الأخيرة التى سبقت الحرب أنتجت ضعفين على أقل تقدير أو ثلاثة أضعاف مما لدى بريطانيا وفرنسا من عتاد مجتمعين كما وصلت مصانعها الضخمة التى تنتج الدبابات إلى أقصى مدى إنتاجها . ومن هذا يتبين أن ألمانيا كانت تجد السلاح الذى تريده بسرعة أشد من إنتاجنا .

وقد أدى إخضاع تشيكوسلوفاكيا إلى حرمان الحلفاء من قوة الجيش التشيكى وهى إحدى وعشرين فرقة نظامية وست عشرة فرقة للخط الثانى تم تعبئتها . وكذلك خطها الدفاعى الحصين الذى يتطلب خرقه أيام ميونخ ثلاثين فرقة ألمانية تشل حركتها جميعا . أو مايعادل ثلث القوة الرئيسية للجيش الألمانى الميكانيكى الكامل التدريب . وقد ذكر الجنرالان يودل وهولد أن ثلاث عشرة فرقة ألمانية بقيت فى الغرب منها خمس فرق عندما وقع اتفاق ميونخ ولاشك أن خسارتنا بانهيار تشكوسلوفاكيا كانت تعادل ضياع خمس وثلاثين فرقة . يضاف إلى ذلك أن مصانع سكودا قد انتقلت بفضل ميونخ من جانبنا إلى جانب هتلر وهى تعد الثانية فى الأهمية بين مصانع أوربا الوسطى وكان انتاجها مابين شهر اغسطس سنة ١٩٣٨ وسبتمبر سنة ١٩٣٩ معادلا أنتجته كل مصانع السلاح البريطانى فى هذه الفترة .

وفى الوقت الذى كانت تعمل فيه ألمانيا تحت ضغط المجهود الحربى الشديد ، كان العمال الفرنسيون قد حققوا منذ سنة ١٩٣٦ ما كانوا يريدون من العمل ستاً وثلاثين ساعة فى الأسبوع .

وربما كان أساس الكارثة فى التغير الشديد فى النسبة بين الجيشين الفرنسى والألمانى . فمنذ سنة ١٩٣٨ كانت قوة الجيش الألمانى فى كل شهر تزداد لا فى العدد والتشكيلات وتجنيد القوى الاحتياطية بل فى التحسن والكفاية كذلك . وكان السير فى التدريب والكفاية العامة يتمشى جنباً إلى جنب مع العتاد الذى يزداد

وينمو على الدوام . ولم يكن ذلك التقدم ليتاح للجيش الفرنسى وهكذا ظل الجيش الألمانى يسابق الجيش الفرنسى فى كل ميدان .

وكان فى وسع فرنسا وحدها سنة ١٩٢٦ بغير مساعدة حلفائها السابقين أن تغزو ألمانيا وتحتلها دون عناء كبير وبغير معارك جدية وفى سنة ١٩٣٦ لم يكن هناك شك فى تفوقها الكبير على ألمانيا وقد ظهر لنا الآن بعد انهيار ألمانيا من الأسرار ما يدل على أن التفوق الفرنسى ظل حتى سنة ١٩٣٨ . وكان اعتقاد القيادة الألمانية فى ضعف جيشها إلى جانبه الجيش الفرنسى هو الذى جعلها تسعى لكبح جماح هتلر ومنعه من تلك الانتصارات التى أحرزها وعظمت بها شهرته حتى رفعته إلى الذروة .

وفى السنة التى تلت ميونخ وهى موضوع دراستنا الآن أخذ الجيش الألمانى على الرغم من ضعفه فى موضوع الاحتياطى المدرب يقترب إلى القمة من كفايته . ولما كان هذا الاحتياطى يستند إلى شعب يبلغ مقداره ضعف عدد الشعب الفرنسى ، فقد أصبحت المسألة مسألة وقت ليصبح الجيش الألمانى متفوقاً على منافسة الجيش الفرنسى من سائر النواحى . على أن الألمان كان لهم التفوق المعنوى أيضاً . لأن تخلى أحد الحلفاء عن الجبهة المتحدة خشية الحرب يبعث الضعف فى القوى المعنوية لأى جيش فضلا عن الشعور بالحاجة والخضوع وما له من أثر فى ضعف معنويات الضباط والجنود .

وكان الجانب الألمانى يزداد حماسة كلما رأى النجاح الذى يحالفه والقوة العسكرية التى تنمو وتزداد فتشتد عزيمته وتقوى روحه المعنوية بينما كان اعتراف فرنسا بضعفها يفت فى عضد جنودها على مختلف رتبهم ويحط من معنوياتهم .

ولكن كان هناك ميدان حيوى واحد بدأنا نلاحق فيه ألمانيا ونحسن مركزنا باطراد . ففى سنة ١٩٣٨ بدأنا نستبدل الطائرات القاتلة ذوات المحركين من أمثال « الغلاد ييتورز » بأنواع جديدة من طائرات الهاريكين والسبتفاير . وفى سبتمبر سنة ١٩٣٨ لم يكن عندنا إلا خمس أسراب من طائرات هاريكين وفى أثناء ذلك

توقف إنتاج قطع الغيار والاحتياطى من أنواع الطائرات القديمة . بعد أن أصبحت غير صالحة للاستعمال . وكان الألمان قد سبقونا كثيراً فى إنتاج الطائرات المقاتلة الحديثة وأصبح لديهم عدد كبير من طائرات المسر شميث ١٠٩ التى تقف أمامها طائراتنا القديمة عاجزة عن العمل . وقد تحسن وضعنا سنة ١٩٣٩ إلى حد بعيد بعد أن ألفت أسراب جوية جديدة . وفى يولية من تلك السنة أصبح لدينا ستة وعشرون سرباً من المقاتلات الحديثة ذات الثمانية مدافع . مع أن الوقت لم يكن كافياً لبناء عدد يكفى من الطائرات الاحتياطية وقطع الغيار .

فلما حل شهر يولية سنة ١٩٤٠ ووقعت معركة بريطانيا كان عندنا سبعة وأربعون سرباً من أحدث المقاتلات .

وكان الألمان كذلك قد وصلوا إلى ما يبغون من التوسع الجوى عدداً وعدة قبل بدء الحرب وكان مجهودنا متأخراً عنهم قرابة عامين . ولكنهم لم يحققوا فى سنتى ١٩٣٩ ، ١٩٤٠ إلا زيادة بسيطة تبلغ العشرين فى المائة بينما كانت زيادتنا فى الطائرات الحديثة تبلغ ثمانين فى المائة . وفى سنة ١٩٣٨ كنا متأخرين عن ألمانيا وعلى الرغم من أننا قطعنا سنة ١٩٣٩ مرحلة كبيرة فى طريق المساواة إلا أننا كنا أسوأ بكثير من وضعنا سنة ١٩٤٠ عند ماجاءت ساعة التجربة .

وكان متوقعاً أن تتعرض مدينة لندن سنة ١٩٣٨ لغارات جوية لم نكن على استعداد لها بصورة مؤلمة . ولكن لم يكن ثمة ما يجعلنا نعتقد أن فى الإمكان وقوع معركة حاسمة للسيطرة على بريطانيا قبل أن يتمكن الألمان من احتلال فرنسا والأراضى المنخفضة وتأمين القواعد الجوية لتكون على المدى الذى يمكنها من إطلاق النار والإغارة على شواطئنا .

ولم يكن فى مقدور ألمانيا دون هذه القواعد أن تبعث بطائراتها المقاتلة لتصاحب القاذفات فى غاراتها علينا فى تلك الأيام ، ولم يكن فى استطاعة ألمانيا أن تهزم جيش فرنسا فى سنتى ١٩٣٨ و ١٩٣٩ .

ولم يتح لألمانيا الإنتاج الهائل من الدبابات التى استطاعت بها أن تحطم الجبهة

الفرنسية إلا فى سنة ١٩٤٠ . ومن ثم لم تستطع ألمانيا وأمامها التفوق الفرنسى فى الغرب ووراءها بولندا التي لم تخضعها فى الشرق ، أن تركز كل قوتها الجوية ضد بريطانيا كما تم لها ذلك بعد أن أرغمت فرنسا على الإذعان والاستسلام .

ولم يعمل حساب روسيا بالطبع فى هذه المقارنة . أو ما يمكن لتشكوسلوفاكيا أن تقوم به من مقاومة . لذلك فإن سياسة أخذ النفس « التى كثيرا ما كان يقال إن اتفاق ميونخ قد أتاحها لنا قد خلفت بريطانيا وفرنسا فى وضع أسوأ إذا ما قورن بوضع ألمانيا المتلربة عند وقوع أزمة ميونخ » .

وأخيراً فهناك حقيقة أخرى تدعو إلى الدهشة فقد استطاع هتلر فى سنة واحدة وهى ١٩٣٨ أن يضم إلى الرايخ وتحت سيطرته المباشرة ستة ملايين وسبعمائة وخمسين ألف نمساوى وثلاثة ملايين وخمسمائة ألف سوديتى أى عشرة ملايين من الرعايا العمال والجنود ولا شك أن هذه الحقيقة قد قلبت الميزان إلى صالحه إلى حد كبير .

براغ ، ألبانيا ، وضمانة بولندا

ما كاد ينتهى شعور الارتياح الذى تمتع به المستر تشمبرلن وحكومته بعد اتفاق ميونخ حتى ظهرت مشكلة حادة جديدة .

كان رئيس الوزراء قد أعلن رأيه « بأن السلام سيدوم هذا الجيل » لكن أكثر زملائه من أعضاء الحكومة . رأوا الإفادة فى هذه الفترة للتعجيل بالتسلح . وهنا وقع خلاف فى صفوف الحكومة . فقد دعا الفزع الذى أثارته أزمة ميونخ . وما تبعه من كشف مواضع الضعف فى أوضاعنا إلى العمل على التسلح السريع . وقد قوبل هذا بالنقد الشديد من جانب الحكومة الألمانية وصحافتها الموجهة . وعلى الرغم من دوافع السرور التى عمت البلاد لتفادى الحرب بفضل رئيس الوزراء فأن الشعور بالحاجة إلى السلاح كان شديداً وقد أخذت وزارات القوات المسلحة تتقدم بمطالبها معلنة عن مظاهر النقص المفزعة التى كشفت الأزمة عنها . وقد توصل مجلس الوزراء إلى حل وسط مقبول لاتخاذ كل ما يمكن من استعداد دون تعريض تجارة البلاد للخطر وبغير استفزاز للألمان والإيطاليين .

وكان المستر تشمبرلن لا يزال يعتقد أن فى استطاعته أن يحدث تحسنا بارزا فى الوضع عن طريق اتصاله بالديكتاتورين ولم يكن فى حسابه أنهما قد حزما أمرهما . وقد اقترح أن يقوم هو ولورد هاليفاكس بزيارة إيطاليا فى أوائل شهر يناير . وقد وصلته الدعوة بعد تريث وتردد من موسوليني فسافر هو ووزيره فى الحادى عشر من يناير سنة ١٩٣٩ حيث تم الاجتماع وإن الإنسان ليحمر وجهه خجلا عندما يقرأ فى مذكرات تشيانو ما كان يقال فى إيطاليا من خلف الستار عن بلادنا وممثليها فقد كتب تشيانو يقول : كنا ننظر إلى الزيارة على أنها مسألة ثانوية ، ولذا لم تجر أية اتصالات إيجابية . ما أبعدنا عن هؤلاء الناس اننا فى عالمين مختلفين . وقد تحدثنا إلى الدوتشى فى ذلك فقال : إن هؤلاء الناس ليسوا من الطينة التى أنبتت فرنسيس دريك وغيره من المغامرين البارزين الذين أقاموا الامبراطورية . وإنما هم الذرية المنحطة

لسلسلة من الأثرياء المترفين » ومضى شيانو فى يومياته يسجل « أن البريطانيين لا يريدون أن يحاربوا . ويحاولون أن يتراجعوا بخطى وئيدة ولكنهم لا يريدون القتال . وقد انتهت محادثاتنا مع البريطانيين دون أن تصل إلى تحقيق شىء ، وقد تحادثت تليفونيا إلى ريبنتروب لأقول له إن المحادثات كانت فاشلة ولكنها لا خير منها » ويعود تشيانو ويكتب بعد أسبوعين « قدم السفير البريطانى الخطوط العريضة للخطاب الذى سيلقيه المستر تشمبرلن فى مجلس العموم للموافقة عليه وإبداء مايريد من مقترحات أو تبديلات بشأنه . وقد وافق الدوتشى على الخطاب . وعلق عليه قائلا :هذه أول مرة يقدم فيها رئيس حكومة بريطانية مسودة خطابه إلى حكومة أخرى وهذه ظاهرة لاتبشر بخيرلهم ولكن تشيانو وموسوليني هما اللذان ذهبا إلى مصيرهما المحتوم . وفى خلال ذلك أى فى شهر يناير ١٩٣٩ كان ريبنتروب قد سافر إلى وارسو ليواصل هجومه الدبلوماسى على بولندا . فضم تشكوسلوفاكيا يجب أن يتبعه الاحاطة ببولندا . وكانت المرحلة الأولى ترمى إلىعزل بولندا عن البحر بتثبيت سيادة ألمانيا على دانزج والتوسع فى اشراف ألمانيا على سواحل البلطيق حتى ميناء ميمل الليتوانى . وقد أبدت الحكومة البولندية مقاومة شديدة لهذا الضغط . وكان هتلر فى أثناء ذلك يرقب تطور الأمور ينتظر حلول الفصل الصالح للحملات العسكرية

وانتشرت الأخبار فى الأسبوع الثانى من شهر مارس عن تحركات عسكرية واسعة النطاق تقوم بها الجيوش الألمانية فى ألمانيا والنمسا لا سيما فى منطقة ڤينا — سالزبرج . وقيل إن أربعين فرقة ألمانية قد احتشدت واصبحت متأهبة للمعركة . وكان السلوفاكيون ، بعد أن تأكدوا من مساعدة ألمانيايضمون الخطط لفصل بلادهم عن الجمهورية التشكوسلوفاكية وقد شعر الكولنيل بيك وزير خارجية بولندا بالارتياح حين رأى الرياح التيوتونية تهب فى اتجاه آخر ، فأعلن فى وارسو أن حكومته تعطف كل العطف على آمال السلوفاكيين واستقبل هتلر فى برلين الأب تيسو الزعيم السلوفاكى بالمظاهر التى اعتاد أن يقابل بها رؤساء الوزارات . وعند ماسئل المستر تشمبرلين فى الثانىعشر من شهر مارس عن الضمانة المعطاة لتشكو سلوفاكيا وحدودها ذكر المجلس بأن هذه الضمانة مقرونة بشرط العدوان الذى لم يستفز ولم يكن وقع عدوان بعد ولكنه وقع بعد وقت قصير .

وانتشرت موجة من التفاؤل المضلل فى سائر أنحاء بريطانيا فى شهر مارس سنة ١٩٣٩ . وعلى الرغم مما كانت تعانيه تشكوسلوفاكيا من الضغط الألمانى الشديد خارج البلاد وداخلها . فان الصحف البريطانية التى دبرت اتفاق ميونخ لم تكن قد فقدت ثقتها بالسياسة التى جرت إليها البلاد وقد ألقى وزير الخارجية فى العاشر من شهر مارس خطابا فى دائرته الانتخابية عن أمله فى مشروع خمس سنوات لأجل السلم يؤدى فى النهاية إلى خلق العصر الذهبى . وكان يجرى البحث فى ذلك الوقت لعقد معاهدة تجارية مع ألمانيا .

ونشرت صحيفة « بنش » الأسبوعية المشهورة رسما كاريكاتوريا يصور جون بول . وقد أفاق من كابوس مرعب وقد تبددت الشائعات والشكوك والأوهام وطارت من النافذة .

وفى نفس اليوم الذى نشرت فيه هذه الصورة . وجه هتلر انذاره النهائى إلى الحكومة التشكوسلوفاكية الهزيلة التى أفقدتها قرارات ميونخ خطوطها الدفاعية المحصنة . وزحفت الجيوش الألمانية إلى براج وسيطرت على الدولة التى لم تقاوم . وأذكر أننى كنت أجلس فى حجرة التدخين مع المستر إيدن عندما أصدرت الصحف المسائية ملاحقها لتسجل هذه الحوادث . وقد كان هذا العدوان السافر بما فيه من عنف ومفاجأة موضع دهشة لدى الجميع حتى نحن الذين لا نجرى وراء الخيال . والذين كنا ننتظر هذه التطورات ولم يكن يخطر ببال أى إنسان أن حكومة جلالة الملك بكل ماليها من أجهزة المخابرات ستفاجأ بهذا العمل . وقد شهد اليوم الرابع عشر من شهر مارس انحلال الجمهورية التشكوسلوفاكية وعبوديتها ، وسرعان ماأعلن السلوفاكيون استقلالهم . واجتازت القوات المجرية تشد أزرها بولندا بصورة سرية الحدود إلى المناطق الشرقية من تشكوسلوفاكيا أو ما يسمى بالكرابات — الاوكرانية التى كانت المجر تطالب بها . ووصل هتلر إلى براج يعلن فرض حماية ألمانيا على تشكوسلوفاكيا التى ضمت إلى الرايخ . وقد وجد المستر شمبرلن نفسه مضطرا إلى التحدث فى مجلس العموم فى الخامس عشر من شهر مارس فقال : « فى الساعة السادسة من صباح هذا اليوم بدأ احتلال القوات العسكرية الألمانية لبوهيميا » وقد أصدرت

الحكومة التشكية أوامرها إلى شعبها بعدم المقاومة . ومضى يوضح للمجلس أن الضمان الذى كان قد قدمه إلى تشكوسلوفاكيا لم يعد صالحاً فقد تغير الوضع تماماً منذ أعلن مجلس الدايت السلوفاكى استقلال سلوفاكيا وأنهى هذا الإعلان ما اعتزمناه من ضمانة حدودها . لهذا فان حكومة جلالته لا تجد نفسها بعد ذلك مرتبطة بهذا الالتزام » .

وقال فى ختام خطابه الحاسم : « ومن الطبيعى أن أجد نفسى آسفا لما حدث ولكن هذا الأسف لايصح أن يحولنا عن طريقنا وعلينا أن نذكر أن العالم أجمع يرغب فى السلام » .

وكان مقرراً أن يلقى المستر تشمبرلن خطابا آخر بعد يومين فى برمنجهام . وكنت أنتظر منه أن يقبل ماحدث بكثير من التسامح فقد كان يظن أنه قادر على تفهم طبيعة هتلر كل الفهم وخيل إليه أنه يستطيع بشىء من الدهاء أن يقيس المدى الذى يذهب إليه هتلر وقد اعتقد أن اجتماع ميونخ كان لقاء للعقول وأنه هو وهتلر وموسولينى قد استطاعوا إنقاذ العالم من ويلات الحرب وواضح أن هذا الاعتقاد وما نشأ عنه من أعمال وأقوال قد تبدد فجأة وكأنه لم يكن . فتبين له أنه خدع نفسه وفرض أخطاءه على زملائه الخاضعين وعلى الرأى العام البريطانى المسكين وسرعان ما انقلب على ماضيه وتنكر له . وإذا كان تشمبرلن قد أخطأ فهم هتلر . فإن هتلر قد ضعف تقديره لضيفه رئيس الوزراء . فقد أخطأ فى مظهره المسالم ورغبته الشديدة فى السلام . وعدهما جزءاً بارزاً من شخصيته . وقد جعل من مظلته رمزاً لهذه الشخصية . ولم يخطر لهتلر أن لتيفل تشمبرلين إلى جانب هذا طبيعة صلبة قاسية وأنه يمقت من يخدعه .

وقد جاء خطاب برمنجهام يعزف على نغمة جديدة : فوجه اللوم الشديد إلى هتلر واتهمه بالتنكر لوعوده وعهوده التى قطعها فى اتفاق ميونخ . وعدد التأكيدات التى صدرت عن هتلر مثل قوله « هذا آخر مطلب أقليمى لى فى أوروبا » أو قوله « لم يعد يعنينى شأن الدولة التشيكوسلوفاكية وأستطيع أن أضمن حدودها . إننا لا نريد فى بلادنا تشيكيين » ومضى رئيس الوزراء يقول « وإنى على اقتناع بأن الغالبية

العظمى من الشعب البريطانى بعد ميونخ كانت تشترك معى فى الرغبة الصادقة فى السير بهذه السياسة نحو الأمام . أما اليوم فأنا أشارك الشعب خيبة أمله وحنقه لتدهور هذه الآمال فكيف نستطيع أن نوفق بين أحداث هذا الأسبوع وبين التأكيدات التى تلوتها عليكم ! ولا أدرى أهذا آخر هجوم على دولة صغيرة أم أن هجمات أخرى ستتبعه ؟ وهل هذا الهجوم خطوة لفرض السيطرة على العالم بالقوة » ؟

وليس من اليسير علينا أن نتصور من التناقض ما هو أشد من هذا الذى يبدو بين خطاب اليوم وبين موقف رئيس الوزراء وسياسته فى الخطاب الذى ألقاه قبل يومين فى مجلس العموم . ولا شك أنه فى هذين اليومين قد اجتاز فترة من الإجهاد العصبى العنيف . ولم يقف التغير الذى طرأ على تشمبرلن عند حدود الكلمات . وكانت الدولة الصغيرة التالية فى حساب هتلر هى بولندا ولم يضع المستر تشمبرلن وقته سدى فى استشارة من يجب عليه استشارتهم وفى الحادى والثلاثين من شهر مارس أعلن فى البرلمان مايلى :

« إذا وقع أى حادث يهدد استقلال بولندا ويضطرها إلى مقاومته بقواتها الوطنية . فإن حكومة جلالته تجد نفسها مضطرة إلى أن تقدم — فى الحال — إلى الحكومة البولندية كل مساعدة تستطيعها . وقد أرسلت حكومة جلالته مثل هذا التأكيد إلى حكومة بولندا » .

« وأريد أن أضيف أن الحكومة الفرنسية . صرحت لى بأن أوضح أنها تقف نفس الموقف الذى نقفه من هذه المسألة وقد أعلنت هذا القرار إلى سائر حكومات الدومنيون

ولم يعد الوقت صالحا لتبادل التهم فيما يتعلق بالماضى فقد أيد زعماء الأحزاب جميعها فى المجلس الضمان الذى قدمته الحكومة إلى بولندا .

وعلقت أنا بقولى « بعون الله لن يكون ثمة بد من أن نعمل هذا » فقد كان هذا العمل أمرا لا مفر منه بالنسبة إلى النقطة التى وصلنا إليها . ولكن كل من كان يدرك الموقف لم يكن يشك فى أن هذا الضمان يعنى حربا عالية على كافة الاحتمالات .

وهكذا وصلنا إلى الغاية القصوى فى أمر هذه الأحكام الخاطئة التى وقع فيها أناس أكفاء حسنو النية ولا شك أن وقوعنا فى هذا المأزق يجعل المسئولين عنه

مهما خلصت نيتهم . ملومين أمام التاريخ . ولنعد إلى الخلف لنرى ما قبلناه وما تركناه .

كانت ألمانيا منزوعة السلاح بحكم معاهدة قوية حاسمة . ثم سلحت نفسها متحدية هذه المعاهدة . ثم تخلينا عن تفوقنا الجوى وحتى عن تعادلنا معها . ثم احتلال منطقة الراين بالقوة وإقامة تحصينات سيجفريد ثم إقامة محور رومة — برلين وابتلاع النمسا والتخلى عن تشيكوسلوفاكيا وتحطيمها فى اتفاق ميونخ بوقوع خط دفاعها الحصين فى أيدى الألمان وانتقال مصانع سلاحها العظيمة فى شكودا إلى الجانب الألمانى لتقوم بصنع الذخائر للجيش . وتجاهل المحاولة التى قام بها الرئيس روزفلت لإيجاد الاستقرار فى أوربا أو العمل على إيجاده عن طريق تدخل الولايات المتحدة . وإهمال الرغبة الصادقة للاتحاد السوفيتى للاشتراك مع الدول الغربية والمضى إلى أبعد الحدود لإنقاذ تشيكوسلوفاكيا . وإضاعة خمس وثلاثين فرقة تشيكوسلوفاكية كان من الممكن استخدامها ضد الجيش الألمانى الذى لم يستوف نضجه وإعداده . فى حين لم يكن فى استطاعة بريطانيا العظمى نفسها أن تقدم إلى فرنسا أكثر من فرقتين لتقوية جبهتها وكل هذه أمور ذهبت مع الرياح .

والآن بعد أن ذهبت هذه المزايا وتبددت تقبل بريطانيا وتتقدم الصفوف وتقود فرنسا من يدها لتقدما معاً الضمان الواجب لحماية حدود بولندا . وهى الدولة نفسها التى كانت لها شهوة الضبع واشتركت قبل ستة أشهر فقط فى تدمير الدولة التشيكوسلوفاكية سنة ١٩٣٨ ولم يكن فى وسع الجيش الألمانى أن يحشد أكثر من ست فرق مدربة على الجدار الغربى . بينما كان فى استطاعة فرنسا أن تحشد ستين أو سبعين فرقة . تزحف بها على الراين أو الرور على الأقل . ولكن مثل هذا العمل اعتبر فى ذلك الوقت تهوراً وتسرعا وبعيداً عن المنطق والتعقل : ونزولا عن المستوى من ناحيتى الفكر والأخلاق . ولكن الدولتين الديموقراطيتين جاءتا تعلنان الآن استعدادهما للتضحية دفاعا عن سيادة بولندا الإقليمية .

ولو بحثنا فى بطون التاريخ عن حادث مماثل لهذا التغيير الفجائى لسياسة ظلت تعمل خمس سنوات أو ست للتهدئة المستكينة الخاضعة ثم تحولت بين يوم

وليلة إلى سياسة تقبل الحرب الواضحة التى لا محالة منها ، فى ظروف أسوأ وأشمل ، لما وجدنا مثيلا لهذه السياسة على الإطلاق .

وثمة شىء آخر . إذ كيف نستطيع أن نحمى بولندا . وأن نفى بتعهداتنا . لاسبيل لنا إلى ذلك إلا بإعلان الحرب على ألمانيا ومهاجمة جدار غربى أصبح أقوى مما كان عند تراجعنا فى سبتمبر سنة ١٩٣٨ ويدافع عنه جيش ألمانى أشد قوة وصلابة إن هناك قائمة كبيرة من حوادث الاستسلام حين كان كل شىء هينا وسهلا . بنمو قوة ألمانيا وتضخمها .

أما الآن فقد جاء دور الانتهاء من سياسة الخدوع التى اتبعها البريطانيون والفرنسيون . واتخذ القرار الواجب ولكن فى أسوأ الظروف وعلى أسس أقل من التى سبقتها وتؤدى ولا شك إلى ذبح عشرات الملايين من الأنفس وهكذا نرى أن القضية الحقة العادلة قد برزت أخيراً فى معركة مهلكة عن عزم وتصميم سابقين وبعد تزويق من الفن المقلوب وبعد أن فقدت هذه القضية الكثير من مزاياها بسبب التفريط وسوء التصرف .

فاذا تخلفت عن القتال فى سبيل الحق وكل وسائل النصر فى يديك . وكان فوزك مؤكدا قليل التكاليف . فقد تجد نفسك مرغما على القتال وسائر القوى المضادة تتألب عليك ولا تجد أمامك إلا أملا ضعيفا فى البقاء .

ومازال هناك وضع أسوأ فقد ترغم على القتال وليس لك أمل فى النصر . فمن الخير للانسان أن يموت كريما ولا يعيش عبدا ذليلا .

وكان البولنديون قد كسبوا مقاطعة تيش بعد موقفهم المخزى من تصفية الدولة التشيكوسلوفاكية . ولكن ما أسرع أن وجدوا أنفسهم فى موقف يحتم عليهم أن يدفعوا المغرم فلما استقبل ريبنتروب فى الحادى والعشرين من شهر مارس سفير بولندا فى برلين . كانت لهجته أكثر حدة من المرات السابقة فقد أدى احتلال بوهيميا وخلق دولة سلوفاكيا التابعة لألمانيا إلى وصول الجيش الألمانى إلى حدود بولندا الجنوبية وقد أوضح السفير أن رجل الشارع البولونى لايستطيع أن يدرك لماذا أخذ

الرايخ على نفسه أمر حماية سلوفاكيا تلك الحماية التى لاتحمل أى معنى عدائى ضد بولندا .

وطلب السفير معلومات عن المحادثات الأخيرة التى دارت بين ريبنتروب وبين وزير خارجية ليتوانيا . وهل تتناول ميناء ميمل ، وقد تلقى الرد على سؤاله بعد يومين أى فى الثالث والعشرين من شهر مارس حين احتلت القوات الألمانية ميناء ميمل ولم تبق هناك وسيلة لوقف العدوان الألمانى فى أوربا الشرقية فالمجر إلى جانب ألمانيا . وكانت بولندا قد وقفت بمنأى عن تشيكوسلوفاكيا ولم تكن على استعداد للتعاون مع رومانيا ، ولم تكن بولندا أو رومانيا ترضيان لروسيا بالتدخل ضد ألمانيا عن طريق أراضيهما . وكان مفتاح التحالف هو الوصول إلى تفاهم مع روسيا ، واقترحت الحكومة الروسية فى التاسع عشر من مارس . تحت عوامل التأثر بما دار ويدور — على الرغم من بقائها بعيدة عن اجتماع ميونخ — أن يعقد مؤتمر جديد للدول الست . وكانت للمستر تشمبرلن آراؤه الخاصة المقررة فى هذا الشأن فقد ذكر فى رسالة شخصية أنه « يعترف فى أعماق نفسه بعدم الثقة بروسيا » ومضى يقول « وإنى لا أعتقد مطلقاً بأنها تستطيع القيام بهجوم فعال حتى لو أرادت ذلك فضلا عن أننى لا أثق بدوافعها . ويظهر لى أنها لا تمت بقليل أو كثير بأفكارنا عن الحرية . وكل ما يستهويها هو أن تمسك بالآخرين من آذانهم . وهى فوق هذا مكروهة من معظم الدول الصغرى وفى مقدمتها بولندا ورومانيا وفنلندا » .

وعلى هذا فقد استقبل الاقتراح السوفياتى الذى يدعو إلى عقد مؤتمر سداسى بفتور أدى إلى فشله .

وأخذت تختفى آمال الدوائر البريطانية الرسمية فى احتمال إخراج ايطاليا من المحور . تلك الآمال التى كانت بريطانيا تضعها فى حسبانها ، وألقى موسوليني فى السادس والعشرين من شهر مارس خطاباً شديداً أكد فيه مطالب إيطاليا من فرنسا فى البحر الأبيض المتوسط وفى فجر السابع من شهر أبريل سنة ١٩٣٩ نزلت القوات الإيطالية فى ألبانيا وقد سيطرت على سائر البلاد بعد اشتباكات قصيرة . وكما كانت تشيكوسلوفاكيا نقطة ارتكاز للعدوان على بولندا فقد رؤى أن تكون

ألبانيا نقطة لاعتداءات مقبلة على اليونان . وشل يوغسلافيا ومنعها من الحركة . وكانت بريطانيا قد التزمت بضمان السلام فى الشمال الشرقى من أوروبا فما عسى أن يكون موقفها من الخطر الجديد من الجنوب الشرقى ؟ لقد سمح للأسطول البريطانى الذى كان يستطيع أن يقف الايطاليين عند حدهم فى البحر الأبيض المتوسط بالانصراف وبدأت باخرة السلام تتعرض للثقوب من كل ناحية .

وفى الخامس عشر من أبريل . وبعد إعلان الحماية الألمانية على بوهيميا ومورافيا اجتمع جورنج بموسولينى وتشيانو فى روما ليشرح لهما التقدم الذى وصلت إليه استعدادات ألمانيا فى طريق الحرب .

وفى نفس اليوم بعث الرئيس روزفلت برسالتين شخصيتين إلى هتلر وموسولينى حثهما فيهما على أن يتعهدا بعدم القيام بأى عدوان جديد لمدة عشر سنوات « أو خمس وعشرين سنة إذا كنا نريد أن نتطلع للامام » وقد رفض موسولينى فى البداية أن يطلع على الرسالة وقد علق عليها بعد الاطلاع « إنها ثمرة شلل الأطفال » ولم يدر بخلده أنه سيساق فيما بعد إلى آلام أشد من شلل الأطفال .

واتخذ رئيس الوزراء فى السابع والعشرين من شهر أبريل الخطوة الحاسمة بتقرير الخدمة العسكرية الإلزامية . على الرغم من تأكيداته سابقا بأنه لايتخذ مثل هذا الإجراء . ويرجع الفضل فى هذه اليقظة المتأخرة إلى المستر هوربليشا وزير الحربية . وقد قامر كما يبدو بحياته السياسية فى هذا الشأن إذ كانت المقابلات المديدة التى تمت بينه وبين رئيسه فى هذا الشأن متسمة بالصراحة والعنف . وقد رأيته كثيراً فى خلال هذه الفترة وكان دائم الاعتقاد بأن اليوم الذى كنت أراه فيه هو آخر أيامه فى الوزارة

ولم يكن إدخال التجنيد الإجبارى فى جيشنا ليؤدى إلى تأمين جيش لنا . فقد طبق هذا القانون على الشبان الذين يبلغون سن العشرين . وكان عليهم أن يجتازوا فترة من التدريب وكان على الحكومة بعد ذلك أن توفر لهم السلاح اللازم . ولكن هذه الإيماءة الرمزية كانت لها الأهمية الكبرى بالنسبة لفرنسا وبولندا وغيرها من الدول التى أغرقناها بضماناتنا ووعودنا . وقد توانت المعارضة فى المناقشة العامة

التى دارت فى مجلس العموم عن أداء الواجب . وتخوف حزبا العمال والأحرار من مواجهة الكراهية العميقة الشديدة فى إنكلترا للخدمة العسكرية الإجبارية .

ووجد زعماؤهما المبررات اللازمة لمعارضة هذه الخطوة . ولا شك أن هؤلاء الزعماء قد ساورهم الألم لاضطرارهم إلى الوقوف هذا الموقف الذى أملته عليهم الأهواء الحزبية ولكنهم اتخذوه على كل حال ووجدوا المبررات الحزبية التى تمليه . فلما أجرى الاقتراع فى المجلس وجد الانقسام على أسس حزبية وتمكن المحافظون من تأييد سياستهم بأغلبية ٣٨٠ صوتا إلى ١٤٣ ، وقد بذلت كل ماأستطيع من محاولات فى الخطاب الذى ألقيته لإقناع المعارضة بتأييد هذا الأجراء الذى لامفر منه ، ولكن محاولاتى كلها ذهبت سدى وقد أدركت حرج موقفهم « سيما وهم يواجهون حكومة يعارضونها كل المعارضة » ورأيت من واجبى تسجيل هذا الحادث لأنه يحرم أنصار الأحرار والعمال كل حق فى لوم الحكومة إذ ذاك ، فقد كانوا يقيسون آراءهم بالنسبة للحوادث بسذاجة وبساطة ، ولكن سرعان ماوجدوا أنفسهم فى حال تحتم عليهم أن يقيسوا الأمور بمقياس صادق جديد .

واشتركت فى مارس مع المستر إيدن ونحو من ثلاثين نائبا محافظا فى تقديم مشروع قرار إلى المجلس يدعو الى تأليف حكومة قومية .

وظهرت حركة قومية طوال الصيف تدعو الى تأييد هذه الفكرة أو إلى إدخالنا أنا والمستر إيدن فى الوزارة . وأحس السير ستافورد كريبس فى موقفه المستقل عن الأحزاب بالقلق الشديد للأخطار التى تهدد الوطن .

وقد زارنى وزار عددا من الوزراء ليدعو إلى تأليف حكومة « تضم الجميع » ولم أكن أستطيع أن أتحمل شيئا ولكن المستر ستانلى وزير التجارة . تحمس للفكرة كل التحمس . وكتب إلى رئيس الوزراء يعرض منصبه الوزارى . إذا كان يأمل إعادة تأليف الحكومة على أسس جديدة واكتفى المستر تشمبرلين باشعاره بتسلم الكتاب بصفة رسمية

وأخذت سائر الصحف تقريبا مع مرور الأيام وفى مقدمتها الديلى تلغراف والمانشستر جارديان تنشر هذا الرأى وتطالب به بالحاح . وقد أدهشنى ما رأيته فيها

من تـكرار يومى للحملة وبدت ألوف اللافتات فى أماكن مختلفة من العاصمة تحمل شعار « تشرشل يجب أن يعود » وكان عشرات المتطوعين من الشباب والفتيات يحملون شعارات مماثلة يدورون بها جيئة وذهابا أمام مجلس العموم . ولم يكن لى شأن بهذه الطرق . ولـكن لو طلب منى فى ذلك الوقت أن أشترك فى الحكم ماترددت . ويظهر أن حظى الطيب قد أراد أن يكون حليفى فى هذه الفترة أيضا وظلت الأمور تسير إلى نتائجها الطبيعية والمنطقية المعروفة .

على أبواب الحرب

وصلت العلاقات بين بريطانيا وألمانيا إلى حد يهدد بانقطاعها . ونحن نعرف أن العلاقات بين البلدين لم تكن صادقة منذ تولى هتلر الحكم . وغاية الأمر أنه حاول أن يلزم بريطانيا بالإقناع أو الإرهاب على أن تطلق يده فى أوربا الشرقية . فى حين حاول تشمبرلين تهدئته وإصلاحه والرجوع به إلى النهج السليم . لكن الوقت قد حان أخيراً لتعود الحكومة البريطانية إلى نفسها وتصد عن كل أمل لها فى هذا الشأن .

وقد اقتنع مجلس الوزراء أخيراً بأن ألمانيا النازية جادة فى سبيل الحرب . فبادر رئيس الوزراء بالضمانات وعقد الأحلاف يلقيها حيث شاء دون دراسة صحيحة للعون الذى نستطيع أن نقدمه لتلك البلاد . وفضلا عن الضمان الذى قدمه لبولندا وجدناه يعطى ضماناً مماثلا على اليونان ورومانيا ويعقد حلفا مع تركيا .

ولقد يذكرنا إلى تلك القصاصة التى دفع المستر تشمبرلن هتلر إلى توقيعها فى ميونخ . والتى عاد يلوح بها للجماهير المحتشدة من الشعب . بعد مغادرة الطائرة التى فى مطار هيستون . وكان اعتماده فى هذه الورقة على الارتباطين القائمين بينه وبين هتلر وبين بريطانيا وألمانيا وهما اتفاق ميونخ والمعاهدة البحرية بين بريطانيا وألمانيا . وقد قضى على الارتباط الأول إخضاع هتلر تشيكوسلوفاكيا ، أما الثانى فقد تخلص منه فى الثامن والعشرين من شهر إبريل . ثم أعلن إلغاء ميثاق عدم الاعتداء الموقع بين ألمانيا وبولندا . متخذا ضمان بريطانيا لها سبباً لهذا الإلغاء .

وقد أصبح حتما على الحكومة البريطانية أن تعجل بدراسة الوسائل العملية لتنفيذ ضماناتها لبولندا ورومانيا ، ولم يكن لهاتين الضمانتين قيمة من الناحية العسكرية إلا إذا دخلتا فى دائرة اتفاق عام يعقد مع روسيا . ولتحقيق هذه الغاية تقرر أن تبدأ المحادثات فى موسكو فى الخامس عشر من إبريل بين السفير البريطانى والسيو لتفينوف .

وإذا نظرنا بعين الاعتبار إلى الطريقة التى اتخذت مع الحكومة السوفياتية فى

الماضى ، اتضح لنا أنه لم يكن ينتظر منها الآن الشيء الكثير ، ومع ذلك فقد عرض الروس بصفة رسمية فى السادس عشر من شهر ابريل مشروعاً لم تنشر نصوصه ، لإيجاد جبهة متحدة للتعاون المشترك تضم بريطانيا العظمى والاتحاد السوفياتى وفرنسا على أن تقوم هذه الدول الثلاث وبولندا معها إذا أمكن ، بتقديم الضمانات اللازمة لأوروبا الشرقية والوسطى المهددة بخطر العدوان الألمانى .

وكانت العقبة فى طريق هذا الاتفاق هى خشية هذه الدول نفسها من تلقى العون الروسى فى جيوش سوفياتية تزحف نحو أراضيها للدفاع عنها ضد الألمان ومن ثم تضمها إلى النظام الشيوعى السوفياتى ، الذى كانت هذه الدول فى المقدمة من معارضيه ولم تكن بولندا ورومانيا وفنلندا ودول البلطيق تدرى أى الناحيتين تتق : العدوان الألمانى أم العون الروسى . ولعل هذا الموقف المخيف للخيار بين الناحيتين هو الذى شل حركة السياسة البريطانية والفرنسية وأفسدها .

ولا ريب — على ضوء ما حدث فيما بعد أن الأمر كان يحتم على بريطانيا وفرنسا أن تقبلا العرض الروسى ، وأن تعلنا تأليف التحالف الثلاثى ، وتجملا طريقة التطبيق فى حالة نشوب الحرب . محتملة التعديل بين الحلفاء المتضامنين فى الحرب ضد العدو المشترك .

ففى ظروف الحرب تتحكم ظروف وعوامل مختلفة كل الاختلاف ، فيميل المتحالفون إلى التساهل فيما يعن لبعضهم من رغبات حتى لا يسيطر على الجبهة إلا صوت المعركة . ويقبل الكل أموراً كانوا يكرهونها وقت السلم . ولم يكن من السهل فى حلف كبير كهذا الحلف الذى كان متوقعاً أن يدخل أى حليف أراضى حليف آخر إذا لم يدع إلى ذلك .

لكن المستر تشمبرلن ووزارة خارجيته وقفا حائرين إزاء هذه المعضلة ، التى تشبه لغز أبى الهول ، وكان من الحكمة والأحداث تتابع سراعاً على هذا النحو ، أن تتخذ الخطوات واحدة إثر أخرى .

فلو تم إعلان التحالف بين بريطانيا وفرنسا وروسيا فى سنة ١٩٣٩ لألقى هذا العمل الفزع فى قلوب الألمان ولكان من المستطاع تجنب الحرب . وكان فى مقدور

الحلفاء بعد أن يصلوا إلى القوة المتفوقة أن يخطوا الخطوة التالية . حيث يكون موقفهم قد أتاح لهم فرصة المبادرة . وكان على هتلر أن يواجه مشكلة معقدة ، فهو لا يستطيع أن يحارب فى جبهتين وقد حمل فى كتابه « كفاحى » فى شدة وعنف على هذه الناحية . . ولا يستطيع من الناحية الأخرى أن يحتمل أثر الكبح وما له من نتائج وقد أضعنا مع الأسف فرصة وضعه فى هذا المأزق الذى كان من المحتمل أن يكلفه غاليا وربما كلفه حياته .

ليس كل مايرجى من رجال الدولة أن يبتوا فى بسائط الأمور فحسب لكن فرصتهم الحقة وكفايتهم تبدو فى قراراتهم العظيمة التى يقدر لها أن تنقذ العالم حين يكون الميزان متأرجحاً وتكون الأمور المتعادلة مختفية وراء الحجب . ولما كنا قد وصلنا أنفسنا إلى تلك الحال الرهيبة التى وصلنا إليها سنة ١٩٣٩ فقد تحتم علينا أن ننتهز الفرص العظيمة . ولو أجاب المستر تشبرلين عندما تلقى العرض الروسى وقال : « نعم لنتفق نحن الثلاثة على تحطيم هتلر » أو قال كلمة أخرى من هذا القبيل فإن البرلمان كان سيؤيده فى سياسته ولاشك . وكان ستالين سيدرك الغرض المقصود ويسير التاريخ فى طريق مخالف لما حدث . ولن تكون النتيجة أسوأ مما وقع .

ومع ذلك طال الصمت ، وظلت تمد أنصاف الحلول والتسويات البطيئة . وكانت هذه المماطلات ضربة قاضية للتيفينوف . فقد أدرك أن محاولاته الاخيرة للوصول مع الحلفاء الغربيين إلى قرار حاسم قد فشلت كل الفشل . وتدهورت الثقة بنا عند الروس . الذين بدءوا يحسون بحاجتهم إلى سياسة مخالفة كل المخالفة لتأمين سلامة روسيا .

وصدر فى الثالث من شهر مايو بيان رسمى من موسكو بإقصاء لتفينوف عن وزارة الخارجية بناء على طلبه وتولى رئيس الوزراء مولوتوف أعمال الوزارة بدلا منه . وهكذا أقصى عن العمل اليهودى البارز الذى كان هدفاً لعداء ألمانيا . وقد ألقى به من مسرح السياسة العالمية إلى زوايا النسيان والرقابة البوليسية . ولم يسمح له بكلمة واحدة يبرر بها موقفه . وقد أصبح مولوتوف الذى لم يكن معروفا خارج روسيا قوميسارا للشؤون الخارجية يعمل بالتعاون الوثيق مع

ستالين . وكان هذا متحررا من سائر القيود التى تعليها البيانات السابقة وكذلك من محيط عصبة الأمم . وكان فى مقدوره أن يتحرك فى أى اتجاه يرى فيه سلامة روسيا . ولم يكن أمامه إلا طريق واحد يتجه إليه . إذ كان دائما من المؤيدين للوصول إلى تسوية مع هتلر وقد اقتنعت الحكومة السوفياتية باتفاق ميونخ وغيره بأن بريطانيا وفرنسا لم تكونا على استعداد لخوض المعركة إلا إذا هوجمتا . مما لا يجعل لحربهما قيمة ما فالعاصفة على وشك الهبوب وعلى روسيا أن تمنى بحالتها الخاصة .

ولا شك أن هذا التحول الشديد الغير الطبيعى للسياسة الروسية لا تستطيع أن تقوم به غير الدول الجماعية . ولم يكن قد مضى غير عامين على ذبح قادة الجيش الروسى وآلاف من ضباطه لقبولهم تلك الاتجاهات التى أصبحت الآن مقبولة لدى فئة من القلقين من سادة الكرملين . كانت الميول المؤيدة لألمانيا كفرا وخيانة . لكنها الآن سرعان ما أصبحت سياسة الدولة وقد أصبح الويل والشقاء لمن يجرءون على معارضة تلك السياسة أو الذين لا يسرعون إلى تقبل هذا التغيّر .

ولم يكن هناك من هو أجدر من القوميسار الجديد للشئون الخارجية ولا أكفأ منه للقيام بهذه المهمة الجديدة .

* * *

إن هذه الشخصية التى وضعها ستالين آنذاك على رأس السياسة الخارجية السوفياتية تستحق شيئا من الوصف الذى لم يكن متوفرا فى ذلك الحين للحكومتين البريطانية والفرنسية . فقد كان فياشيسلاف مولوتوف رجلا ذا كفاية ظاهرة يتسم بالقوة والعنف ، وقد تصدى للمخاطر والمحن الرهيبة التى تعرض لها الزعماء البلاشفة ابان انتصار الثورة . وعاش وبزغ نجمه فى مجتمع حافل بالدسائس التى تعرض شخصه لخطر التصفية وكان رأسه الذى يشبه فى صورته قذيفة المدفع . وشاربه الأسود وعيناه اللتان تتوقدان فهما وذكاء ، ووجهه المكتظ ، ولسانه الذاق ، ومظهره الساكن المطمئن . كلها ظواهر تدل على ماله من كفايات ومزايا . وكان أصلح من سواه لتنفيذ سياسة جهاز لا تعد قواه ولا تحصى . ولم ألتق به إلا ونحن فى وضع واحد متساو . وفى محادثات كان يظهر فيها متأثرا بطرفة لطيفة أو فى مأدبة كان يقترح فيها

بعض الأنجاب التقليدية ولم أر في حياتي رجلا غيره تتمثل فيه الفكرة المصرية عن الرجل الآلي .

ولكن كانت تختفي خلف هذه الصفات سياسة معقولة في ظاهرها مهذبة إلى درجة كبيرة . ولا أستطيع أن أبدي حكمي على موقفه ممن يعملون تحت رآسته . أما موقفه من السفير الياباني في السنوات التي تلت مؤتمر طهران عند ما وعد ستالين بمهاجمة اليابان بعد هزيمة الجيش الألماني . فنستطيع أن ندركه من محادثاته المسجلة . فقد تمت مقابلات متتالية تتسم جميعها بالرقة والتعمق والغرابة معاً . وكانت تجرى وفقاً لغرض عميق محتجب ، واتزان تام ! وجد رسمي ، ولم يثر في هذه المقابلات مشكلة أو يحدث ثغرة ، ولكنه كان يعثل بابتسامته الباردة صقيع شتاء سيبريا . مع كلمات متزنة متخيرة ومظهر محبوب ، يجعله وكيلا ممتازاً للسياسة السوفياتية في عالم شديد الاضطراب .

وكانت طريقة التراسل معه في الأمور المختلف عليها لا تجدى . وإذا مضى هذا التراسل قدماً فإنه كان ينتهي بالأكاذيب والإهانات التي سيحتوى هذا الكتاب على أمثلة بارزة منها . ولم أر فيه الاستجابة الإنسانية المألوفة إلا مرة واحدة وكان ذلك في ربيع سنة ١٩٤٢ عند ما نزل إلى بريطانيا في طريق عودته من الولايات المتحدة إلى بلاده ، وكنا في ذلك الوقت قد وقعنا المعاهدة البريطانية السوفياتية وهو على وشك الرحيل في رحلته الجوية الخطرة نحو بلاده .

فلما وقفت معه في مدخل حديقة داونينج ستريت الذي كنا نلوذ به حين نتحدث في أمور سرية — أمسكت بذراعه . وأخذ كل منا ينظر في وجه صاحبه . وفجأة ظهر لي وكأنه تأثر تأثراً عميقاً . وبدت لي من وراء الصورة حقيقة الإنسان . فاستجاب لقبضتي وأمسك كل منا بيد الآخر بشدة في مودة وفي سكون ، ولكننا كنا معاً نخوض معركة الحياة أو الموت بالنسبة لنا أو للكثيرين ممن معنا . إن الخراب والهلاك يحيطان به في كل لحظة إما له أو عليه .

ولا شك أن الآلة السوفياتية قد وجدت فيه ممثلا ممتازاً في إخلاصه الحربي المذهبي الشيوعي . ومن دواعي غبطتي أنني لم أعان ما عاناه من الشدة فقد كنت

أفضل حينئذ أنني لم أوله . ولا شك أن ما زاران وتاليران ومترنيخ يرحبون به في زمرتهم لإدارة السياسة الخارجية لو كان البلاشفة يسمحون لأنفسهم أن يعيشوا في العالم الآخر .

وقد سار مولوتوف على سياسة ترمى إلى عمل تسوية مع ألمانيا على حساب بولندا . وكانت المفاوضات الروسية مع بريطانيا تسير سيراً وئيداً . وقد أثير الموضوع كاملا في مجلس العموم في التاسع عشر من شهر مايو . وقد كانت المناقشات مقصورة على البارزين من رجال السياسة ومن الوزراء السابقين . وقد كنت أنا والمستر لويد جورج والمستر إيدن نستحث الحكومة على الوصول إلى تسوية عاجلة مع روسيا على أن تكون على قدم المساواة وعلى أسس واسعة .

وقد أجاب رئيس الوزراء . وكشف عن آرائه في العرض السوفياتي فقد استقبله استقبالا فاتراً ينطوى على السخرية . ويفتقر إلى التقدير شأنه في رفض الاقتراح الذى أرسله روزفلت قبل عام . وقد تحدث أتلى وسنكلير وإيدن عن الخطر العاجل والحاجة إلى التحالف مع روسيا . ولم يكن هناك أقل شك في فوات الوقت . فقد ارتطمت جهودنا بجمود لا يتحول . فعلى الرغم من قبول الحكومتين البولندية والرومانية الضمان البريطاني . فإنهما لم يكن لديهما استعداد لقبول تعهد مثل هذا من الحكومة الروسية . وقد ظهر موقف مماثل في منطقة استراتيجية حيوية أخرى هى دول البلطيق . وكانت الحكومة السوفياتية قد أعلنت أنها لن تساهم في ميثاق لتبادل المساعدة إلا إذا شمل فنلندا ودول البلطيق الأخرى . وكانت هذه الدول ترفض هذا الميثاق وترفض قبول هذا الشرط تحت عامل الخوف وقد بالغت فنلندا وأستونيا في هذا الرفض فأعلنتا أن أى ضمان يقدم دون موافقتهما تعدانه عملا عدائياً . ووقعت أستونيا ولاتفيا في السابع من شهر يونيه مواثيق عدم الاعتداء مع ألمانيا .

وهكذا استطاع هتلر بسهولة أن ينفذ إلى الخطوط الدفاعية الأخيرة لذلك الحلف المتشكك المتأخر الذى أقيم ضده .

وأخذت تنصرم أيام الصيف ، والتأهب للحرب مستمر في سائر أنحاء أوربا . ولم يعد ثمة تقدير لمواقف الدبلوماسيين وخطب الساسة وآمال الجنس البشرى ،

وبدت النذر الألمانية لتسوية مشكلة النزاع على دانزج مع بولندا بطريق العنف . كمقدمة للهجوم على بولندا . وأعلن المستر تشمبرلن للبرلمان عن قلقه فى العاشر من شهر يونية . وكرر اعتزامه الوقوف إلى جانب بولندا إذا تعرض استقلالها للخطر . وأعلنت الحكومة البلجيكية بطريقة منافية لما عليه الحقائق . وبتأثير من ملكها . فى الثالث والعشرين من يونية معارضتها اجراء محادثات لأركان الحرب مع انكلترا وفرنسا وقد أكدت عزمها على التمسك بالحياد الدقيق .

وقد أدى تطاول الأحداث إلى توحيد الصفوف بين بريطانيا وفرنسا وفى داخل بريطانيا نفسها ، وتعددت حركات الانتقال بين لندن وباريس خلال شهر يولية . وكانت احتفالات الرابع عشر من شهر يولية فى فرنسا فرصة سانحة لإعلان الاتحاد بين انكلترة وفرنسا . وأرسلت الحكومة الفرنسية دعوة إلىّ لشهود هذه الاحتفالات .

وقد اقترح على الجنرال جملان وأنا أبارح ميدان « ليبورجيه » بعد العرض العسكرى أن أزور الجبهة الفرنسية وقال : « إنك لم تر قط قطاع الراين . فتعال فى شهر أغسطس لأطلعك على كل شىء » وأعددت الخطة اللازمة لهذه الزيارة . وفى الخامس عشر من شهر أغسطس ذهبت أنا والجنرال سبيرز وقد رحب بنا صديقه الجنرال جورج القائد العام لجيوش الجبهة الشمالية الشرقية والمرشح لتولى القيادة العليا ، عند غياب جملان . وقد سررت كثيرا للقاء هذا الضابط العظيم المهذب ، وقضينا الأيام العشرة التالية معه ننظر فى شتى المسائل العسكرية ونتصل بجملان وكان يقوم بتفتيش بعض الأماكن فى الجبهة .

بدأنا رحلتنا فى ليتربورج عند منعرج الراين ومررنا بسائر القطاع حتى وصلنا إلى الحدود السويسرية . وكان الشعب فى انكلترا كما كان سنة ١٩١٤ ياهو بقضاء اجازاته ، واللعب مع أطفاله على الشواطىء ، أما هنا فى الراين ، فقد بدا لى منظر مغاير فقد رفعت جميع الجسور المؤقتة القائمة على النهر من أماكنها إلى أماكن أخرى أما الجسور الثابتة فقد وضعت تحتها الألغام وأقيمت عليها الحراسة القوية وعهد إلى ضباط أكفاء بمراقبتها ليلا ونهاراً . ليضغطوا على الأزرار اللازمة لنسف هذه الجسور فى اللحظة الملائمة .

وكان النهر العظيم يسير فى فيضان عارم لما عات مياهه من ثلوج الألب الذائبة . وكانت المراكز الفرنسية الأمامية تحتل أماكنها بين الشجيرات القصيرة . وكان فى استطاعة رجلين أو ثلاثة منا ان يصلوا إلى ضفة الماء ولا يكون منا هدف معرض للاصابة وكنا نرى الألمان على مسافة ثلثمائة ياردة منتشرين بين الأدغال فى الجانب الآخر . يعملون فى يسر واطمئنان فى إعداد مراكزهم الدفاعية والفؤوس والمجاريف فى أيديهم . وقد أجلى المدنيون من الحى الواقع على ضفة النهر فى مدينة ستراسبرج . ووقفت لحظة على الجسر أراقب السيارات وهى تمر من فوقه . وكنت أرى أن عملية فحص الجوازات والبطاقات تستغرق وقتاً أكثر من المألوف على الجانبين ، ولم يكن الواقع الألمانى يبعد عن الفرنسى هنا أكثر من مائة ياردة . وليس مع ذلك بين الموضعين أى اتصال لكن أوربا كانت ما تزال تتمتع بالسلام حتى تلك اللحظة . ولم يكن هناك أى صراع بين ألمانيا وفرنسا . وكان نهر الراين لا يزال يجرى بسرعة ستة أميال أو سبعة فى الساعة . ولم أر الراين مرة أخرى إلا بعد خمس سنوات فى مارس سنة ١٩٤٥ وأنا أعبره مع المرشال مونتجمرى بالقرب من ويسل إلى ناحية الشمال .

ولعل أهم مالفت نظرى فى هذه الزيارة هو الروح الدفاعية التى سيطرت على مضيفى من البارزين الفرنسيين وقد فرضت على فرضاً فتقبلتها راضياً . وقد اتضح لى من الأحاديث التى دارت بينى وبين هؤلاء الضباط الفرنسيين العظماء أنهم جميعاً يشعرون بتفوق القوة الألمانية على قواهم . وأن فرنسا لاتستطيع القيام بهجوم عظيم . ولكنها تحارب دفاعاً عن كيانها فحسب . فهناك خط سيجفريد المحصن بكل ما للأسلحة الحديثة من قوة عظيمة ضاربة وكنت أشعر برعدة تنساب فى جسدى عند ما أذكر هجومى السوم وباشينديل ، وكان الألمان الآن أقوى مما كانوا عليه أيام ميونخ ولم نكن ندرك ما تحسه قيادتهم العليا من القلق . وقد قبلنا هذا الوضع من الناحيتين الواقعية والنفسية . ولم يكن لأى إنسان مسئول — ولم أكن مسئولا حتى تلك الآونة — أن يعمل على أساس اقتراحين ، أن اثنتين وأربعين فرقة ألمانية فحسب مجهزة نصف تجهيز ومدربة نصف تدريب تتوالى حراسة هذه الجبهة الطويلة الممتدة من بحر الشمال إلى سويسرا وكان هذا الرقم لا يتجاوز ثلاث عشرة فرقة أيام ميونخ .

***

ولشد ما كنت أخشى فى هذه الأسابيع الأخيرة أن تتراجع حكومة جلالته على الرغم من ضمانتها لبولندا عن الحرب ضد ألمانيا . إذا حاربتها . ولكن لم يكن هناك شك فى أن المستر تشمبرلن كان قد استقر رأيه على الحرب على الرغم مما فى هذا القرار من مضض ولكنى لم أكن أعرفه كما عرفته بعد مضى عام . وكنت أخشى أن يقدم هتلر على أكذوبة جديدة من مبتدعاته فيزعم وجود سلاح جديد يرهب مجلس وزرائنا الذى تراكت عليه الأعباء وكان الأستاذ ليندمان يتحدث إلى على الدوام عن الطاقة الذرية فطلبت منه أن يطلعنى على معلوماته فى هذه الشأن وبعد حديثى معه بعثت إلى كنجزلى وود وزير الطيران بالرسالة التالية وكانت صلتى به وثيقة .

« ظهرت صحف الأحد منذ أسابيع معلنة عن الطاقة الهائلة التى يمكن استخراجها من اليورانيوم ، عن طريق سلسلة من التجارب التى اكتشفت حديثاً والتى تقع عند ما ينفلق هذا النوع من الذرة وقد تلقى هذه المكتشفات فى روعنا الخوف من وجود متفجرات جديدة لها قوة تدمير هائلة ولهذا يجب أن نعلم ألا خطر لهذا الاكتشاف على الرغم من قيمته العلمية إذ لا يمكن أن يؤدى إلى نتائج عملية قبل بضع سنوات » .

« وقد بدت أمارات تدل على أن قصصاً ستحاك عند ما تشتد الأزمة الدولية عن استخدام هذا الاكتشاف العلمى فى متفجرات سرية جديدة ذات أثر بالغ يمكنها أن تمحو مدينة لندن من الوجود ؛ وستبدو محاولات عن طريق رجال الطابور الخامس بتهديدنا ودعوتنا إلى استسلام جديد . لهذا رأيت من واجبى أن أوضح لك الموقف على حقيقته . »

فالخوف من أن يكون لدى النازيين سلاح جديد يستطيعون به أن يدمروا أعداءهم لا يستند على أساس علمى سليم . وستظهر ولا شك : إيماءات سود من هذا النوع ، وستنتشر همسات مخيفة من هذا النوع بصور مكبرة ، ولكن كل ما آمل أن لا يصدق أحد من المسئولين هذه الشائعات » .

ومن الواضح أن هذا التنبؤ كان دقيقا وفى غاية الدقة . ولم يكن الألمان هم الذين عثروا على الطريق الذى يريدون ولكنهم ولاشك قد سلكوا الطريق الخاطىء ثم تخلوا فعلا عن البحث عن القنبلة الذرية وقد وضعوا كل همهم فى صنع الصواريخ الموجهة والطائرات التى تقاد بغير طيارين . فى الوقت الذى كنت فيه أنا والرئيس روزفلت نتخذ القرارات ونضع الاتفاقات الخالدة التى سأشرحها فى موضعها من هذا الكتاب ، لصناعة القنابل الذرية على نطاق واسع .

وفى السابع من شهر يولية قال موسولينى للسفير البريطانى « قل لتشمبرلين إن انكلترا إذا كانت مستعدة للقتال دفاعا عن بولندا فان إيطاليا ستحمل السلاح مع حليفتها المانيا .

لكن موقفه الحقيقى الذى كان يخفيه وراء الستار كان مخالفا لهذا كل المخالفة فقدكان لا يريد أكثر من تثبيت أقدامه ورعاية مصالحه فى البحر الأبيض المتوسط وشمال أفريقيا ، وقد جنى ثمرة تدخله فى أسبانيا ، ونتائج احتلاله ألبانيا . ولم تكن له رغبة فى أن يساق إلى حرب أوربية بسبب احتلال المانيا لبولندا .

وكان على كثرة مايدعى ويتبجح يعرف أكثر من غيره حقيقة ضعف ايطاليا سياسيا وعسكريا . وكان على استعداد للتحدث عن دخول الحرب سنة ١٩٤٢ إذا قدمت المانيا له السلاح . أما الاقدام على الحرب سنة ١٩٣٩ فلا .

ولما اشتد على بولندا الضغط فى أشهر الصيف عاد موسولينى يكرر دوره الذى مثله فى ميونخ كوسيط واقترح عقد مؤتمر عالمى للسلام . ولكن سرعان ما بدد هتلر هذه الأفكارمن ذهنه . وصرح لتشيانو فى شهر أغسطس بأنه مصمم على تسوية الوضع مع بولندا وأنه ربما أجبر على الدخول فى حرب مع انكلترا وفرنسا كذلك وأنه يريد من إيطاليا أن تشترك فى الحرب . وقال « إذا كانت انكلترا ستبقى القوات اللازمة فى بلادها فإنها لا تستطيع أن تبعث إلى فرنسا أكثر من فرقتين من المشاة . مع فرقة مدرعة ولا تستطيع أن تبعث إلى برلين غير الطائرات القاذفة للقنابل أما المقاتلات فليس فى وسعها أن تبعث منها طائرة واحدة إذ أنها ستحتاج إليها فى بلادها إذ أن القوة الجوية الألمانية ستهاجم انكلترا فى الحال . وستكون

فى حاجة إلى مقاتلاتها للدفاع عن أرضها » وقال متحدثا عن فرنسا إنه بعد تدمير بولندا الذى لايستغرق وقتا طويلا ستستطيع ألمانيا أن تحشد مئات الفرق على جدارها الغربى . فتصبح فرنسا مضطرة إلى حشد سائر قواتها على خط ماجينو من أن تنقل ما لديها منها من المستعمرات أو على الحدود الإيطالية . لمركة هى معركة الحياة والموت بالنسبة لبلادها . وعاد تشيانو آسفا لينقل إلى مولاه ما أتى على سمعه فوجده مقتنعا كل الاقتناع بأن الدول الديمقراطية ستدخل المعركة ووجده مصمما على البقاء خارجها .

* * *

وبذلت الحكومتان البريطانية والفرنسية محاولة جديدة للتفاهم مع روسيا السوفياتية . وتقرر إيفاد مندوب إلى موسكو وقبل المستر ايدن القيام بهذه المهمة وقد سبقت له اتصالات مجدية مع ستالين قبل بضع سنوات . إلا أن رئيس الوزراء رفض هذا العرض وعهد بهذه المهمة إلى المستر سترانج فى الثانى عشر من شهر يونية وهو موظف كفء من موظفى وزارة الخارجية ولكن ليست له مكانة سياسية خارج وزارة الخارجية . وكان ذلك خطأ كبيرا إذ أن إيفاد موظف كهذا يعد صغيرا مهما ارتفع شأنه أساء كثيرا إلى روسيا . وإنى لأشك فى أنه استطاع النفاذ من القشرة الخارجية للجهاز السوفياتى . وقد فات الوقت المناسب ووقعت أحداث كثيرة منذ بعث المسيو مايسكى لكى يلتقى بى فى شارتويل فى سبتمبر سنة ١٩٣٨ . وقعت ميونخ . وأتيحت لجيوش هتلر فرصة سنة كاملة لتزداد قوة ونضجا . وأخذت مصانع الذخيرة الألمانية التى ضمت إليها مصانع شكودا تعمل ليلا ونهارا فى إنتاجها . وكانت الحكومة السوفياتية قلقة أشد القلق من جراء تشيكوسلوفاكيا . ولكنها قد اندثرت وأرسل بنيش إلى منفاه وقد حل محله حاكم ألمانى فى براج .

وكانت بولندا تتمثل لروسيا فى عدة مشاكل استراتيجية وسياسية طويل أمدها . وكان الاشتباك الأخير بينهما قد وضع فى معركة وارسو سنة ١٩٢٠ عندما صد بلودسكى الجيوش البلشفية التى قادها كامينييف . بتأييد الجنرال فيجان والبعثة البريطانية التى كان يرأسها اللورد دابيرنون . ثم سرعان ما ثارت لنفسها وطاردتها

بإهراق كثير من الدماء . وظلت بولندا طوال هذه السنوات رأس رمح فى جانب الباشفية وكانت تمد يدها اليسرى لتأييد دول البلطيق المعادية للسوفيات ونصرتها بينما كانت تمد يدها اليمنى فى أزمة ميونخ لتقطيع أوصال تشيكوسلوفاكيا . وكانت الحكومة السوفيانية تعلم علم اليقين أن البولانديين يكرهونها وأنهم لا حول لهم للوقوف فى هجوم ألمانى . وكان الروس فضلا عن هذا يعرفون كل المعرفة ما يتعرضون له من الأخطار ويعرفون الوقت الذى يحتاجونه لإصلاح ما حل بقيادة جيوشهم من أضرار . ولم يكن من المنتظر أن ينجح المستر سترانج فى مهمة فى مثل هذه الظروف .

ومن ثم بدأت المفاوضات تدور حول تردد بولندا ودول البلطيق فى قبول مساعدة السوفيات ضد ألمانيا . ولم تنته إلى نتيجة . وظلت المحادثات تدور فى هذا الشأن دون انقطاع طوال شهر يولية . وقد اقترحت الحكومة السوفيانية أخيرا أن تظل المحادثات قائمة على أسس عسكرية باشتراك ممثلين عن القيادتين البريطانية والفرنسية . ومن ثم أرسلت الحكومة البريطانية الأميرال دراكس على رأس بعثة إلى موسكو فى العاشر من شهر أغسطس ولم يكن لديهم أى تفويض كتابى بحق المفاوضة . ووصلت البعثة الفرنسية برآسة الجنرال دومانك ومثل الجانب الروسى فى المحادثات المرشال فوروشيلوف . وقد وافقت الحكومة السوفيانية على أن يصل إلى موسكو مفاوض ألمانى . ولكن سرعان ما اصطدم هذا المؤتمر العسكرى برفض بولندا ورومانيا السماح للقوات الروسية بعبور أراضيها وكان شعار البولنديين « إننا سنفقد مع الألمان بفقد حريتنا . أما مع الروس فإننا سنفقد بأرواحنا » .

وقد شرح لى ستالين فى أغسطس سنة ١٩٤٢ ونحن فى الكرملين فى الساعات المبكرة صباح يوم من الأيام ناحية من نواحى الموقف السوفياتى فقال : « لقد أيقنا بأن الحكومتين البريطانية والفرنسية لا تعتزمان الاشتراك فى الحرب إذا هوجمت بولندا . ولكنهما تتوقعان أن يؤدى إعلان الحلف البريطانى الفرنسى الروسى إلى إرهاب هتلر ووقفه عند حده . ولكننا كنا موقنين بأن هذا الإعلان لا يصد هتلر ويرجعه عن عزمه » وكان يسائل أثناء المفاوضات « كم فرقة تستطيع فرنسا

أن تبعث بها إلى الميدان فى حالة التعبئة ضد ألمانيا » وكان الرد « حوالى مائة فرقة » وعاد يتساءل « وكم تستطيع إنكلترا أن تبعث » وكان الرد « فرقتين فى الحال » ثم فرقتين أخريين فيما بعد » وعاد ستالين يقول « آه فرقتين الآن وفرقتين فيما بعد ! ! » ثم مضى يقول « أتعرفون كم عدد الفرق التى سندفعها إلى الجبهة الروسية إذا دخلت روسيا الحرب ضد ألمانيا ؟ » ولم يجب أحد من المتفاوضين فقال ستالين « أكثر من ثلثمائة فرقة » ولم يخبرنى ستالين عن الرجل الذى أفضى إليه بهذا الحديث ولا عن تاريخه . ولكن يجب أن نعترف بصحة ما كان يقول وإن كان هذا لا يوافق المستر ستراتج .

وكان ستالين ومولوتوف قد قررا ضرورة إخفاء نواياهما المساومة إلى اللحظة الأخيرة . وقد أبدى مولوتوف ومساعده حذقا شديدا فى التزاوج أثناء هذه المفاوضات التى كانت تجرى مع الفريقين وأعلن ستالين مساء التاسع عشر من شهر أغسطس فى جلسة عقدها المكتب السياسى للحزب الشيوعى اعتزامه عقد ميثاق مع ألمانيا . ولم يستطع ممثلوا الحلفاء أن يمثروا فى الثانى والعشرين من شهر أغسطس على الريشال فوروشيلوف حتى ساعة متأخرة من الليل وقد وصل ريبنتروب إلى موسكو فى اليوم التالى وأعلنت ألمانيا فى اتفاق سرى عقدته فى روسيا أنها لا تهتم سياسيا بلاتفيا واستونيا وفنلندا . وقد اعتبرت لتوانيا داخلة فى حدود منطقة نفوذها . وتم رسم خط الحدود بعد تقسيم بولندا . ولم تطلب ألمانيا من دول البلطيق سوى بعض المصالح الاقتصادية . وقد وقع فى ساعة متأخرة من ليلة الثالث والعشرين من شهر أغسطس على ميثاق عدم الاعتداء والاتفاق السرى .

وعلى الرغم من جميع الوقائع المحزنة التى أوضحتها فى هذا الفصل . لم يكن إلا فى مقدور الديكتاتورية الجماعية أن تواجه الكراهية المترتبة على هذا العمل الشاذ . ونستطيع أن نتساءل هل كانت كراهية هتلر لهذا العمل أشد من كراهية ستالين ؟ أو كان الأمر على النقيض . ولكن لا شك أن الرجلين كانا يدركان أن هذه التسوية أمرها موقوت وأنها تسوية أملتها المنفعة المؤقتة . فالعداء بين النظامين والامبراطوريتين عداء قتال . وربما خطر لستالين أن هتلر سيكون عدواً أضعف قوة بعد سنة من

القتال مع الدول الغربية . أما هتلر فقد سار على القاعدة التى اتبعها « عدو واحد فى وقت واحد » ، ولكن وقوع هذا الاتفاق يدل على مدى ما وصلت إليه السياسة البريطانية الفرنسية من الفشل طوال هذه السنوات .

ويتحتم علينا أن نذكر أن الجانب الروسى كان فى حاجة شديدة إلى إبقاء الجيوش الألمانية مشغولة فى الغرب إلى أبعد مدى ليجد الوقت الكافى لتجميع القوى الروسية المنتشرة فى سائر أنحاء الامبراطورية الواسعة الأرجاء . وكانوا قد شغلوا أذهانهم بالتفكير فيما حل بجيوشهم من الكوارث فى سنة ١٩١٤ حين اندفعت لمهاجمة الألمان ولم تكن قد استكملت استعدادها . ولكن حدودهم الآن تقع بعيداً فى الشرق من حدودهم فى الحرب العالمية الأولى . وعليهم أن يحتلوا دول البلطيق وجزءاً كبيراً من بولندا بالقوة أو بالخديعة قبل أن يهاجموا . وإذا كانت السياسة السوفياتية معروفة بالأناة فإنها كانت فى هذه المرة واقعية إلى أبعد مدى .

ويجدر بنا أن نسجل هنا نص الميثاق الذى أشرنا إليه :

« ترى الدولتان المتعاقدتان الساميتان ، أن من واجبهما الامتناع عن أى عمل من أعمال القوة أو العدوان أو الهجوم بعضهما على البعض بصفة فردية أو بالاشتراك مع دول أخرى على حد سواء » .

وكان من المقرر أن يبقى هذا الميثاق نافذا عشر سنوات ويتجدد تلقائياً لمدة خمس سنوات أخرى إذا لم يعلن أحد الفريقين المتعاقدين إلغاءه قبل سنة من انتهاء هذه المدة . . وقد احتفل بتوقيع هذا الميثاق احتفال كبير . وتبودلت الأنخاب الكثيرة على مائدة المؤتمر واقترح ستالين أن يشرب الحاضرون نخب الفوهرر «بهذه العبارة » أنا أعرف تماماً كيف يحب الشعب الألمانى زعيمه لذلك فإنى أشرب نخب صحته أو نستطيع أن نخرج من كل هذه الوقائع بمغزى واحد فى غاية من البساطة . وهو « أن الاستقامة هى السياسة المثلى » وسنرى فى صفحات هذا الكتاب أمثلة عديدة تعزز هذه النظرية . فقد يخدع الساسة والدهاة فى تقديراتهم التى قضوا زمناً فى وضعها . ولكن هذا المثل يبدو أكثر وضوحاً حينما نرى أنه لم يمض أكثر

من اثنين وعشرين شهرا حتى أرغم ستالين وعشرات الملايين من الشعب الروسى على دفع ثمن باهظ مرعب لما حدث . وقد تصل أية حكومة على فوائد جمة وليست لها قواعد ومثل أخلاقية تحد من حريتها فى العمل . ولكن الأمور تتعادل فى نهاية اليوم ثم تتعادل أكثر وأكثر فى نهاية الأيام .

وهبطت الأنباء المشئومة على العالم كالقنبلة . ولكن مهما تكن العواطف التى اجتاحت الحكومة البريطانية فإن الخوف لم يكن سبيلها ولم تضع وقتاً حتى أعلنت « أن الحادث لن يؤثر بحال من الأحوال على التزاماتها التى صممت عليها » .

وقد عجل باتخاذ الاجراءات الاحتياطية وصدرت الأوامر للدفاع الساحلى ضد الطائرات . وتأمين الدفاع عن الجهات المعرضة للخطر . وأرسلت برقيات الإنذار إلى دول الدومنيون وألغيت الاجازات فى القوات المسلحة ، وأصدرت الاميرالية تحذيرها إلى البواخر التجارية ، واتخذت السلطات خطوات أخرى . وأعلنت الحكومة البريطانية فى الخامس والعشرين من شهر أغسطس توقيع معاهدة رسمية مع بولندا تؤكد الضمانات السابقة ، وكان الأمل من وراء هذا الاتفاق ، إعطاء الفرصة المثلى لألمانيا وبولندا لتسوية خلافاتهما بالتفاوض . علماً بأن فشل هذه المفاوضات يعنى وقوف بريطانيا إلى جانب بولندا فى حالة الحرب ، وقد أجل هتلر موعد الغزو النهائى من الخامس والعشرين من أغسطس إلى اليوم الأول من شهر سبتمبر وأخذ فى مفاوضات مباشرة مع بولندا ، تحقيقاً لرغبة تشمبرلن . ولم يكن هدفه الحقيقى الوصول إلى اتفاق مع بولندا ولكن إعطاء حكومة جلالته كل فرصة للتهرب من ضماناتها . ولكن أفكار الحكومة وأفكار البرلمان وأفكار الشعب كانت جميعها تسير فى طريق مخالف . ومن الحقائق العجيبة التى تؤثر من سكان هذه الجزر البريطانية الذين يكرهون التدريب والذين لم تغز بلادهم منذ ألف سنة إن أعصابهم تهدأ شيئاً فشيئاً كلما اقتربوا من الخطر ورأوه ماثلا أمامهم ثم سرعان ماينقلبون إلى حال من القوة المستشرية .. وعندما يصبح الخطر واقعاً يظلون بواسل لا يهابون الموت وقد نجتهم هذه الشمائل مرات عديدة من أخطار ساحقة وأخرجتهم من كثير من المآزق .

وقد استبان هتلر بعد اتصاله بموسوليني — إن لم يكن قد توقع — أنه لا يستطيع أن يعول على تدخل إيطاليا المسلح إذا نشبت الحرب . ولعل الدوتشي علم بالخطوات الأخيرة من المصادر الانكليزية لا من المصادر الألمانية ، ويقول تشيانو في يومياته بتاريخ السابع عشر من شهر أغسطس « لقد نقل إلينا الانكليز نصوص الافتراحات التي قدمها الألمان إلى لندن . ولم نكن نعرف عنها شيئاً من الألمان » ، وكان كل ما يبغي موسوليني هو أن يقبل هتلر حياد إيطاليا وقد قبل هتلر هذا الحياد .

وأصدر هتلر في الحادي والثلاثين من أغسطس « دعوته الاولى لإدارة دفة الحرب »

« ١ — لما كانت سائر الاحتمالات السياسية المأمولة لتسوية الاوضاع على الحدود الشرقية بالطرق السلمية قد استنفدت ، وهي أوضاع لا يمكن لألمانيا أن تحتملها فقد قررت الوصول إلى حلها بطريق القوة » .

« ٢ — يجب تنفيذ الخطة الموضوعة للهجوم على بولندا ، وقد حدد الموعد في صباح اليوم الاول من سبتمبر سنة ١٩٣٩ الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والاربعين » .

« ٣ — وفي الغرب يجب أن تقع مسئولية البدء بالاعمال العدوانية من جانب انكلترا وفرنسا بحالة ظاهرة . وفي حالة وقوع أحداث بسيطة من العدوان على الحدود يجب الاكتفاء بالعمل المحلي البحت » .

وبعد عودتي من جبهة الراين ، قضيت أياما سعيدة أتمتع بالشمس في رحاب السيدة بلسان مع رفقة مؤنسة وإن سيطر عليهم شيء من القلق . وتلك هي الدار نفسها التي قضى فيها هنري ملك النافار ليلته الأخيرة قبل معركة إيفري . وكان كل إنسان يحس ذلك الجو المزعج الذي يخيم على الجميع . حتى كان الضوء المألوف في هذا الوادي الجميل في حوض الأور قد فقد بريقه وقد رأيت أنني لا أستطيع أن أرسم لوحاتي في هذا الجو المليء بالقلق والريب .

وقد قررت فى السادس والعشرين من شهر أغسطس أن أعود إلى الوطن حيث أكون على مقربة من الأحداث وأستطيع الاتصال بها . وأبلغت زوجتى أننى سأرسل فى طلبها فى الوقت الملائم . ودعوت وأنا فى باريس فى طريقى إلى لندن الجنرال جورج ليتناول معى الغداء . فأطلعنى على الأرقام الخاصة بجيوش فرنسا وألمانيا وقد وضع أمامى كفايات الفرق و نوعها وعددها وقد كانت النتيجة ذات تأثير بالغ على نفسى حتى اننى قلت لأول وهلة « إذن فأنتم المتفوقون » ورد بقوله « إن للألمان جيشاً عظيم البأس . ولن نستطيع أن نكون البادئين بأية حال ولكن إذا هوجمنا فان بلدينا سيقفان فى صف واحد للقيام بالواجب » .

وأمضيت تلك الليلة فى شارتويل حيث كنت قد طلبت إلى الجنرال ايرونسايد أن يزورنى فى اليوم التالى . وكان قد عاد لساعته من بولندا وقدم تقارير مرضية عن الجيش البولندى الذى شاهد مناوراته الناجحة بنيران المدافع الحية وكانت الروح المعنوية عند البولنديين عالية . وقد أمضى الجنرال ثلاثة أيام معى . وحاولنا معا أن نصل إلى أعماق الأمور ونكشف أسرارها وعادت زوجتى . عن طريق دنكرك فى الثلاثين من شهر أغسطس بعد أن تلقت منى إشارة بالعودة .

وكان فى انجلترا نحو عشرين ألف من النازيين الألمان ومن المنتظر قيامهم بأعمال القتل والتخريب عند نشوب الحرب وفقا لتقاليدهم . ولم يكن فى نيتى أن أطلب لنفسى حماية إلا أننى أعلم بأن شهرتى وبروز اسمى يحتمان على الاحتياط وكانت معلومات كافية لاقناعى بأن هتلر يعدنى فى الصف الأول من أعدائه . وكان مفتش الشرطة السابق المستر طومسون من الذين سبق لاسكوتلنديارد أن انتدبتهم لمرافقتى قد أحيل إلى التقاعد فطلبت إليه أن يوافينى فى شارتويل ومعه مسدسه وأعددت أنا أسلحتى الخاصة . وكانت على أحسن حال . وكنت أتبادل معه مراقبة المكان فلا نسمح لأحد بالاقتراب من المنزل وكنت أقدر أن الحرب إذا وقعت فسوف يقع عبء ثقيل على كاهلى .

طلائع الحرب

قامت ألمانيا بالهجوم على بولندا فجر أول سبتمبر وفى صبيحة اليوم نفسه أصدرت حكومتنا أمرها بتعبئة سائر قواتنا ورغب إلى رئيس الوزراء فى زيارة بداوننج ستريت بعد ظهر ذلك اليوم وقد قال لى إنه لا أمل لديه فى تجنب الحرب مع المانيا ويقترح تأليف وزارة صغيرة للحرب تضم وزراء ليست لهم وزارات خاصة لإدارتها . وذكر أن حزب العمال — ليس على استعداد للاشتراك فى حكومة ائتلافية . أما الأحرار فإنه يأمل أن يشتركوا معه .

ودعانى أن أكون عضواً فى هذه الوزارة الحربية الصغيرة . ووافقت بغير تعليق . وقد دار بيننا على هذا الوضع حديث طويل حول الشخصيات والإجراءات .

وكان موضع دهشتى أننى لم أسمع شيئاً من المستر تشمبرلن طوال اليوم الثانى من سبتمبر على ما كان فى هذا اليوم من أزمات فخطر لى أنه يبذل محاولة أخيرة لانقاذ السلام . وقد دلت الأيام على صدق ظنى . ومع ذلك فقد دارت عند انعقاد البرلمان فى المساء مناقشة حادة وإن كانت قصيرة . وقد تلقى المجلس خطاب التهدئة الذى ألقاه رئيس الوزراء إلقاء سيئاً فلما قام المستر جرينود ليتكلم باسم المعارضة صاح المستر أيمرى من مقاعد المحافظين قائلا « دافع عن انكلترا » . وقد استقبلت صرخته بهتاف مدو ولاشك أن المجلس كان ميالا إلى الحرب ، ولعله كان أكثر عزماً وتآلفاً فى ذلك اليوم مما كان فى الظرف المماثل فى الثالث من أغسطس سنة ١٩١٤ وكنت مشاركا فيه وعلمت أن بريطانيا أرسلت إنذاراً إلى ألمانيا فى الساعة التاسعة والنصف من مساء اليوم الأول من شهر سبتمبر وأن هذا الإنذار سيعقبه إنذار آخر نهائى فى الساعة التاسعة من صباح اليوم الثالث من سبتمبر وأعلنت الإذاعة البريطانية فى الساعات الأولى من صباح اليوم الثالث من سبتمبر أن رئيس الوزراء سيوجه رسالة إلى الشعب فى الحادية عشرة والربع من صباح ذلك اليوم .

وأعلننا رئيس الوزراء فى إذاعته بأننا قد أصبحنا فى حالة حرب مع ألمانيا .

وما كاد ينتهي من كلامه حتى قرع آذاننا صوت غريب طويل صارخ يكاد يخترق الآذان وقد ألفنا هذا الصوت فيما بعد وجاءت زوجتي إلى الحجرة وقد قوت الأزمة من عزيمتها وعلقت تعليقاً في صالح الألمان . ووصفتهم بالدقة والتصميم ثم صعدنا إلى الدور العلوي من المنزل لنرى ما يحدث وكنا نرى حولنا في ذلك الصباح الصافي من أيام سبتمبر أبراج لندن وأسطحة منازلها وقد خيم على ذراها نحو ثلاثين أو أربعين منطاداً اسطوانيا . ولم يسعنا إلا الثناء على هذه الإشارة التي تدل على حسن استعداد الحكومة فلما مرت ربع الساعة من الإنذار التي قيل لنا أن ننتظرها . أسرعنا إلى الملجأ المخصص لنا وقد تسلحنا بزجاجة من « البراندي » وببعض ما يلزم من الوسائل الطبية .

وكان مخبؤنا على بعد مائة ياردة من المنزل . وهو كهف لا تحميه حتى أكياس الرمل ويلجأ إليه سكان ستة منازل . وكانت أمارات المرح بادية على الوجوه وتلك عادة انكلترا عند مواجهة الشدائد . وقد نظرت إلى الشارع المقفر من الناس والتفت إلى المخبأ المزدحم فارتسمت في خاطري صور للخراب والذبح والانفجارات التي تهز الأرض والشوارع والمباني التي تنهار وتتحول إلى أنقاض وسيارات الإسعاف والمطافي تدوي وسط الدخان تحت أزيز الطائرات المعادية . ألم نعرف شيئا عن أهوال الغارات الجوية ؟ وقد بالغت وزارة الطيران لإظهار اهميتها في تصوير هذه الغارات . وكان دعاة الهزيمة يحاولون التأثير على عواطف الشعب عن طريق هذه الصور . وكنا ومن كانوا على شاكلتنا ممن يدعون إلى الاستعداد للتفوق الجوي — على الرغم من رفضهم هذه التكهنات والصور المزعجة — يرون فيها ما يحفز الهمم . وقد عرفت أن الحكومة أعدت في الأيام الأولى من الحرب نحو مليون سرير في المستشفيات لتلقي المصابين من الغارات الجوية . ولم يكن في ذلك الرقم خطأ في التقدير من حيث قلته ولننظر الآن إلى الحقائق .

دوت أصوات صفارات الإنذار من جديد بعد عشر دقائق على التقريب ولم أكن أنا شخصاً أعتقد أن هذا الدوي كان تأكيداً للإنذار الأول ولكن رجلا جاء إلينا مسرعاً من الشارع ليخبرنا بانتهاء الغارة فعدنا متفرقين إلى منازلنا ومضينا إلى أعمالنا

وكان على أن أذهب إلى مجلس العموم الذى اجتمع فى الموعد المعين عند الظهر بصورته المألوفة بعد صلاة قصيرة . وتلقيت فى المجلس رسالة من رئيس الوزراء يطلب فيها أن أوافيه فى حجرته بعد انتهاء المناقشة . فلما جلست على مقعدى أصغى إلى الخطب استولى على إحساس قوى من الهدوء بعد تلك العواطف الثائرة والصخب الذى سيطر علينا فى الأيام القليلة الماضية . وشعرت بصفاء ذهنى . وانفصال عن المشاكل الذاتية فأمجاد بريطانيا العجوز المحبة للسلام . والقليلة العدد والعدد قد تمثلت أمامى فى هذه الشجاعة والجلد عند ما دعا داعى الكرامة والشرف وشعرت بنوع غريب من الحماس استشعرته فى هذا السمو بمصيرنا إلى آفاق بعيدة عن الحقائق الأرضية . وحاولت أن أنقل صورة من هذا الإحساس إلى المجلس فتحدثت إليه وقد شعرت بتقبل الأعضاء لما قلت .

وقال لى المستر تشمبرلن ذلك اليوم إنه يستطيع أن يعرض على وزارة البحرية مع مقعد فى وزارة الحرب . وقد سرنا ذلك العرض سروراً كبيراً . فعلى الرغم من أننى لم آثر الحديث فى هذا فإننى كنت أفضل ولا شك أن يعهد إلى بمهمة معينة بدلا من الجدل فى أعمال وشئون قام بها غيرى من الوزراء وأسهل للانسان أن يصدر التوجيهات من أن يعطى النصائح ويرضى أن يكون له حق العمل وإن كان محدوداً عن أن يكون له حق الحديث حتى ولو فى الموضوعات التى يكون المجال فيها واسعا ولو خيرنى رئيس الوزراء بين عضوية وزارة الحرب ومنصب وزير البحرية لاخترت المنصب . أما الآن فقد عهد إلىّ بالعملين .

ولم يجر الحديث عن الوقت الذى سأتولى فيه وسام منصبى من الملك ولم أباشر عملى بالفعل حتى الخامس من شهر سبتمبر . إلا أن ساعات البادأة فى الحرب قد تكون ذات أثر حيوى بالنسبة للأساطيل . ولهذا بعثت بكلمة إلى الأميرالية أقول فيها إننى سأتولى القيادة عاجلا ، وإننى سأصل فى الساعة السادسة . وأبرق مجلس الاميرالية إلى الأسطول فى سائر وحداته « لقد عاد ونستون » وهكذا عدت إلى الحجرة التى كنت قد فارقتها ونفسى حزينة قبل ربع قرن عندما أدت استقالة اللورد فيشر إلى تنحيتى عن منصب وزارة البحرية وتحطمت فكرة اقتحام الدردنيل فلما اتخذت

مقعدى وجدت على بعد بضعة أقدام منى إلى الخلف مجموعة الخرائط الخشبية التى أعددتها سنة ١٩١١ وفيها خريطة بحر الشمال التى كنت أطلب إلى دائرة المخابرات البحرية لتركيز الاهتمام بالهدف الاسمى أن تسجل لى عليها حركات الأساطيل الألمانية وطرق توزيعها . وقد مر أكثر من ربع قرن ومازال الخطر المميت يهددنا على أيدى نفس الشعب الذى هددنا من قبل . وها نحن نعود مرغمين إلى حمل السلاح دفاعا عن دولة صغيرة انتهكت حرمتها وتعرضت للعدوان لغير ما سبب يدعو إلى ذلك وهكذا أصبح حتما علينا أن نحارب دفاعا عن كياننا وشرفنا ضد غضبة الشعب الألمانى وقواته العنيفة البعيدة عن الشفقة . وقد أصبحنا من جديد نخوض غمار الحرب .

وأسرع لورد الأميرالية إلى لقائى وكنت أعرف « دادلى باوند » بعض المعرفة منذ كنت فى الوزارة ، وكان أحد أركان حرب اللورد فيشر الذى يثق بهم كل الثقة . وكنت قد حملت حملة عنيفة فى البرلمان على طريقة توزيع أسطولنا فى البحر الأبيض المتوسط حيث كان قائداً له فى اللحظة التى غزا فيها الإيطاليون ألبانيا . وقد اجتمعنا الآن كزميلين يعتمد عمل الأميرالية الضخم على علاقة كل منا بالآخر ويسير سيرته فى هدوء ويسر وإن كان كل منا ينظر إلى الآخر فى شىء من الود يمازجه بعض الشك . ولكن صداقتنا والثقة المتبادلة بيننا ظلتا فى ازدياد منذ اليوم الأول . وقد قدرت واحترمت الكفايات الشخصية التى يتمتع بها الأميرال باوند وأصبحنا رفيقين وصديقين على مدى الحرب فى شدتها ورخائها وسعودها ونحوسها . فلما فارق الحياة بعد أربع سنوات فى الوقت الذى حققنا فيه النصر ضد إيطاليا رثيته فى كلمة وجهتها إلى الأسطول والأمة جمعاء معلنا عن الخسارة التى أحسستها بموته .

* * *

ولعل القارىء يعرف . أنه كان لى إلمام ملحوظ بشئون الأميرالية والأسطول الملكى . وربما كانت أهم أيام حياتى تلك السنوات الأربع التى قضيتها بين سنة ١٩١١ ، ١٩١٥ فى وزارة البحرية وأنا أؤدى واجبى فى تهيئة الأسطول للحرب وتوجيهه فى الأشهر العشرة الدقيقة فى الحرب الماضية . وكنت قد كونت لنفسى

معلومات واسعة عن الأسطول وحرب البحار متخذاً من دروس الماضى شتى الصور وفى تلك الفترة المنقضية بين عملى الماضى وعملى اليوم درست كثيراً من الشئون وكتبت كذلك الكثير عن المشاكل الحربية . وكنت أتحدث كثيرا فى مجلس العموم عن الشئون البحرية . وما زلت طوال السنوات الماضية على اتصال وثيق بالأميرالية . وإذا كنت فى تلك السنوات من نقادها الشديدين فقد كنت أطلع على كثير من أسرارها وقد أدى عملى أربع سنوات فى لجنة البحوث المتعلقة بالدفاع الجوى إلى معرفتى الوثيقة بآخر التطورات العصرية فى شئون الرادار تلك التطورات التى أصبح لها أبلغ الأثر فى الأعمال البحرية وكان اللورد شنفيلد لورد الأميرالية الأول السابق قد مضى معى بنفسه فى يونية سنة ١٩٣٨ فى جولة بمدرسة مكافحة الغواصات ببورتلاند ومضيت معه إلى البحر فى مدمرة تقوم بالتدريب على كشف الغواصات باستخدام جهاز « أسديك » وكانت علاقاتى الوثيقة بالأميرالاى هندسون الذى كان قبل موته مرافقا للاسطول حتى سنة ١٩٣٨ . والمحادثات التى شجعنى وزير البحرية فى ذلك الوقت على إجرائها مع اللورد شانفيلد حول تصميم البوارج الجديدة والطرادات قد أتاحت لى أن أطلع اطلاعا واسعا على مجال المنشآت الجديدة . وكنت أدرك بحكم اطلاعى على الوثائق قوة أسطولنا وطرق تأليفه سواء ما كان منه فى حكم الواقع أو ما كان تحت التصميم وأعرف كيف أقارن بينه وبين أسطول كل من ألمانيا وإيطاليا واليابان .

وما أن تسلمت زمام الاميرالية وأصبحت عضواً فى وزارة الحربية حتى قمت بتأليف دائرة خاصة لى للأرقام واعتمدت فى ذلك على الأستاذ ليندمان صديقى الامين منذ عدة سنوات . وقد استطعنا معا أن نكون آراءنا وتقديراتنا واستبقيته فى الأميرالية مع بضعة من الاخصائيين والاقتصاديين الذين نثق باهتمامهم بالحقائق الواقعة دون غيرها وقد استطاعت هذه المجموعة بإرشاد ليندمان من الاطلاع على سائر المعلومات الرسمية أن تمدنى على الدوام ببيانات ورسوم عن سير الحرب . وكانوا ينظرون نظرات دقيقة فى سائر الوثائق الوزارية التى تنشر على وزارة الحرب ويتفحصونها بدقة ويتابعون البحث عن الأسئلة والاستعلامات التى أطلبها منهم .

ولم تكن هناك آنذاك دائرة حكومية للاحصاء . وكان لكل وزارة إحصاءاتها وحساباتها فكانت وزارة الطيران مثلا تتبع نظاما فى الإحصاء غير الذى تتبعه وزارة الحربية . وكانت وزارتا التموين والتجارة تتفاهمان بطرق مختلفة وإن اتفقتا فى المغزى وكثيراً ما أدى هذا إلى الكثير من الاختلاف وإضاعة الوقت عند مناقشة أى موضوع فى وزارة الحرب . أما أنا فقد كانت لى من البداية مصادرى الوثيقة فى معلوماتى التى تتصل كل منها بالأخرى اتصالا وثيقا . وعلى الرغم من أن هذه الأرقام كانت تشمل جزءا خاصا من الميدان أول الأمر ولكنها كانت ذات نفع كبير فى استحضار صورة شاملة صحيحة عن سائر الحقائق والأرقام التى تتتابع علينا .

ولم يكن الوضع البحرى المزعج الذى واجهناه سنة ١٩١٤ قد تكرر ففى تلك الأيام كانت بوارجنا الكبيرة تعادل ست عشرة إلى عشر بالنسبة إلى بوارج العدو . وكانت طراداتنا ضعف قوته : أما الأسطول الألمانى فانه مازال فى مرحلته الأولى ولم يكن فى مقدوره أن يخوض معركة بحرية .

فالبارجتان الكبيرتان بسمارك وتبريتز . اللتان زادت حمولتهما عن الحد المتفق عليه كانتا مازالتا فى دور الإنشاء وبمضى عام كامل على اكمالها أما البارجتان — الطرادان شارنهورست وجينزناد اللتان زاد الألمان حمولتهما من عشرة آلاف طن إلى ستة وعشرين ألفا فقد تم تشييدهما سنة ١٩٣٨ بالإضافة إلى هذه الوحدات كان لدى الألمان ثلاث بوارج جيب حمولة الواحدة منها عشرة آلاف طن وهى جراف شبى والأميرال شيرودويتشلاند مع طرادين سريعين يحملان مدافع عيار ثمانى بوصات وحمولة كل منهما عشرة آلاف طن وستة طرادات خفيفة وستين مدمرة وقطعة صغيرة . وهكذا لم يكن ثمة من خطر يتهدد أسطولنا من القطع الألمانية البحرية العائمة ويلحق الخطر بسيطرتنا على البحار . ولم يكن هناك أدنى شك فى تفوق الأسطول البريطانى على الأسطول الألمانى فى عدده وعدده وقوته . ولم يكن ثمة ما يحملنا نفترض احتياج أسطولنا إلى شىء من الناحية العلمية أو التدريبية . وإذا استثنينا حاجتنا إلى بعض المدمرات والطرادات فقد كان الأسطول فى مستواه الرفيع الذى نعرفه وكان عليه أن يقوم بواجبات عظيمة

ولم تكن إيطاليا قد دخلت الحرب بعد . وكان موسوليني كما هو ظاهر يترقب الأحداث وقد رأينا على سبيل الاحتياط أن نحول سائر ملاحاتنا إلى طريق رأس الرجاء الصالح . وكان معنا فوق تفوقنا البحرى العظيم على اسطول ألمانيا وإيطاليا معا أسطول فرنسا القوى الذى وصل بإدارة الأميرال دارلان إلى حد كبير من القوة لم تتوفر له فى يوم من الأيام منذ أيام الملكية وإذا اشتركت إيطاليا فى الحرب فإن ميداننا الأول سيكون فى البحر الأبيض المتوسط . وكنت أعارض معارضة كلية . إلا أن يكون إجراء مؤقتا · كل خطة ترمى إلى التخلى عن المراكز وإغلاق مداخل ذلك البحر وكانت قواتنا البحرية دون مساعدة الأسطول الفرنسى وموانئه الحصينة ، تستطيع أن تطرد السفن الإيطالية من البحار وتسيطر سيطرة تامة على البحر الأبيض المتوسط فى خلال شهرين على أكبر تقدير .

وكان من رأى الصحافة بزعامة صحيفة التيمس أن تقوم وزارة حرب محدودة تضم خمسة وزراء أو ستة على أكثر تقدير يخلون من المسئوليات الوزارية فى وزارات أخرى وقد أشارت تلك الصحف إلى أن هذه هى الطريقة المثلى التى بها يتيسر وضع سياسة حربية قوية على أسس واسعة . ولاسيما فى النواحى الخطيرة الكبيرة المدى وكان القصد كما ذكرت تلك الصحف أن يوضع « خمسة رجال لاعمل لهم إلا إدارة دفة الحرب » إلا أن هذا الإجراء كانت تقف دونه إجراءات عملية فوجود فئة من الساسة بمنأى عن العمل — مهما تكن كفاياتهم — يجعلهم غير قادرين على التعامل مع وزراء يتولون مسئوليات الوزارات الكبيرة التى تهتم بشئون الحرب . وهذا العزل ينطبق بصفة خاصة على وزارات القوات المسلحة · وليس وزراء الحرب بمسئولين عما يقع كل يوم من الأحداث . وإذا كانوا يستطيعون أن يقدموا نصائحهم فى كلمات عامة فى بادىء الأمر أو ينتقدوا فيما بعد ، فإنهم لايستطيعون أن يقفوا أمام وزراء البحرية أو الحربية والطيران وجها لوجه ليتعرفوا كل صغيرة وكبيرة ويؤيدهم زملاؤهم من المحترفين فى تلك الوزارات ويتحملون المسئوليات العملية . وقد يستطيعون إذا أجمعوا أمرهم أن يقرروا مايشاءون وإن كانوا كثيراً مايختلفون . ولاتنتهى فيما بينهم الحجج والأقوال . والحرب تدور رحاها وتسير فى تيارها وسيكون

أعضاء وزارة الحرب عاجزين عن التصدى للوزراء المختصين المزودين بكل الحقائق والأرقام . وقد يؤنبهم الضمير إذا وجدوا أنهم سيضيفون متاعب جديدة لأولئك الذين يديرون الادارة التنفيذية . ومن ثم يتحولون إلى مراقبين نظريين يقرأون ركاما هائلا من المواد كل يوم ولا يستطيعون أن يستخدموا معارفهم دون أن يلحقوا ضرراً بالمجهودات العامة . وقد لايستطيعون فى غالب الأحيان إلا أن يقدموا بدور الحكم وتسوية ما يقع من خلاف بين الوزارات . ولهذا كان مما لابد منه أن يكون وزراء الخارجية والدوائر الحربية أعضاء دائمين فى وزارة الحرب . وأن يكون من المحتمل أن يختار منهم عدد من الخمسة الكبار لأهميتهم السياسية لا لمعرفتهم بشئون الحرب وهكذا أخذ العدد يتزايد عن الحد الذى كان مقرراً . فلما توليت رآسة الوزارة لم أشأ أن أرى حولى وزراء غير مثقلين بالأعباء والأعمال وفضلت التعاون مع رؤساء دوائر ومنظمات على أن أعمل مع مستشارين . فمن الواجب أن يكون لكل منا عمله اليومى ومهامه المحددة . حتى لايستطيع هؤلاء الذين لاعمل لهم أن يعقدوا المسائل ويخلقوا المشا كل رغبة فى خلقها أو رغبة فى محو رقم أو إنقاصه .

وقد أدت الأحوال القاهرة إلى التوسع فى وزارة الحرب التى وضعها المستر تشمبران فأصبحت تضم اللورد هاليفاكس وزير الخارجية والسير صمويل هور حامل أختام الملك والسير جون سيمون وزير المالية واللورد شاتفيلد وزير تنظيم شئون الدفاع واللورد هانكى الوزير بلا وزارة وأضيف إلى هؤلاء وزراء القوات المسلحة وهم أنا والمستر هور بليشيا وزير الحربية والسير كنجزلى وزير الطيران فضلا عن ذلك فقد تقرر أن يحضر اجتماعات وزارة الحرب دون شرط العضوية المستر إيدن بوصفه وزيراً للممتلكات المستقلة والسير جون اندرسون وزير الداخلية والأمن الداخلى ومن ثم أصبح عدد الوزراء أحد عشر وزيراً .

وكان سائر الوزراء قد ساهموا فى شئون الدولة عدة سنوات فى الفترة الأخيرة أو ارتبطوا بما نواجهه من الارتباطات فى ميدانى السياسة والحرب . ولم أشترك فى الحكم منذ أحد عشر عاما على وجه التقريب ولهذا لم أكن مسئولا عما مضى ولم أكن فى غفلة عن الأعداء بل على العكس كنت طوال السنوات الست أو السبع الأخيرة

أنكهن دائما بالشرور التى أخذت أراها تنزل بنا . وإذ رأيتنى اليوم اتسلح بقوة الأسطول المتيدة التى تكفلت بحمل أعباء القتال فانى لا أجدنى أشعر بنقص أو حاجة وإذا أحسست شيئا من ذلك فان هذا الاحساس يتبدد سريعا بما أزاه من إخلاص رئيس الوزراء وزملائه وولائهم ودعتهم وكنت أعرف بعضهم معرفة تامة . فقد عمل أكثرنا معا فى وزارة المستر بلدوين خمس سنوات وكنا متصلين على الدوام اتصالا وديا أو معارضا على سنين المناظر المتغيرة للحياة البرلمانية وكنت أنا والمستر جون سيمون نمثل جيلا سياسيا أقدم من الجيل الذى يشمل الوزراء الحاليين وكنت أنا وهو قد قطعنا قرابة الخمسة عشر عاما فى مناصب الوزارات قبل أن يصل إليه أحد من الآخرين . وقد قمت بالعمل فى وزارتى التموين والبحرية إبان الحرب العالمية الأولى ورغم أن رئيس الوزراء كان متقدما عنى فى السن بضع سنوات فقد كنت الوحيد الذى بقى بعد الطوفان . وإذا كانت الضرورة والطبيعة تحتمان على اللجوء إلى قوة الشباب وإلى الأفكار الحديثة فقد شعرت أن من واجبى أن أبذل جهدى لكى أكون ندا للجيل الحاكم . وأقف على قدم المساواة مع الجبابرة من الشباب الذين يحتمل ظهورهم على المسرح فى أية لحظة .

وقد عولت على معرفتى وما لدىّ من حماس وعقلية متيقظة حية ومن ثم عدت إلى طريقة التزمتها مرغما أيام اشتغالى بالأميرالية عامى ١٩١٤ — ١٩١٥ وقد وجدت أنها تزيد من نشاطى ومقدرتى على العمل . فقد كنت أنام ساعة فى الساعة الأولى من وقت الظهيرة وأستغل إلى ابعد الحدود بهذه مقدرتى عاجلا على النوم العميق وبهذه الوسيلة كنت أستطيع أن أؤدى عمل يوم ونصف فى يوم واحد . ولم تكن الطبيعة لتسمح للإنسان أن يعمل من الثامنة صباحا حتى منتصف الليل دون هذه الراحة . وقد أسفت لأنى وجدت نفسى مجبرا على النوم كالطفل ظهر كل يوم . ولكن كان يخفف عنى هذا الأسف أنى كنت أستطيع المضى فى العمل حتى الساعة الثانية أو الثالثة أو ما بعدها من الصباح وأعود فأبدأ يومى فى الساعة الثامنة أو التاسعة وقد سرت على هذا النظام طوال سنى الحرب وإنى لأنصح كل من يجد نفسه مضطرا إلى بذل كل ما يمكن من جهد الإنسان وبنيانه أن يسير على هذا المنوال . ولما رأى لورد البحر

للأول الأميرال باوند الطريقة التي أنبعها لجأ إليها لكنه كان يختلف عني في أنه لا يذهب إلى فراشه بل يسترخي على مقعده وقد سار على هذه الطريقة إلى حد المغالاة فيها فكنا كثيرا ما نراه نائما في جلسات مجلس الوزراء . إلا أن كلمة ، واحدة عن الأسطول كانت كافية لأيقاظه واستعادة حيويته إلى الحد الأقصى ولم يكن يفوت عقله المتيقظ أي شيء .

وكنا في خلال ذلك نرقب حول مائدة مجلس الوزراء التدمير الآلي الخاطف لدولة ضعيفة . حسب الخطة التي ابتكرها هتلر فقد بعث أكثر من ألف وخمسمائة طائرة إلى أجواء بولندا وأرسل ستا وخمسين فرقة بينها فرقة التسع المدرعة ليتألف منها جيش الغزو . ولم يكن البولانديون في مقدرة مهاجميهم لا من حيث العدد ولا من حيث العتاد الحربي . ولم تكن خطتهم في توزيع قوتهم قائمة على أسس قوية فقد وزعوا قواتهم على سائر حدود بلادهم ولم يتركوا داخلها قوة احتياطية مركزية . وإذا كانوا يقفون من أعدائهم هذا الموقف فقد كانوا يخافون أن يتهموا بالاستفزاز إذا عبأوا قوتهم في وقت مبكر أمام القوات الهائلة المحتشدة أمامهم ، وعندما وقع الهجوم الخاطف الذي وجه ضدهم لم يكن يواجه هذا الهجوم أكثر من اثنتين وثلاثين فرقة تمثل ثلثي قوتهم الفعلية . وقد أدت الأحداث السريعة وتدخل القوات الألمانية الجوية إلى حجز القوات الباقية لديهم ومنعها من الوصول إلى المواقع الأمامية حتى انهارت الجبهة . ولم تستطع الاشتراك إلا في الأحداث الأخيرة . وهكذا واجه البولنديون الغزو على ضعف قواتهم في جبهة طويلة دون أن يجدوا وراءهم سندا . ولم يكن ضعفهم من خصومهم راجعا إلى الناحية العددية فحسب بل كانوا ضعفاء في قوة الدفعية . ولم تكن لديهم إلا كتيبة واحدة مدرعة أمام تسع فرق ألمانية مدرعة . وكانت فرقة الفرسان الإثنتي عشرة تهاجم الدبابات والسيارات المدرعة بسيوفها ورماحها ولكنها لم تستطع أن تلحق بها أي أذى . وقد فوجئت قوتهم الجوية — وتبلغ تسعمائة طائرة للخط الأمامي منها نحو نصفها من النوع الحديث — في مطاراتها ودمر عدد كثير منها قبل أن تطير في الهواء . ولم يمض على الحرب يومان حتى كانت القوة البولندية قد دمرت كل التدمير . وبعد أسبوع واحد كانت الجيوش الألمانية قد توغلت بعيدا داخل بولندا ولقد كانت المقاومة شديدة قوية باسلة ولكنها لم تجد نفعا وانهار الجيش البولندي ويبلغ عدده مليونين اسما في مدى أسبوعين .

وجاء دور السوفيات . فقد أخذوا يطبقون ما يسمونه الديمقراطية وفى السابع عشر من شهر سبتمبر تدفقت الجيوش الروسية على حدود بولندا الشرقية المجردة من الدفاع واتجهت غربا فى جبهة واسعة وفى الثامن عشر من سبتمبر التقوا بالألمان الذين يتعاونون معهم فى بريست ليتوفسك . وكان البلاشفة قد نقضوا اتفاقاتهم الرسمية مع حلفائهم الغربيين وعقدوا صلحا مع جيوش القيصر الألمانى خاضعين لشروط الألمان القاسية . أما اليوم فقد وقفوا مع جيش هتلر فى بريست ليتوفسك يصافحونها . واستمر تدمير بولندا واستعبادها على حده الأكمل . وكانت مقاومة وارسو بفضل العزيمة الجبارة التى أبداها أبناؤها عظيمة . ولم تمض أيام طويلة من قصف المدافع من الجو والمدفعية الثقيلة التى نقل أكثرها بصفة سريعة من الطرق الألمانية الرئيسية من الجبهة الغربية وتوقفت إذاعة وارسو عن إذاعة النشيد الوطنى البولندى ودخل هتلر إلى أطلال المدينة وهكذا قضى الأمر كله فى شهر واحد . ووقع شعب عدده خمسة وثلاثون مليونا فى قبضة لا ترحم لقوم لا يبحثون عن الاحتلال فحسب بل يريدون استعباد السكان واهلاكهم .

وقد شاهدنا صورا صحيحة للغارات الجوية الساحقة والتعاون بين قوات الجو والقوات البرية فى ميادين القتال وسحق طرق المواصلات وتسليح الطابور الخامس والاندفاع الذى لا يقاوم لقوات هائلة من الميكانيكيات والمدرعات . وليس البولنديون بآخر من قدر لهم هذا البلاء .

عمل الأميرالية

ذهل العالم حين رأى فترة طويلة تعم ساحات القتال بعد هجوم هتلر المدمر على بولندا . وبعد إعلان بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا . وقد وصف المستر تشمبرلن هذه المرحلة فى خطاب له إلى صديق نشره مؤرخ حياته بأنها فترة « طلائع الحرب » وقد رأيت صدق هذا التعبير حتى أننى جعلته عنوانا لهذه الفترة . فالجيوش الفرنسية لا تقوم بأى هجوم على ألمانيا . وعلى الرغم من استكمال التعبئة فقد ظلت هذه الجيوش واقفة فى أماكنها بلا حراك . ولم يقم الألمان بنشاط جوى على بريطانيا عدا أعمال الاستطلاع . ولم يقوموا بغارات جوية على فرنسا وقد طلبت إلينا الحكومة الفرنسية أن لا نقوم بغارات جوية على ألمانيا حتى لا تكون هذه الغارات سبباً فى استفزاز الألمان للقيام بغارات للثأر على مصانعهم الحربية التى كانت فى حاجة ماسة إلى الحماية واكتفينا بإلقاء المنشورات على ألمانيا لنرفع الألمان إلى المستوى الأخلاقى الرفيع . وقد دهش الجميع لهذه المرحلة الغريبة من الحرب فى البر والجو فقد وقفت فرنسا وبريطانيا موقف الجمود وقد تم تدمير بولندا وإخضاعها خلال أسابيع عن طريق القوة الهائلة التى استخدمتها ألمانيا . ولم يكن هتلر ليتحرج من ذلك .

إلا أن الحرب البحرية بدأت على العكس من الساعة الأولى إلى حد كبير من الشدة ومن ثم أصبحت الأميرالية المحور الأساسى للأحداث . وكانت بواخرنا فى الثالث من سبتمبر . تبحر فى سائر أنحاء العالم فى أعمالها المعتادة . وسرعان ما فاجأتها الغواصات التى كانت قد وزعت من قبل بعناية فى المداخل الغربية . ففى الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم قذفت بالطوربيد باخرة الركاب أثينا وحمولتها ١٣٫٥٠٠ طن وغرقت مع ١١٢ شخصاً ممن كانوا على سطحها منهم ثمانية وعشرون من الرعايا الأمريكيين . وانتشر النبأ سريعاً فى سائر أنحاء العالم . ونشرت الحكومة الألمانية تجنباً لسوء التفاهم مع الولايات المتحدة بيانا زعمت فيه بأننى الذى أمرت بنسف هذه الباخرة — لأوقع بين الحكومة الألمانية والولايات المتحدة . وقد لقى

هذا الادعاء من يصدقه فى بعض الدوائر المادية . وأغرقت فى اليومين الخامس والسادس من شهر سبتمبر بواخر « البوسنة والصولجان الملكى وريوكلارو » قرب ساحل أسبانيا وكانت هذه البواخر كلها من السفن ذات الأهمية .

وكانت الأميرالية قد أعدت برامج شاملة لمضاعفة عدد وحدات مكافحة الغواصات . وقد اتخذت الإجراءات السريعة بعد إعلان الحرب مباشرة لتنفيذ البرامج المعدة لبناء المدمرات الصغيرة والكبيرة والطرادات والسفن الاضافية الأخرى مع كل ما يتعلق بها . وكانت الحرب الماضية قد أثبتت نجاح نظام القوافل الحربية فعجلنا بتطبيقه فى شمال الأطلنطى . ولم ينته شهر سبتمبر حتى كانت القوافل البحرية المنظمة تسير رائحة من مصب التيمس وليفربول . وآيبة من هاليفاكس وجبل طارق وفريتاون .

وقد شعرنا فى هذه اللحظة . التى ألقت علينا عبء إطعام الجزر البريطانية وتنمية قوتنا لخوض غمار الحرب بالخسارة التى منينا بها كضياع الموانى الايرلاندية . فعدم حيازتنا لها قد حد من نشاط مدمراتنا القليلة العدد .

* * *

وقد أصبح حتما علينا بعد أن أدخلنا نظام القوافل أن نبحث عن قاعدة سليمة للأسطول . وكانت قاعدة سكابافلو فى أى حرب مع ألمانيا القاعدة السليمة التى يستطيع الأسطول البريطانى منها أن يشرف على مداخل بحر الشمال ويفرض الحصار وقد رأيت من واجبى أن أقوم بزيارة هذه القاعدة فى أقرب فرصة . وأخذت إجازة من جلسات مجلس الوزراء وسافرت مع فئة من موظفىّ ليلة الرابع عشر من سبتمبر وقضيت معظم اليومين التاليين فى التفتيش على الميناء ومداخله بما عليه من شبكات وحواجز . وقد ارتاحت نفسى حيث كانت ما زالت كما كانت فى الحرب الماضية من المناعة والقوة . وقد أدخل عليها كثير من الاصلاح والتعمير . ونزلت ضيفا على السير تشارلز فوربس القائد العام فى سفينة قيادته . وبحثت معه ومع كبار المسئولين من ضباطه الحالة العامة للأسطول . وكانت بقية تختبىء فى « لوك يو » وفى السابع عشر من سبتمبر ذهبت مع الأميرلاى إلى هنالك على ظهر نلسون . وكان المدخل

الضيق إليها مقفلا بسدود ممتدة من الشباك وسفن الدورية وألغام الأعماق والأوتاد البحرية . وكل مشغول بأداء واجبه وعلى طرف المضيق ترتفع جبال أسكوتلندا بكل مافيها من جمال ورجعت بى الذاكرة إلى ربع قرن مضى فى مثل هذا الشهر حيث تمت زيارتى الأخيرة للسيرجون جيليكو وربابنته فى نفس هذا الميناء . وقد وجدتهم مع الصف الطويل من بوارجهم وطراداتهم كما هم الآن رهن المخاوف والريب .

وكان ربابنة تلك الأيام وأميرالاتها قد نزحوا عن هذه الدنيا أو أحيلوا إلى التقاعد أما اليوم فقد كانت الغالبية من الضباط الذين وفدوا إلى فى زيارتى للقطاعات المختلفة إما من صغار اللازمين أو البحارة . وقد مررت قبل الحرب الماضية بثلاث سنوات للتعرف على كبار الضباط والموافقة على تعيينهم أما اليوم فإنى أراهم جميعاً حديثين على . وإن كان النظام والدقة وسائر المظاهر الأخرى قد ظلت كما كانت دون تغيير . وغاية الأمر أن جيلا جديداً أصبح يملأ هذه المراكز ويرتدى تلك الملابس البحرية . أما البواخر فأكثرها خرج إلى البحر أثناء عملى بالأميرالية ولم يكن بينها أى قطعة جديدة . وقد شعرت بأنى أرتد إلى حياة قديمة فى حياتى الجديدة . وقد رأيت أننى الرجل الوحيد الذى يشغل مركزاً كان يشغله من قبل . ولكن الأخطار ما زالت تحفنا كسالف حالها . بالخطر الدائم من تحت الأمواج تهدد به غواصات أقوى وأشد ، والخطر من الجو فى غارات قوية شديدة الدمار .

ولا أظن إنساناً مر بتجربة كهذه مرتين مع ما بينهما من طول الزمن . ولا أحسب إنساناً أحس بالمخاطر والمسئوليات من الذروة التى هو فيها كما أحسست بها . وقد نزلت من الذورة لكى أدرك كيف يحس وزراء البحرية وكيف يعاملون عند ما تغرق بواخر كبيرة أو عند ما تسوء الأحوال . وإذا كنا نمر بنفس التجربة مرة ثانية . وهل أستطيع أن أتحمل ألم الطرد من وزارة البحرية مرة ثانية ؟ لقد مضى ويلسون وفيشر وباتنبرج وجيليكو وبيتى وكنهام وسترووى .

« وأصبحت أشعر كما يشعر إنسان وحيد

تطأ أقدامه قاعة حفل بهيج

أطفئت أضواؤه ، وذبلت أزهاره

وانصرف الكل ما عدا »[1]

ولننظر إلى المحنة التي لاحد لها التي نرى أننا غرقنا فيها من جديد ؟ فبولندا تعيش فى آلامها . وفرنسا تعيش فى انعكاس حماسها فى الحرب السابقة والمارد الروسى لم يعد حليفا لنا ، ولا على الحياد . يحتمل أن يكون عدوا لنا وإيطاليا ليست بالصديقة واليابان ليست حليفة لنا . فهل لأمريكا أن تعجل إلى معونتنا وتنضم إلى حلفنا مرة ثانية ؟ وقد ظلت الأمبراطورية البريطانية متماسكة متحدة ولكنها ليست على استعداد نحن مازلنا نسيطر على البحار ولكننا نقف متأخرين بدرجة مخيفة . فى ذلك السلاح الرهيب سلاح الجو وقد احتجب عنى بصيص النور الذى كان أمامى .

وأخذنا القطار فى اينفرنيس وسافرنا طوال ساعات الظهر والمساء إلى أن وصلنا إلى لندن . ودهشت حين رأيت أمير البحر الأول فى انتظارى ، استقبلنى عابس الوجه ثم قال « عندى أخبار سيئة لقد غرقت الكوريجيوس مساء أمس فى قناة بريستول » وكانت الكوريجيوس من أقدم حاملات الطائرات فى أسطولنا . ولكنها لاغنى عنها فى هذا الوقت . فشكرته لتحمله مشقة الحضور ليبلغنى هذا النبأ . وقلت « ليس فى استطاعتنا أن نتحمل حربا تسير هكذا وإذا سرنا على هذا المنوال فسوف يحدث لنا مثل هذا من وقت لآخر . وإن كنت قد رأيت الكثير منه فيما مضى . ومضيت إلى الحمام لأبدأ عمل يوم آخر .

فلما انقضى شهر سبتمبر لم يكن ثمة كثير مما نشكوه من نتائج المرحلة الأولى من الحرب البحرية . وقد أحسست أننى أؤدى عملى بقوة ونجاح وقد تحملت مسؤلية تلك الوزارة التى أحبها وأعرفها كل المعرفة . وقد ألممت بكل مايحدث وما ينتظر حدوثه . وعرفت أين تقف الأمور . وكنت قد قمت بزيارة القواعد البحرية الرئيسية على اختلافها واجتمعت بمختلف القادة البحريين وأنى وزير البحرية المسئول أمام التاج والبرلمان عن كافة أعمال البحرية . وقد كنت ولاشك على استعداد تام للقيام بواجبى .

---

(١) من أبيات للشاعر توماس مور

وانقضت فترة الانتقال الرهيبة الخطر من السلام إلى الحرب وكان على التجارة العالمية أن تتحمل غرما كبيرا . فالغواصات تهاجمها بغير تمييز منتهكة حرمة القوانين الحربية البحرية والاتفاقات الدولية لكن سير القوافل أخذ يتمشى فى طريقه الطبيعى وقد أخذت السفن التجارية ترحل من موانئنا كل يوم فى مجموعات وقد زودت كل منها بمدفع وفريق من المدفعية المدربين وأخذت كاسحات الألغام المجهزة بمعدات كشف الغواصات والقطع البحرية الصغيرة المسلحة بقنابل الاغوار مما أعدته الأميرالية قبل أن تؤدى جميعها واجبها فى عدد كبير وزيادة دائمة . وأحسسنا أن هجوم الغواصات السابق على التجارة البريطانية قد انهار وأننا قد سيطرنا على الخطر . وكان من المعلوم لنا أن الالمان سيشيدون مئات من الغواصات . وأن عددا كبيرا منها بوشك على الانتهاء وعلينا أن نتوقع أن تبدأ الحرب الرئيسية للغواصات فى مدى اثنى عشر شهرا أو ثمانية عشر شهرا على الأكثر . ولكننا كنا نتوقع فى ذلك الوقت أن نكون قد أتممنا تشييد مدمراتنا والقطع المضادة للغواصات . وقد جعلنا لها الشأن الأول من اهتمامنا حتى تكون على استعداد لمواجهة الخطر بقوة .

ومضت خلال ذلك عملية نقل قوات الحملة البريطانية إلى فرنسا تسير قدما وفى بساطة ويسر . وقد أقمنا على ألمانيا حصارا كالذى أقمناه عليها فى الحرب السابقة وكانت طراداتنا على سطح البحار تطارد البواخر الالمانية . وتحمى بواخرنا من هجوم الوحدات الألمانية وقد توقفت الملاحة الالمانية . وأجبرت ، ٣٢٥ باخرة ألمانية تبلغ حمولتها ثلاثة أرباع مليون طن إلى التوقف فى الموانىء الأجنبية . ولعب حلفاؤنا الفرنسيون كذلك دورهم فى هذه الحرب فتكفلوا بمهمة الإشراف على البحر الابيض المتوسط . وعاونونا فى المعركة ضد الغواصات فى المياه الداخلية وخليج بسكاى . كما قامت قوة كبيرة فى ميناء داكار بدور كبير فى تنفيذ خطط الحلفاء فى أواسط الاطلنطى وأعمال الوقاية من قطع الألمان المهاجمة .

وقد وقع فى نفسى موقع السرور تلقى رسالة شخصية من الرئيس روزفلت وكنت قد قابلته مرة واحدة فى الحرب الماضية فى حفلة عشاء وقد أدهشنى بما يتمتع به من يقظة الذهن ومن شباب وحيوية . ولم يكن بيننا إلا تبادل التحيات . وقد كتب إلى

يقول « لما كان وضعنا فى الحرب العالمية الماضية متشابها . فاننى أود أن أبلغك مقدار سرورى بعودتك إلى الأميرالية وإذا كانت مشا كلـكم قد ألمت بها عوامل جديدة جعلتها معقدة إلى حد ما فاننى أرى الوضع الرئيسى لم يختلف عن سابقه . وكل ما أريد منك ومن رئيس الوزراء أن تعرفا أننى أرحب باتصالـكما الشخصى بى وموافاتى بكل ما تريدان أن تبلغانى من الأخبار . ومن الميسور أن تبعثا إلى برسائل مغلقة ومختومة بحقيبتنا السياسية أو حقيبتكم » .

وقد أسرعت بالرد على هذه الرسالة واستخدمت توقيع « شخص من البحرية » وبهاتين الرسالتين بدأنا مراسلاتنا الطويلة التى تجاوزت الألف رسالة من كل منا وقد تتابعت باستمرار حتى وفاته فى حوالى خمس سنوات .

وفى شهر أكتوبر وقع حادث كان له أسوأ الأثر على الأميرالية ففى الرابع عشر من ذلك الشهر جاء تقرير بأن غواصة دخلت إلى ميناء سكابافلو . واخترقت وسائلنا الدفاعية وأغرقت البارجة « رويال أوك » بمرساها بالميناء . فقد انطلق عدد كبير من الطوربيدات أصاب أحدها قوس البارجة وأحدث فيها انفجاراً مكتوما ولم يستطع الأميرال والربان وهما على ظهر البارجة أن يوقنا بأن طوربيدا أصاب بارجتهما وهى راسية بميناء سكابافلو فى أمان واعتقدا أن الانفجار داخلى ولم تمض عشرون دقيقة حتى انهال على البارجة سيل آخر من الطوربيدات وأصابت ثلاثة طوربيدات أو أربعة البارجة فهوت إلى الأعماق وكانت الغالبية من رجالها يقومون بعملهم ولم يستطع أحد منهم أن ينجو من الغرق للسرعة الفائقة التى أغرقت فيها البارجة .

ولا شك أن هذا الحادث الذى يعد من أعمال الشجاعة والجرأة الخارقة بالنسبة إلى قائد الغواصة الربان برامبين قد اهتز له الرأى العام البريطانى . وكان هذا الحادث كافياً للقضاء قضاء سياسياً على أى وزير من الوزراء إذا كان مسؤلا عن إعداد الإجراءات الوقائية قبل الحرب . وقد أخلانى من اللوم فى هذه الأشهر الأولى أنى كنت حدث عهد بالوزارة ولم تحاول المعارضة استغلال الحادث ضد الحكومة . وقد وعدت بعمل تحقيق شديد وقد تبين من التحقيق ضرورة تأمين وسائل الدفاع

عن الميناء ضد أى هجوم قبل اتخاذه قاعدة للأسطول وقد انسلخت ستة أشهر حتى أمكن الانتفاع بما أقمناه من تحصينات .

وبدا خطر جديد رهيب يهدد كياننا . ذلك أن ما يقرب من اثنتى عشرة باخرة تجارية أغرقت عند مداخل موانئنا فى شهرى سبتمبر وأكتوبر على الرغم من إخلاء هذه الموانىء من الألغام وقد شكت الاميرالية من وجود ألغام ممغنطة يستخدمها العدو . ولم تكن هذه الألغام بالجديدة علينا فقد بدأنا باستخدامها على نطاق ضيق فى آخر الحرب العالمية الأولى . ولكننا لم نكن قد أدركنا مدى الأضرار البالغة التى تحدث من استخدام ألغام أرضية كبيرة تبثها السفن أو الطائرات على أغوار بعيدة . لم يكن من الميسور الوصول إلى علاج لهذه الحال إلا إذا عثرنا على نموذج من هذه الألغام . وقد بلغت الخسائر من بواخر الحلفاء والبواخر المحايدة من جراء الألغام فى شهرى سبتمبر وأكتوبر نحو ستة وخمسين ألف طن مما دعا هتلر فى شهر نوفمبر إلى أن يشير إشارة خافية إلى هذا السلاح السرى الجديد الذى لا يمكن اتقاؤه وقد جاءنى ذات ليلة وأنا فى شارتوبل الاميرال باوند . وقد ظهرت عليه أمارات القلق ليخبرنى بغرق ست بواخر عند مداخل نهر التيمس • إن البواخر التى تدخل الموانىء البريطانية وتخرج منها تعد بالمئات . وإن هذه الحركة تتوقف عليها حياتنا . ولا شك أن خبراء هتلر قد أوعزوا إليه بأن مثل هذا الهجوم سيؤدى إلى هلاكنا ويسرع بنهايتنا . ومن حسن الحظ أن هتلر قد بدأ يستخدم هذا السلاح على نطاق محدود .

وقد أسعدنا الحظ بصورة مباشرة فقد ظهرت طائرة ألمانية بين الساعة التاسعة والعاشرة مساء اليوم الثانى والعشرين من شهر نوفمبر وشوهدت وهى تلقى شيئاً كبيراً بمظلة إلى البحر بالقرب من شوبارنيس . وفى هذه المنطقة تغمر الساحل مساحات شاسعة من الطمى الذى يبدو عند انحسار مياه البحر . ولا شك أن الشىء الذى ألقته الطائرة أياً كان لا بد أن يعثر عليه ويفحص فحصاً جيداً بعد إخراجه من الماء • وكانت هذه فرصة سانحة لنا . وقبيل منتصف تلك الليلة استدعى إلى مقر الأميرالية ضابطان كبيران من الضباط البارزين فى مؤسسة تطوير الاسلحة المائية وهما أوفرى ولويس واجتمعت بهما مع لورد البحر الأول وسمعنا آراءهما . وفى الساعة

الواحدة والنصف صباحاً من الصباح ركبا السيارة إلى ساوثيند للقيام بمهمة الاستخلاص الرهيبة . وقد تمكنا قبل فجر الثالث والعشرين من الشهر فى الظلمة وبالاستعانة بمصباح صغير من العثور على اللغم على بعد خمسمائة ياردة ونظرا لشدة المد فإنهما لم يستطيعا أن يقوما بأى عمل غير فحص اللغم وعمل الترتيبات اللازمة لمعالجته بعد انحسار المد .

وبدأت العملية الدقيقة فى الساعات الأولى من الظهر وقد عثر على لغم آخر بالقرب من الأول . وقام أوفرى بمساعدة ضابط آخر يدعى بلدوين بمعالجة اللغم الاول ووقف زميله لويس ومعه البحار القدير فيرنيكمب فى مكان أمين ينتظران النتيجة متأهبين للطوارىء . وكان أوفرى كلما انتهى من عملية بعث بنتيجتها بالإشارات إلى لويس حتى يمكن الإستفادة منها فى معالجة اللغم الثانى . وهكذا حققت الجهود التى بذلها الرجال الاربعة النجاح المأمول فى اللغم الاول . وعاد بعض الاشخاص تلك الليلة إلى الاميرالية ليبلغونا أن اللغم قداستخلص سليما وأنه فى الطريق إلى بورتسماوث لفحصه فحصاً دقيقاً . وقد تلقيت هذا النبأ بحماس شديد وأسرعت بعقد اجتماع فى صالتنا الكبرى شهده نحو من ثمانين أو مائة ما بين ضابط وموظف وقد أخذوا يصغون إلى الحادث والاخطار التى كانت تهددنا .

وبدأنا نطبق كل ما لدينا من علم وقوة حتى أدت التجارب إلى نتائج عملية . وكنا نقلب الأمور على سائر الوجوه ونبتكر كل الوسائل للقضاء على هذه الألغام بالطرق المستحدثة لكسحها وإعداد وسائل الدفاع السلبية لتسليح سائر البواخر لمواجهة مثل هذه الألغام إذا لم يمكن تفجيرها أو اكتساحها قبل . وقد استطعنا تحقيق هذه الغاية بابتكار نظام فعال لنزع مغناطيسية البواخر بتطويقها بأسلاك كهربائية . وقد وزعت الأجهزة الخاصة بذلك على جميع البواخر من شتى الأحجام . لكن الحوادث الخطيرة ظلت كما كانت . فقد انفجر لغم تحت الطراد الجديد بلفاست فى « فيرث أوف فورث » فى الحادى والعشرين من نوفمبر وأصاب لغم فى الرابع من ديسمبر البارجة نلسون وهى فى طريقها للدخول إلى « لوك يو » . ومع ذلك فقد استطاعت القطعتان من الوصول إلى ميناء أحواض السفن لإصلاحهما . وجدير بالذكر

أن المخابرات الألمانية لم تستطع أن تخترق ستر الكتمان التى أرخيناها على حادث إصابة البارجة نلسون حتى تم إصلاحها وعادت سيرتها إلى البحار على أن الألوف من الانكليز قد ألموا بالحقيقة منذ البداية .

وقد أمكنتنا التجارب عاجلا من الحصول على وسائل أيسر وأحدث لمكافحة الألغام . وكان لذلك النجاح تأثيره المعنوى المظيم لكن اعتمادنا الأساسى فى التغلب على محاولات العدو ظل قائما على عمل كاسحات الألغام البحرى ، إلى جانب الجهود المثارة التى ما زال يبذلها الفنيون الذين اكتشفوا الأجهزة الجديدة التى تستعملها تلك الكاسحات ورجالها .

وقد استطعنا على الرغم مما عانينا من أوقات القلق أن نسيطر على خطر الألغام وتهديدها . ومن ثم أخذ ينقشع خطرها .

وأقف هنا لحظة لأستعرض هذه الناحية من الحرب البحرية فقد كان علينا أن نركز جزءاً كبيراً من جهودنا الحربية فى مكافحة الألغام . وقد نقلنا الكثير من المال والمعدات من الميادين الأخرى إلى هذا الميدان . وقد كان الألوف يجازفون بحياتهم ليل نهار فى كسح الألغام . وقد وصل الرقم إلى أقصاه فى يونية سنة ١٩٤٤ حيث كان نحو ستين ألفا يعملون فى هذا المجال . ولم يكن ليؤثر أى شىء على حماس أسطولنا التجارى وقوته المعنوية التى كانت ترتفع مع الصعوبات التى صاحبت معركة الألغام وما اتخذناه من الإجراءات القوية الفعالة .

ولا شك أن جهود الأسطول وشجاعته وجلده كانت جميعها السبيل الوحيد إلى الخلاص . ولم نكن قد تعرضنا بعد لأى تحد بارز فى الميدان الواسع للعمليات البحرية . ولكن هذا التحدى لم يلبث أن وقع . ولعل الإلمام بوصف عمليتين رئيسيتين مع قطع ألمانية غازية ، يكون خير خاتمة لهذا الفصل من الحرب البحرية سنة ١٩٣٩ .

* * *

لا شك أن خط الحصار الطويل الذى أقمناه إلى الشمال من أوركنى والذى يتألف

غالباً من الطرادات التجارية المسلحة التى تؤيدها بعض السفن الحربية بعض الأحيان كان معرضاً على الدوام لهجوم مباغت من القطع الألمانية الكبيرة وعلى الأخص البارجتان الطرادان السريعان شارنهورست وجنيزناو ولم يكن فى مقدورنا أن نصد هذه الضربات . وكان كل أملنا أن نضطر هذه القطع المهاجمة إلى أن تدخل معنا فى معركة حاسمة .

ورأت الطرادة التجارية المسلحة راولبندى بعد ظهر الثالث والعشرين من شهر نوفمبر بارجة معادية فأخذت تقترب منها بسرعة وظنت أن البارجة العدوة هى بارجة الجيب دوتشلند فأبرقت بذلك فى الحال . ولم يكن قائد راولبندى القبطان كنيدى ، يشك فى نتيجة مثل هذه المعركة . فسفينة باخرة ركاب عادية حولت إلى طراد به أربعة مدافع قديمة عيار ست بوصات . بينما تحمل البارجة ستة مدافع من عيار احدى عشرة بوصة . بالإضافة إلى الأسلحة الثانوية التى تحملها . وعلى الرغم من ذلك فقد جازف قائد السفينة وقرر أن يقاتل إلى النهاية . وبدأت السفينة المعادية باطلاق النار على مسافة عشرة آلاف ياردة فردت عليها السفينة راولبندى . ومازالت المعركة بينهما حتى تعطلت جميع مدافع راولبندى وأصبحت قطعة من النيران وغرقت مع ربانها و ٢٧٠ من رجالها البواسل فى حلكة الظلام .

ولم تكن السفينة الألمانية المعادية التى قامت بهذه المعركة هى دوتشلند ولكنها كانت الطراد شارنهورست ومعها جنيزناو وكانتا قد غادرتا ألمانيا قبل المعركة بيومين لمهاجمة قوافلنا فى الأطلنطى وقد عدلتا عن إتمام مهمتهما بعد أن اصطدمتا براولبندى وأغرقتاها وخشيتا مغبة هذا العمل بعد أن اكتشف أمرهما . وشاهد الطراد نيوكاسل أثناء قيامه بدوريته النيران المندلعة وقد استجاب لرسالة راولبندى الأولى ووصل إلى مكان المعركة مع الطراد دلهى وقد وجدا الباخرة الملتهبة مازالت عائمة . وحاول نيوكاسل مطاردة العدو ولكن القطعتين اختفى أثرهما وتمكن العدو من الفرار .

وامتلأت نفوس الجميع أملا فى إرغام هاتين السفينتين الألمانيتين على خوض المعركة . وخرج القائد العام فى الحال إلى عرض البحر بأسطوله كاملا . وكان أربعة عشر طرادا يكنسان بحر الشمال فى الخامس والعشرين ومعها المدمرات والغواصات

وبارجة القيادة ولـكن لم يكن الحظ مواتيا لنا . فلم يستطع أسطولنا العثور على شيء ولم يبد مايدل على أية حركة معادية نحو الغرب وظلت عملية البحث تسير بنشاط وحماس على الرغم من رداءة الجو سبعة أيام ثم علمنا أن شارنهورست وجينزجاو دخلتا بحر البلطيق سالمتين وقد تبين لنا أنهما مرتا عند خط طرادتنا التى كانت تقوم بأعمال الدورية بالقرب من الساحل النرويجى صباح السادس والعشرين من شهر نوفمبر وقد تعذرت رؤيتهما لـكثرة الضباب .

وكان من الممكن أن يفرض الاتصال بوساطة الرادار المصرى ولـكنه لم يكن موجوداً . وقد كان لهذا الحادث أثر سيء لدى الرأى العام بالنسبة للاميرالية ولم يكن فى وسعنا أن نبين لـكل إنسان اتساع البحار والمجهودات الجبارة التى يقوم بها الأسـطول فى سائر المناطق وقد مضى شهران على نشوب الحرب مع مامنينا به من الخسائر العديدة ولم نـكن نستطيع أن نبدى شيئاً مما ألحقناه بالعدو ولم نجد مجالا للرد على من يسأل « ماذا يعمل الأسطول ؟ »

* * *

وكانت السفن الألمانية المهاجمة تستطيع أن تـكون ذات أثر فى الاغارة على سفننا وإصابة تجارتنا إذا صممت على ذلك فقد شيدت بوارج الجيب الألمانية الثلاث التى سمحت بها معاهدة فرساى على أن تـكون مدمرات تجارية . وقد اشتملت كل منها بطريقة عجيبة على ستة مدافع من عيار إحدى عشرة بوصة مع أسلحة إضافية عديدة ودروع من الفولاذ ، وكانت تسير بسرعة ست وعشرين عقدة فى اليوم ولم يكن فى مقدور أى طراد بريطانى واحد أن يقف وجها لوجه أمام بارجة جيب من هذا الطراز .

وكانت الطرادات الألمانية ذات مدافع من عيار ثمانى بوصات وهى حدث من طراداتنا . وتستطيع أن تـكون سلاحاً رهيباً إذا استخدمت فى الإغارة على السفن التجارية . وكان فى استطاعة العدو أن يستخدم كذلك سفنا تجارية ثقيلة التسلح تحت ستار العمل التجارى البرىء : ولم تبرح الذاكرة أعمال الغزو والسلب التى قامت بهما السفينتان ايمدن وكونجزبرج سنة ١٩١٤ حين اضطررنا إلى الزج بأكثر من ثلاثين بارجة وقطعة بحرية فى معركة تدميرها .

وأشيع قبل نشوب الحرب أن بارجة أو اثنتين من بوارج الجيب أبحرتا من ألمانيا وعبثا حاول أسطولنا أن يعثر عليهما . وقد تبين أن كلا من دوتشلند وجراف شبي قد أبحرتا مابين الحادى والعشرين والرابع والعشرين من شهر أغسطس واخترقتا منطقة الخطر وأصبحتا طليقتين تتحركان كيف شاءتا فى المحيطات وذلك قبل أن نفرض حصارنا وننظم شئون دورياتنا . وكانت الدوتشلاند فى الثالث من سبتمبر قد عبرت مضيق الدانمارك وأخذت تتربص ببواخرنا الدوائر على مقربة من جرينلاند . أما جراف شبي . فقد اجتازت طريق القوافل شمال الأطلنطى ولم يرها أحد وانبرت إلى الجنوب من جزر الآزور وكل منهما تصحبها باخرة لتمونها بالوقود وغيره من المطالب الأخرى . وظلت البارجتان فى البداية متوقفتين عن النشاط وقد احتجبتا فى غيابة المحيطات ولم يكن لهما من أثر مالم توجها ضربات شديدة إلا أنهما كانتا فى مأمن من الخطر .

وفى الثلاثين من سبتمبر غرقت الباخرة البريطانية كليمنت وحمولتها خمسة آلاف طن وهى تبحر منفردة بالقرب من برنامبوكو وقد هاجمتها جراف شبي . وثارت ثائرة أميرالية وكان هذا وقتها المنتظر فتألفت فى الحال وحدات لاصطياد البارجة تشتمل على حاملات الطائرات والبوارج والطرادات وقد زودت كل منها بالقوة اللازمة للقضاء على البارجة الألمانية بمجرد العثور عليها .

وفى الأشهر التالية كانت تسع وحدات مطاردة تضم أكثر من ثلاث وعشرين قطعة من أقوى القطع البحرية تبحث عن البارجتين الألمانيتين . وكان فى استطاعة هذه الوحدات أن تحمى المناطق الرئيسية التى تمر بها سفننا التجارية فى الاطلنطى والمحيط الهندى وإذا أقدم العدوّ على مهاجمة أى طريق من طرقنا التجارية سيكون ولا شك فى متناول مجموعة من هذه الوحدات .

وقد أدركت الدوتشلاند التى كان عليها أن تعطل طرقنا الحيوية شمال غرب الأطلنطى مغزى الأوامر التى صدرت إليها بالحرص البالغ فلم تقصد خلال الشهرين ونصف من ابحارها لقوافلنا التجارية وقد ترتب على ابتعادها عن الاشتباك بالقوات البريطانية إلى عدم قيامها بعملية إغراق رئيسية . ووقفت جهودها عند إغراق

سفينتين صغيرتين إحداها نرويجية . وفى نوفمبر استطاعت أن تعود متسللة إلى ألمانيا عن طريق المحيط المتجمد الشمالى . وقد كان وجود هذه الباخرة الحربية فى طريق مواصلاتنا الرئيسى يفرض عبئاً ثقيلا على وحدات حراستنا والوحدات المكلفة بالبحث عنها فى شمال الأطلنطى . وكنا نفضل لو تصدت لنا البارجة المعادية على أن نبقى معرضين دائماً لخطرها .

وكانت جراف شبى أكثر جرأة وأوسع حيلة . وقد أصبحت موضع الاهتمام فى جنوب الاطلنطى . وكان سبيلها فى العمل أن تظاهر فترة قصيرة تتمكن خلالها من فريسة توقعها ثم تختفى فى مجاهل المحيطات الواسعة وقد ظهرت مرة ثانية إلى الجنوب من مكانها الأول على طريق رأس الرجاء الصالح فأغرقت باخرة ثم اختفت عن الأنظار أكثر من شهر كانت وحداتنا خلاله تبحث عنها فى كل مكان وقد ركزت بحثها فى المحيط الهندى ولم يكن ثمة شك فى أنها تتجه إلى ذلك المحيط ، فقد أغرقت فى الخامس عشر من نوفمبر ناقلة زيت بريطانية صغيرة فى مضيق موزمبيق بين مدغشقر والشاطىء الإفريقى . وقد سجلت مكان ظهورها فى المحيط الهندى لتشغل الأنظار بوجودها فى هذه المنطقة . وأمر ربانها « لانجسدورف » وهو من خيرة ضباط البحرية الاكفاء بعودتها سريعاً إلى المحيط الاطلنطى ماراً على بعد كبير من رأس الرجاء ولم نكن نجهل هذه الحركة • إلا أن خططنا قد فشلت لسرعته فى الانسحاب . ولم تكن الاميرالية على ثقة من عدد السفن الالمانية المغيرة أهى واحدة أو اثنتان . لذلك فقد ظل البحث على أشده فى المحيطات . وقد خيل إلينا أن الاميرال شير ، شبيهة جراف شبى تسير أيضاً فى عرض المحيط . فكان العبء الملقى علينا كبيراً لا يتصوره العقل على الرغم من أن قوة العدو كانت صغيرة . وقد دار بخلدى وأنا أذكر أحداث اليوم ذكر الاسابيع المقلقة التى سبقت معركتى كورونيل وجزر فولكلاند فى ديسمبر سنة ١٩١٤ حيث كنا مستعدين فى سبع جهات أو ثمان فى المحيط الهادى وجنوب الاطلنطى فى انتظار الاميرال شبى بطراديه السابقين شارنهورست وجينزناو . وقد مر نحو ربع قرن .

ولكن اللغز مازال كما كان • وقد شعرنا بارتياح حين علمنا أن جراف شبى

عاد إلى الظهور عن طريق مدينة الرجاء ، فريتاون وأغرقت الباخرة دوريك ستار مع باخرة ثانية فى الثانى من ديسمبر ثم ثالثة فى السابع منه .

* * *

وكانت مهمة الكومودور هاروود منذ بداية الحرب حماية البواخر البريطانية المبحرة من نهر لابلاتا وميناء ريودى جانيرو وكان واثقا من أن جراف شبى ستأتى ولا محالة إلى الأماكن القريبة من مصب نهر لابلاتا وكان قد وضع خطة بعد تفكير طويل لملاقاة البارجة عند وصولها وكان مقدرا أن فى استطاعة طراديه كمبرلاند وايكستر اللذين يحملان مدافع من عيار ثمانى بوصات وطراديه إجاكس وأخيل اللذين يحملان مدافع من عيار ست بوصات أن تتصدى لبارجة العدو وتقضى عليها إذا اجتمعت الأربع معا عند المعركة وان كانت ضرورات الوقود لاتجعل ذلك يسيرا فلما سمع فى الثانى من شهر ديسمبر أن جراف شبى أغرقت الدوريك ستار قدرها روود وكان تقديره صحيحا أن البارجة الألمانية على الرغم من وجودها فى تلك اللحظة — على بعد ثلاثة آلاف ميل ستتجه إلى مصب لابلاتا وقد قدر موعد وصولها تقديرا سديدا صاحبه شيء من حسن الحظ فى الثالث عشر من الشهر فأمر جميع وحداته بأن تحتشد هنالك فى الثانى عشر من شهر ديسمبر وكانت كمبرلاند لسوء الحظ تجرى بعض الاصلاحات فى ذلك الوقت إلا أن الطرادات الثلاثة الأخرى تجمعت على مقربة من مصب النهر صباح الثالث عشر وفى الساعة السادسة والدقيقة الرابعة عشرة شوهد الدخان من بعد وجاء وقت المعركة .

وكان هاروود يقف على سطح طراده اجاكس وقد أمر بتوزيع قواته لمهاجمة بارجة الجيب الألمانية من جهات مختلفة لتفريق قوة نيرانها ثم اقترب مسرعا من البارجة العدوة ، وخيل للربان لانجسدورف بادىء الأمر أنه أمام طراد ضعيف واحد ومدمرتين فأسرع إلى المعركة ، ولكنه سرعان ما أدرك قوة الخصم وعرف أن معركة فتاكة فى انتظاره . وأخذ كل من الخصمين يقترب من الآخر بسرعة خمسين ميلا فى الساعة ولم يتسع الوقت أمام لنجسدورف ليتخذ قراراً وكان أسلم طريق له أن يعود أدراجه ويشغل مهاجميه أكبر وقت ممكن وهم على مدى نيران

مدافعه الثقيلة البعيدة المدى بينما هم عاجزون عن إصابته . وكان فى مقدوره أن يستفيد من الميزة التى يتمتع بها فى إطلاق مدافعه وقد يستطيع أن يشل حركة أحد الطرادات المهاجمة قبل أن يصل إلى مسافة إطلاق النار عليه ولكنه قرر عكس ذلك ورأى أن يواصل مهاجمة أيكسيتر وقد بدأ العمل من الجانبين فى وقت معا .

وبرهنت طريقة الكومودر هاروود على سدادها ، فقد أصابت مدافع ايكستير من عيار ثمانى بوصات البارجة المعادية فى أولى مراحل المعركة بينما كان الطرادان الآخران اللذان يحملان مدافع من عيار ست بوصات يصبان على العدو نيران مدافعهما وأصيب الأيكستر إصابة مباشرة أطاحت ببرجه ودمرت سائر المواصلات وتركت جميع من يقفون على ظهره بين قتيل وجريح وقد أفقدت ربانه السيطرة على سفينته . ولكن جراف شبى لم يستطع أن يتجاهل الطرادين الآخرين فحول لا نجسدورف إليهما نيران مدافعه الثقيلة وقد أتاح للاكسيتر فرصة تستريح فيها فى تلك اللحظة الحرجة .

وأحس الربان الألمانى خطورة الموقف فاستدار عازما على الاتجاه إلى نهر لابلاتا وقد أطلق ستاراً من الدخان ليخفى وجهته وكان أولى له أن ينفذ هذه الخطة بادىء الأمر .

ثم عاد جراف شبي بعد هذه الاستدارة إلى إطلاق النار على الأيكستير الذى أصيب إصابات شديدة عطلت سائر مدافعه الأمامية واشتعلت النيران فى وسطه وعلى الرغم من ذلك فقد جمع الربان بل ضابطين أو ثلاثة فى مراكز المراقبة الثانى وحافظ على حركة الباخرة أطول مدة مستطاعة حتى لم يبق فى وسعه أن يعمل شيئا فاستدار فى الساعة والدقيقة السابعةالأربعين واتجه إلى أقرب ميناء لعمل الاصلاحات اللازمة وتوقف عن خوض غمار المعركة .

ومازال أجاكس وأخيل يطاردان الجراف شبي فى معركة من أقوى المعارك . وقد اعتدلت لهما البارجة الألمانية بجميع مدافعها الكبيرة وفى الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والعشرين نسفت قنبلة برجامن أبراج أجاكس وأصيب أخيل

بأضرار بالغة . ولم يكن فى مقدور هذين الطرادين الخفيفين أن يقفا فى معركة أمام نيران بارجة العدو . فلما أحس هاروود أن ذخيرته تكاد أن تنتهى قرر التوقف عن القتال حتى يرخى الليل سدوله وتتاح له فرص أحسن لكى يستخدم مدافعه الخفيفة . وقد يجد فرصة لاستخدام الطوربيد . وانسحب هاروود تحت ستار من الدخان ولم يحاول العدو أن يطارده وظلت هذه المعركة ساعة وعشرين دقيقة واتجهت الجراف شبي سائرة نحو مونتفيديو والطرادان البريطانيان فى إثرها على بعد دون أن يشتبكا معها فى معركة عدا بعض طلقات متبادلة بين الفريقين . وقد دخلت الجراف شبي ميناء مونتفيديو بعد منتصف الليل لإصلاح مافيها والتزود بالمؤن وانزال الجرحى ونقل رجالها إلى سفينة تجارية ألمانية وأبرقت إلى الفوهرر . ووقف الطرادان أجاكس وأخيل خارج الميناء وقد عقدا العزم على تدميرها إذا غامرت بالخروج من الميناء وفى خلال ذلك كان الطراد كمبرلاند الذى كانت قد انتهت عملية اصلاحه فى جزر نولكلاند قد أسرع ليحل محل أبكسيتر الذى توقف عن العمل . وبوصول الطراد الجديد تعادل الموقف الذى كان موضع الشك .

وأرسل الربان لانجسدورف فى السادس عشر من ديسمبر إلى الأميرالية الألمانية بأن النجاة مستحيلة وتساءل إذا كانت التعليمات تقضى بأن يقوم بإغراق الطراد فى مصب نهر لا بلاتا على قلة غوره أو ترى أن يقدم نفسه أسيراً .

وعقد الفوهرر اجتماعا تحت رآسته وقد حضره الاميرال ريدر والجنرال يودل وتقرر أن يرد عليه بهذه العبارة « حاول بسائر الطرق أن تمد فترة بقائك فى المياه المحايدة وحاول أن تشق طريقك نحو بيونيس ايرس إذا تيسر لك . لا أسرف أوروغواى حاول تدمير البارجة تماما إذا تقرر إغراقها ونقلت البارجة غراف شبي أكثر من سبعمائة من بحارتها مع أمتعتهم وزادهم إلى الباخرة الالمانية الراسية فى الميناء . وبعد قليل علم الاميرال هاروود أنها أخذت تفك مراسيها . وفى الساعة السادسة والربع شوهدت على مرأى من ألوف النظارة وهى تغادر الميناء وتتجه فى بطء إلى البحر حيث تنتظرها الطرادات البريطانية .

وفى الساعة الثامنة والدقيقة الرابعة والخمسين والشمس مؤذنة بالغروب . أعلنت

الطائرة العاملة من أجا كس أن جراف شبي قد نسفت نفسها . وقد انهارت أعصاب لانجسدورف لخسارة باخرته فانتحر بعد يومين .

وهكذا انتهت المرحلة الاولى من مراحل تهديد التجارة البريطانية فى المحيطات بواسطة المغيرات وقبل ربيع سنة ١٩٤٠ لم تظهر أية سفينة مغيرة أخرى حين ابتدأ الالمان حملة جديدة واستخدموا البواخر التجارية المتنكرة وكان فى مقدورها أن تتجنب اكتشاف أمرها بسهولة إلا أن التدمير لم يكن يحتاج ذلك الجهد الذى يحتاجه تدمير بارجة جيب المانية .

الجبهة الفرنسية

اتجهت القوة البريطانية نحو فرنسا عندما بدأت الحرب وما كدنا نصل إلى منتصف شهر أكتوبر حتى كانت أربع فرق بريطانية من المحترفين قد احتلت مواقعها على الجبهة الفرنسية البلجيكية ، ولم يحل شهر مارس سنة ١٩٤٠ حتى كانت ست فرق أخرى قد انضمت إلى هذه الفرق . فأصبح مجموعها عشر فرق وقد انتظمت جبهتنا بازدياد قواتنا ، ولكننا لم نكن على اتصال بالعدو فى أى مركز من المراكز .

فلما وصلت الحملة البريطانية إلى مواقعها ، وجدت الخنادق ممدة للدبابات على طول الخط ، وعلى أبعاد حوالى ألف ياردة مواقع من الاسمنت تتيح إطلاق نيران من الخنادق بالمدافع الرشاشة والمضادة للدبابات ، وكانت الاسلاك الشائكة مقامة فى نطاق متصل . وكانت مهمة جنودنا فى فصلى الخريف والشتاء متجهة إلى تحسين مواقع الدفاع التى أقامها الفرنسيون وتنظيمها على صورة من خط سيجفريد .

وكان العمل يسير بخطى واسعة على الرغم من الجليد المتراكم وقد ظهر من الصور الجوية التى أخذت أن الالمان كانوا يقومون بتوسيع خط سيجفريد باتجاه الشمال عبر الموزيل ، وعلى الرغم من المزايا التى يفيد بها الألمان لقرب المواد الأولية وتيسير العمل . فقد كان عملنا يسير بنفس السرعة التى يسيرون بها . وأقيمت المنشآت اللازمة لإقامة قاعدة كبيرة كما تم تحسين الطرق . ومدت سكك حديدية واسعة طولها مائة ميل . وتم إنشاء وتحسين ما يقرب من خمسين مطاراً جديدا وقاعدة صغيرة وقد جمعت خلف جبهتنا مقادير كبيرة من المعدات والعتاد على طول طرق مواصلاتنا . وأعدت المئونة الكافية لعشرة أيام بين السين والسوم وسبعة أيام إضافية أخرى إلى الشمال من السوم . مما كان له أثر كبير فى انقاذ جيشنا بعد أن اخترق الالمان الجبهة . وكانت فترة الهدوء فرصة سانحة لاستخدام الموانئ الواقعة إلى الشمال من الهافر على التوالى حتى أمكننا فى النهاية أن نستخدم نحو ثلاثة عشر ميناء من الموانئ الفرنسية . .

* * *

كانت الروح الحماسية فى الجيش الفرنسى والشعب سنة ١٩١٤ تلك الروح التى اشتعلت فى نفوس الآباء والأبناء منذ سنة ١٨٧٠ روحاً هجومية شديدة . وكانوا يعتقدون أن الدولة الأقل عدداً فى مقدورها أن تواجه الغزو إذا قامت بهجوم مضاد فى كل نقطة استراتيجية وتكتيكية . ولكن فرنسا اليوم كانت غير فرنسا التى قامت فى أغسطس سنة ١٩١٤ تهاجم عدوها القديم . وكانت روح الثأر قد انطفأ لهيبها بالنصر الذى أحرزته . وكان القادة الذين حققوه قد فارقوا الحياة منذ زمن بعيد . وكان الشعب الفرنسى قد أدرك معركة راح ضحيتها نحو مليون ونصف من خيرة رجاله . وكانت الأعمال الهجومية عند الفرنسيين مقترنة بفكرة الفشل الأول الذى أصاب هجومهم سنة ١٩١٤ والفشل الثانى الذى أصاب الجنرال نيفيل سنة ١٩١٧ وما قاسوا من الآلام الطويلة فى هجومى السوم وباشنديل . وقد وقع فى روعهم أن قوة النار الضاربة للأسلحة الحديثة تكون مدمرة للمهاجم . ولم يكن فى فرنسا ولا فى بريطانيا فهم واقعى للحقيقة الجديدة . وهى أن السيارات المدرعة تستطيع أن تقف أمام نيران المدفعية وتتقدم مائة ميل فى اليوم . ولم يلق الكتاب القيم الذى صدر فى هذا الموضوع باسم رجل يسمى القومندان ديجول أى اهتمام . وكانت سلطة الماريشال العجوز بيتان فى مجلس الحرب الأعلى قد طغت على الفكر العسكرى الفرنسى . وسدت الطريق أمام سائر الأفكار الحديثة . ولم تشجع على قبول أية فكرة من الأسلحة الحديثة .

وقد طرقت أسماعنا بعد الحرب حملات ضد سياسة خط ماجينو ولاشك أن هذه السياسة قد أوجدت عقلية دفاعية لدى الفرنسيين ومن التدابير الوقائية السديدة للدفاع عن حدود تمتد إلى مئات الأميال أن يشاد أكبر عدد من السدود والحصون .

وكان من الممكن إذا استخدم خط ماجينو استخداماً حسنا فى خطة فرنسا الحربية أن يؤدى خدمة عظيمة لفرنسا .

وإذا نظرنا بعين الاعتبار إلى أنه يكون سلسلة طويلة من نقط الاندفاع ذات الأثر البالغ وكذلك الجيوب ويقف حاجزاً لأماكن شاسعة من الجبهة ليترك مجالا لإعداد القوات الاحتياطية والمناورات الواسعة وإذا نظرنا كذلك إلى عدم التعادل

فى عدد السكان بين فرنسا وألمانيا استطعنا أن نقرر أن إقامة خط ماجينو كان عملا فى منتهى الحكمة والسداد . ولعلنا لانعدو الحقيقة إذا قلنا إن هذا الخطر لم يعد على نهر الموز بصورة صحيحة . ولو امتد على طول هذا النهر لكان حصنا واقيا ييسّر لفرنسا تقوية جيشها الهجومي . ولكن المريشال بيتان عارض هذا الامتداد ورأى ووافقه مجلس الحرب الأعلى على رأيه أن الأردين لايمكن أن تكون ميدانا للهجوم لطبيعة أرضها .

ولما زرت ميتز سنة ١٩٣٧ شرح لى الجنرال جيرو الاعتبارات الهجومية لخط ماجينو ولكن آراءه لم تنفذ ومن ثم كان خط ماجينو سببا فى حجز عدد كبير من الجنود النظاميين المدربين والفنيين ، كما أنه خلق نوعا من التهدئة فى نظام الستراتيجية العسكرية والوعى القومى .

وقد اعتبرت السلاح الجوى سلاحا قوياً فى سائر العمليات الحربية وإذا نظرنا إلى النقص النسبي فى إعداد الطائرات لدى الفريقين فى ذلك الوقت . عرفنا أن تأثيرها قد بولغ فيه كثيراً . وقد اعتبر مجرد عامل فى عرقلة تجمع الجيوش الكبيرة وطرق مواصلاتها عند الشروع فى الهجوم . وعلى الرغم من أن إعداد الطائرات الألمانية فى ذلك الحين كاعداد طائرات الحلفاء لم يكن كافيا للقيام بمثل هذا العمل فإن القيادة العليا الفرنسية قد أيقنت بأن فترة التعبئة خطيرة للغاية لما ينتظر من تدمير مراكز السكك الحديدية بسبب الغارات .

وقد دلت الظروف فى السنوات الأخيرة على صحة الآراء التى أعرب عنها قادة السلاح الجوى حين أصبحت القوة الحربية عشرة اضعاف أو عشرين ضعفا مما كانت عليه عند بدء الحرب .

* * *

من النكات التى تدور على الألسنة فى بريطانيا أن وزارة الحربية تستعد اليوم للحرب الماضية . وقد تصح هذه النكتة على بعض الوزارات وبعض البلاد . لكنها كانت صادقة تماماً بالنسبة للجيش الفرنسى وكنت أرى ميزة عظمى للإجراءات الدفاعية إذا نفذت تنفيذاً عملياً . ولم أكن مسئولا ولم تتوافر لدى

المعلومات الكافية لأضع فى حسبانى فكرة دقيقة جديدة عن كل حال . وكنت أدرك أن مذابح الحرب الماضية قد خلفت فى نفوس الفرنسيين أثراً بالغاً ؛ وقد وجد الألمان فرصة سانحة لبناء خط سيجفريد . وقد كان من الخطر أن نلقى بالبقية الباقية من الشبيبة الفرنسية فى أتون من النار والأسمنت المسلح لكى تقتحم هذا الحصن . وكانت وجهة نظرى فى هذه الحرب العالمية الثانية لا تختلف من الوجهة العامة من حيث الدفاع وكنت أعتقد أن السلاح المكافح للدبابات ومدافع الميدان فى مقدورها إذا وزعت بطريقة سديدة وتوفر لها العتاد أن تشل حركة أية دبابات أو تحطمها تحطيما ، إلا إذا كان الظلام مخيما والضباب منتشراً سواء أكان حقيقياً أو صناعياً .

ولا تتكرر المشاكل على حالها فيما تفرضه القدرة الإلهية على عبيدها وإذا تكررت فإن ما بينها من الفارقات تحول دون تعميم الحكم عليها . وإذا لم يكن العقل البشرى موجهاً بعبقرية استثنائية فإنه لايستطيع أن يقف أمام الحقائق القدرة التى عاش تحت أعبائها . وقد رأينا هتلر بعد ثمانية أشهر من التبلد من الجانبين يبدأ هجوماً عنيفاً شاملا تتقدمه حشود كبيرة من السيارات ذات الفولاذ الذى لا تؤثر فيه المدافع لمتانته فتحطم سائر المقاومات الدفاعية وتجعل من المدفعية لأول مرة فى تاريخها منذ اخترع البارود سلاحا عاجزاً وقد قدر لنا أن نرى أن ازدياد القوة النارية ، قد قلل من عدد الضحايا فجعل فى الإمكان الاحتفاظ بالأرض اللازمة بأقل عدد من الجنود مما أبعد العنصر الإنسانى عن الهدف .

وعلى أية حال لم يكن فى مقدور الفرنسيين أن يقوموا بأى هجوم قبل انتهاء الأسبوع الثالث من شهر سبتمبر . ولكن قوة المقاومة البولندية كانت قد انتهت فى ذلك الوقت وفى منتصف شهر أكتوبر كان الالمان قد حشدوا سبعين فرقة فى الجبهة الغربية ومن ثم لم يكن للتفوق العددى الفرنسى أى أثر .

وإذا قام الفرنسيون بهجوم فى جبهتهم الشرقية تعرت جبهتهم الشمالية وهى أكثر أهمية وأشد حيوية من الاولى . وحتى إذا أحرزوا نصرا فى البداية فلن ينقضى شهر حتى يجدوا أنفسهم غير قادرين على المحافظة على الأماكن التى احتلوها .

أضعف مما كان متوقعا فان هذا الخط سيكون مقدمة طيبة للدخول إلى ألمانيا والاشراف على منطقة الروهر الحيوية للانتاج الالمانى الحربى .

ويقول رؤساء أركان الحرب « إن الخطة الفرنسية التى تدعى خطة « د » قائمة على أن البلجيكيين إذا استطاعوا الاحتفاظ بحوض نهر الموز فان على الجيوش الفرنسية والبريطانية أن تعجل باحتلال خط جيفيت — نامور وتمهل القوات البريطانية فى الناحية اليسرى .

وليس من المعقول تنفيذ هذه الخطة ما لم يكن البلجيكيون قد اشتركوا فى وضعها فى وقت كاف قبل بدء الزحف الالمانى . وإذا لم يتغير موقف بلجيكا الحالى وتوضع الخطط اللازمة لاحتلال خط جيفيت — نامور الذى يسمى أحياناً بخط الموز — انتويرب فى وقت مبكر . فاننا نرى بصفة قاطعة أن علينا أن نواجه الزحف الالمانى فى مواقع نعدها فى وقت مبكر على الحدود الفرنسية نفسها » .

وفى السابع عشر من نوفمبر اجتمع مجلس الحلفاء الأعلى وقد اصطحب المستر تشمبرلين معه اللورد هاليفاكس واللورد شاتفيلد والسير كنجزلى وود . واتخذ القرار على الصورة الآتية : « للأهمية القصوى التى نعلقها على بقاء الألمان فى أقصى نقطة إلى الشرق ، ليتحتم بذل كل محاولة للمحافظة على خط الموز — انتويرب إذا تعرضت بلجيكا للغزو الألمانى » وقد تمسك المستر تشمبرلين والمسيو دلادييه فى هذا الاجتماع بأهمية هذا القرار ومن ثم أصبح لهذا القرار التأثير على العمليات الحربية . وهكذا أمضينا فصل الشتاء وأخذنا ننتظر الربيع . وفى خلال الأشهر الستة التى انقضت بين هذا القرار وبين الكارثة الألمانية لم تتخذ أية قرارات ذات أهمية استراتيجية من أركان الحرب البريطانيين والفرنسيين .

* * *

وأمضت الحملة البريطانية الربيع والشتاء وهى تمد مواقعها وتقوى خطوطها استعداداً لحرب هجومية أو دفاعية . وقد اشترك الجميع فى هذا الإعداد من أكبر ضابط إلى أصغر جندى . وكان المظهر العظيم الذى ظهرت به الحملة راجعاً إلى حسن استغلال الفرص فى الشتاء وكان الجيش البريطانى فى نهاية مرحلة بوادر الحرب أعظم مما كان عليه

إذ سيتعرضون بصفة خاصة للهجوم المضاد الذى يشنه الجيش الالمانى مجتمعا من الشمال .

هذا هو الرد على سؤال كثيراً ما تردد على الاذهان وهو «لماذا ظللتم ساكنين حتى تم تدمير بولندا ؟» لقد تقرر الأمر فى هذه المعركة منذ سنوات . وكانت هناك فرصة طيبة للنصر سنة ١٩٣٨ . وتشيكوسلوفا كيا قائمة . وفى سنة ١٩٣٦ لم يكن هناك شك فى مقاومة فعالة وكان فى استطاعة عصبة الأمم سنة ١٩٣٣ . أن تخضع الالمان دون حاجة إلى سفك الدماء . ونحن لا نستطيع أن نلوم الجنرال جملان وحده لأنه فى سنة ١٩٣٩ لم يجازف بالحد من هذه الحال التى ازداد خطرها منذ الأزمات السابقة التى تراجعت أمامها الحكومتان البريطانية والفرنسية .

ما عسى أن تكون احتمالات الهجوم العام الذى يشنه الألمان على فرنسا ؟ هناك ثلاثة طرق . الأول : أن يقوم الهجوم من جهة سويسرا حول الجناح الجنوبى لخط ماجينو ولكن عقبات كثيرة جغرافية وستراتيجية تحول دون ذلك . والثانى أن تغزى فرنسا من الحدود المشتركة بين البلدين . ولم يكن هذا متوقعا فإن الجيش الألمانى لا يملك المعدات والأسلحة اللازمة لاختراق خط ماجينو والثالث غزو فرنسا عن طريق بلجيكا وهولندا . وهجوم مثل هذا يمكن أن يتجنب خط ماجينو ويجنب القيادة الألمانية الخسائر المتوقعة من هجوم مجابه على تحصينات منيعة موطدة الأركان . ولم يكن فى مقدورنا أن نصد هجوما خاطفا على الأراضى المنخفضة ونرده عن هولندا وإن كان من صالح الحلفاء وقفه إذا أمكن عن بلجيكا . وكان أمام الحلفاء خطان إذا سمحت بلجيكا بأن يتقدموا نحوها بناء على خطة سرية .

الخط الأول هو ما يدعى بخط « الشلدت » ولا يبعد كثيراً عن الحدود الفرنسية وليس فى الوصول إليه مغامرة . ونستطيع الاحتفاظ به « كجبهة مخيلة » على أسوأ احتمال أما فى أحسن الاحتمالات فاننا نستطيع أن نشيده ونبنيه وفق ما تدعو الحال .

أما الخط الثانى فأنه أكثر إغراء فهو يسير مع نهر الموز من جيفيت ودينانت ونامور ولوفين إلى انتويرب . وقد يتوقف الجناح الأيمن للغزو الألمانى إذا أمكنت السيطرة على هذا الخطر فى معارك عنيفة . وإذا ثبت بعد المعركة أن الجيوش الالمانية

عند بدايتها . كما كان أكبر عدداً وعدة . ولكن كانت هناك ثغرة فى نظامنا الذى سبق الحرب وهى أن الحملة البريطانية فى فرنسا لم يكن لديها فرقة مدرعة . فبريطانيا أم الدبابات بسائر أنواعها . قصرت فى تقدم هذا السلاح فى الفترة مابين الحربين وهو السلاح الذى كان له أكبر شأن فى ميادين القتال . ولم يكن فى حوزتنا بعد مرور ثمانية أشهر على إعلان الحرب ، مع جيشنا الصغير والممتاز رغم صغره فى الساعة الحرجة إلا كتيبة الدبابات التى تشمل سبع عشرة دبابة خفيفة ومائة دبابة مشاة يحمل ثلاث وعشرون منها المدفع عيار رطلين .

وتكتفى الباقية بحمل المدافع الرشاشة . وكان هناك سبعة أفواج من الخيالة والفرسان المجهزة بالمدافع المنقولة والدبابات الخفيفة . وهى فى طريق إعدادها فى صورة لواءين مدرعين .

ولم تكن الأمور على الجبهة الفرنسية أحسن منها عندنا . فى الجيش القائم على أسس التجنيد القومى ، يكون لآراء الشعب أثرها البالغ . لاسيما إذا كان الجيش مقيما فى أرض الوطن . وكانت الصلة بينه وبين أفراد الشعب وثيقة العرا . ولا نستطيع أن نقول إن فرنسا فى سنة ١٩٣٩ — ١٩٤٠ واجهت الحرب بثقة أو بروح معنوية رفيعة . وكان ما يحيط السياسة الداخلية من قلق وريب فى الفترة المنصرمة قد خلق حالة من الفرقة والسخط . فثمة عناصر ذات أهمية اتجهت إلى الفاشية كرد فعل للشيوعية المتفشية وكانت هذه العناصر تصغى إلى دعاية جوبلز الماهرة . وتحفظها وتنشرها بمختلف الطرق من همسات وشائعات . وهكذا كانت الشيوعية والفاشية كل منهما يقوم بدوره فى التأثير على الجيش . وقد أتاحت أشهر الانتظار الطويلة فى الشتاء الفرصة لنشر هذه السموم .

وثمة عوامل كثيرة تشترك فى رفع بناء القوة المعنوية فى أى جيش من الجيوش . وأهم هذه العوامل أن يستخدم الناس بصورة كاملة فى أعمال نافعة . والبطالة تربة صالحة خطرة . وكانت فى الشتاء أعمال كثيرة تحتاج إلى عناية . وكان التدريب يحتاج إلى اهتمام والوسائل الدفاعية لم تكن بحالة مرضية . حتى خط ماجينو نفسه كان فى حاجة إلى بعض أعمال الميدان الإصلاحية لأن الكفاية الجسمانية تحتاج إلى التدريب .

وكان كل من يزور الجبهة الفرنسية تعتريه الدهشة لذلك الهدوء المسيطر عليها والصورة السيئة للعمل الذى يجرى بها . وفقدان النشاط بكافة أنواعه بين الفريقين . وكان عجيباً خلو الطرق من وراء الخطوط بالمقارنة بالحركة الدائبة التى تمتد أميالا وراء القطاع البريطانى .

وما من شك فى أن كفاية الجيش الفرنسى قد تأخرت خلال فصل الشتاء ولو قاتل فى الخريف المنصرم لكان قتاله أعظم منه فى الربيع وقد قضى سريعاً على هذا الجيش بالدمار أمام القوات الألمانية المكتسحة الخاطفة . ولم ترتفع روح الجندى الفرنسى وماله من كفاية إلى الظهور إلا فى المراحل الأخيرة من تلك الحملة القصيرة حين أصبح فى حاجة ملحة للدفاع عن أرض بلاده ضد عدوه المعروف ولكن كان الوقت قد فات .

وقد تأكد ما كان يساور نفسى من المخاوف بالنسبة للجبهة الغربية فقد صدرت الأوامر إلى ضابط من أركان حرب الجيش الألمانى من الفرقة الجوية السابعة بأن يحمل وثائق هامة إلى مقر القيادة العامة فى كولون وقد فاته القطار فقرر السفر بالطائرة . وأخطأت طائرته عند خط الحدود الفاصل فنزل اضطراراً فى الأرض البلجيكية فاعتقلته القوات البلجيكية واستولت على أوراقه التى حاول عبثاً أن يبددها . وقد اشتملت هذه الوثائق على الخطة الكاملة لغزو بلجيكا وهولندا وفرنسا وهى الخطة التى وضعها هتلر . وقد أطلق سراح « الميجور » الألمانى ليعود إلى رؤسائه ويوضح لهم ما كان ، وقد نقلت إلى تفاصيل الحال فى وقتها . ولم أكد أصدق أن البلجيكيين يضمون خطة ويشركوننا فيها . وكان ثمة حوار بين البلاد الثلاث . فى هل تكون هذه الخطة قد وضعت للخداع والتضليل . وهذا الاعتقاد خاطئ إذ لم يكن هناك مايدعو الألمان لايهام البلجيكيين بخطة تجعلهم فى تمام الأهبة مع الجيوش الفرنسية والبريطانية وقد أيقنت بوقوع هذا الغزو .

وطلبنا إلى البلجيكيين أن يتعاونوا معنا فى هذا الأمر ولكن ملك بلجيكا وقادة جيشه فضلوا الانتظار فربما حدث ما يغير الأمور ويحولها إلى مصلحتهم . وعلى الرغم من الوثائق التى ضبطت مع « الميجور » الألمانى . فإن قيادة الحلفاء أو الدول المهددة

لم تقم بأى عمل ، أما هتلر بعد أن تأكد من مصادرة الوثائق وهى فى الحقيقة وثائق الغزو كاملة ، فقد استدعى جورنج وأمره بإعداد خطة جديدة بعد أن أنبه وغضب عليه غضباً شديداً .

ولو كانت السياسة البريطانية والفرنسية فى السنوات الخمس السابقة للحرب قد صممت على المحافظة على قداسة المعاهدات وتمسكت بقرارات عصبة الأمم . لوقفت بلجيكا إلى جانب حلفائها الأقدمين وسمحت بإقامة جبهة مشتركة معهم . ولو تم ذلك لكان حصناً قوياً على طول الخطوط البلجيكية الممتدة إلى البحر ضد حركة الالتفاف الخطرة التى كادت تطيح بنا سنة ١٩١٤ والتى أطاحت بفرنسا سنة ١٩٤٠ وما كانت بلجيكا ترى مصيراً كالذى رأته على أسوأ الاحتمالات .

ونحن إذا استعرضنا الأمر ونظرنا إلى انزواء الولايات المتحدة والحاح المستر ماكدونالد فى حملة نزعه سلاح فرنسا وما لاقيناه من الاذلال والنكسة من تعدد حوادث خرق الألمان بنود المعاهدة فى منطقة الراين وتسليمنا بالاستحواذ على النمسا وميثاقنا فى ميونخ وقبولنا احتلال الألمان براج . فاننا لا نجد لأى شخص من المسئولين فى بريطانيا وفرنسا فى تلك الأيام مبرراً للوم بلجيكا. فقد فضل البلجيكيون أن يتبعوا سياسة الحياد فى وقت سيطرت عليه سياسة التردد والخذلان وتعلقوا بالأمل الواهن فى قدرتهم على أن يقفوا فى وجه الألمان الغزاة أمام حدودهم الحصينة حتى تصل إلى نجدتهم الجيوش البريطانية والفرنسية .

اسكاندينافيا — فنلندا

إن لشبه الجزيرة الممتدة إلى ألف ميل من مدخل بحر البلطيق إلى الدائرة القطبية أهمية استراتيجية ذات أثر كبير . وتمتد جبال النرويج إلى المحيط في امتداد من الجزر وبين هذه الجزر ممر من المياه الإقليمية ييسر لألمانيا الاتصال بالبحار الخارجية مما يعرض حصارنا البحرى لخطر كبير . وكانت تعتمد صناعة ألمانيا الحربية بصورة رئيسية على ما تستورده من مسحوق الحديد السويدى الذى يصل إلى ألمانيا أيام الصيف من ميناء لوليا السويدى فى رأس خليج بوثنيا . وفى الشتاء عند ما تتجمد مياه الخليج من نارفيك على الساحل الشمالى الغربى من النرويج . والاحتفاظ بحرمة هذه الخلجان معناه السماح بدوام هذا الاتجار تحت ستار الحياد وتحدى تفوقنا البحرى . وقد كانت هذه الميزة مثار قلق عند الأميرالية ومن ثم فقد رأيت أن أثير هذا الموضوع فى اجتماع وزارة الحرب فى أول فرصة تتاح لى .

وقد استقبلت هذه القضية التى أثرتها استقبالا طيباً فى أول الأمر وأحس سائر الزملاء بخطورة الأمر ولكن احترام حياد الدول الصغيرة كان مبدأ نتمسك به جميعاً . وقدمت فى سبتمبر بناء على طلب زملائى مذكرة عن الموضوع اشتملت على الدراسة الدقيقة التى قامت بها الأميرالية . وشفعتها بأرقام عن حمولة البواخر المحايدة التى لها صلة بهذا الموضوع . وقد رأيت موافقة عامة من الزملاء على الحاجة إلى العمل ولكنى لم أجد موافقة على القيام بالعمل . وكانت الحجج التى قدمتها وزارة الخارجية قوية ولها قيمتها فلم أستطع أن أقاومها . ومع ذلك فقد استمر نضالى فى هذا الشأن بكل الطرق ولم يتخذ القرار الذى طلبت اتخاذه فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ إلا فى أبريل سنة ١٩٤٠ بعد أن فات أوانه .

وكانت تتجه أنظار الألمان الألمان كما عرفنا إلى نفس الاتجاه . وقدم الأميرال ريدر رئيس أركان البحرية الألمانية فى الثالث من أكتوبر اقتراحاً إلى هتلر عنوانه « كسب القواعد فى النرويج » وطلب فيه « بأن يعرف الفوهرر رأى أركان حرب

البحرية فى مد قواعد العمليات البحرية إلى الشمال . والتأكد فيما إذا كان فى الإمكان كسب قواعد فى النرويج تحت ضغط مشترك من روسيا وألمانيا لتحسين الأوضاع العملية والاستراتيجية » وقدم عدد من المذكرات إلى الفوهرر فى العاشر من أكتوبر ويقول فى هذه المذكرات أبديت بصورة مؤكدة ما ينالنا من اضرار إذا استولى البريطانيون على النرويج فهذا الاستيلاء سيجعلهم متحكمين فى مداخل بحر البلطيق ومن ثم يستطيعون الالتفاف حول منطقة عملياتنا البحرية وحول قواعد غاراتنا الجوية على بريطانيا . وإنهاء ضغطنا على السويد وقد أكدت المزايا التى نحصل عليها باحتلال ساحل النرويج فهو يحفظ لنا منفذاً إلى شمال الأطلنطى ويمنع بريطانيا من وضع سد من الألغام كما فعلت سنة ١٩١٧ — ١٩١٨ » .

وقد زكى هذا الرأى روزنبرج خبير الحزب النازى فى الشئون الخارجية والذى يقوم بإدارة مكتب للنشاط الدعائى فى البلاد الأجنبية . وكان يحلم « بدعوة سكنديناڤيا إلى فكرة تقضى بضم المجموعة النوردية التى تشمل شعوب الشمال تحت زعامة ألمانيا بصفة طبيعية .

وكان فى بداية سنة ١٩٣٩ قد وجد فى الحزب الوطنى المتطرف فى النرويج الذى يتزعمه شخص يدعى فيدكون كويز لنج أحد وزراء الحربية السابقين ، أداة خيل له صلاحيتها ، وقد اتصل بكويز لنج . فتم ارتباط حزبه بخطط القيادة البحرية الالمانية عن طريق منظمة . روزنبرج والملحق البحرى الألمانى فى أوسلو . ورحل كويز لنج ومساعده هكاين إلى برلين فى الرابع عشر من شهر ديسمبر فذهب بهما ريدر إلى هتلر لبحث فكرة توجيه ضربة سياسية فى النرويج . ووصل كويزلنج ومعه خطة مفصلة ليعرضها على هتلر ولكن هتلر أعلن رفضه زيادة التزاماته من سبيل التكتم وقال إنه يفضل أن تظل اسكنديناڤيا على الحياد . وعلى الرغم من ذلك أصدر فى نفس اليوم أوامره إلى القيادة العليا بإعداد الخطة لعملية النرويج .

* * *

ولم نكن بالطبع نعرف شيئا عن كل هذا .

وفى إبان ذلك تحولت شبه جزيرة اسكنديناڤيا إلى ميدان جديد للنضال . كان له أكبر الأثر فى إثارة النفوس فى بريطانيا وفرنسا وكان له أثره الفعال فى محادثاتنا حول النرويج .

فقد أدت « مواثيق المساعدة المتبادلة » . التى عقدها ستالين مع استونيا ولاتفيا وليتوانيا ، إلى استغلال هذه البلاد وتدميرها وأصبح الجيش الأحمر والقوة الجوية السوفياتية يقفان سدا فى طريق الدخول إلى الاتحاد السوفياتى من جهة الغرب أو بحر البلطيق . وبقيت الطريق من جهة فنلندا .

وفى شهر أكتوبر سافر إلى موسكو المستر باسيكيفى أحد الساسة الفنلنديين الذين وقعوا معاهدة الصلح مع الاتحاد السوفياتى سنة ١٩٢١ . وكانت مطالب السوفيات كثيرة . أهمها ضرورة دفع الحدود الفنلندية فى كاريليا إلى الوراء مسافة بعيدة حتى تكون مدينة لننجراد بمنأى من نيران المدافع المعادية وتسليم عدد من الجزر الفنلندية فى خليج فنلندا إلى الاتحاد السوفياتى وتأجير ميناء فنلندا الوحيد الذى لا تتجمد مياهه فى المحيط المتجمد الشمالى وهو ميناء بتسامو وتأجير ميناء هانغو الذى يقع فى مدخل خليج فنلندا ليكون منهما قاعدتان بحريتان جويتان للروس وكان الفنلنديون مستعدين للتساهل فى كل شىء ماعدا النقطة الاخيرة فإذا استولى الروس على مداخل الخليج من الجانبين هددت سلامة فنلنده القوية والاستراتيجية · وفى الثالث عشر من نوفمبر انقطعت المفاوضات ، وأخذت الحكومة الفنلندية تعبىء قواتها . وقد أعلن مولوتوف إلغاء معاهدة عدم الاعتداء مع فنلندا فى الثانى والعشرين من نوفمبر ولم يمض يومان حتى قام الروس بهجوم على فنلندا من ثمانى جهات على طول حدودها التى يبلغ طولها الف ميل . وقام السلاح الجوى السوفياتى بضرب هلسنكى من الجو .

واشتد الهجوم الروسى بادىء الأمر على الحصون الدفاعية التى أقامها الفنلنديون فى كاريليا . وتمتد عشرين ميلا شمالا وجنوبا وفى منطقة تغطيها الغابات القائمة وسط الثلوج وقد أطلق على هذه التحصينات اسم خط مانرهايم نسبة إلى المريشال مانرهايم القائد الأعلى للجيش الفنلندى الذى أنقذ فنلنده من العبودية البلشفية سنة ١٩١٧

وقد عم بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة بصفة خاصة سخط شديد استنكارا لهذا الهجوم الذى تقوم دولة كبيرة كالاتحاد السوفياتى ضد شعب متمدن حتى دون أى استفزاز تلاه موجة من الدهشة والارتياح . حين مرت الاسابيع الأولى من القتال ولم تحرز فيها القوات السوفياتية أى نجاح .

وقد برهن الجيش الفنلندى الذى لا يتجاوز عدده مائتى ألف جندى عن بطولة نادرة . وقد قوبلت الدبابات بعزيمة وجلاد واستعملت ضدها القنابل اليدوية التى سميت « كوكتيل مولوتوف » .

وهل الاتحاد السوفياتى قد ظن بادىء الأمر أن زحفه سيكون أشبه بالنزهة منه بالقتال . إن الغارات الجوية التى وقعت على هلسنكى وغيرها من المدن وإن لم تكن عنيفة ستوقع الرعب فى قلوب الفنلنديين وعلى الرغم من تفوق القوات السوفياتية من ناحية العدد فقد كانت تنقصها الكفاية وحسن التدريب وكان من جراء الغارات الجوية والهجوم الذى تعرضت له فنلندا أن هب الفلاندبون ضد المعتدين وقاتلوا بجلد وعزم ومهارة بالغة ، وقد دل هجوم الغزاة على أواسط فنلندا على دمار ماحق حل بالغزاة . فهذه المنطقة تتكون من غابات من الصنوبر قائمة على أرض منبسطة تغطيها الثلوج وكان البرد شديدا ، وقد استعد الفنلنديون بالزحافات والملابس المدفئة بينما حرم الروس منها وأثبت الفنلنديون جدارات فائقة فى الحرب . وقد دربوا أحسن تدريب على أعمال الاستطلاع وحرب الغابات . وكان الروس يعتمدون بغير جدوى على تفوقهم من ناحية العدو والاسلحة الثقيلة وتراجعت القوات الفنلندية الامامية شيئا فشيئا إلى الوراء والروس يتبعونها بجنودهم وبعد أن توغل الروس حوالى ثلاثين ميلا هاجمهم الفنلنديون وقد توقفت صفوف الغزاة أمام الخطوط الدفاعية التى كان قد أقامها الفنلنديون فى الغابات فالتفوا حول أجنحتها وقطعوا مواصلاتها مع المؤخرة ومزقوها شر ممزق ، وأرغموها على النكوص بعد أن حملوها خسائر باهظة وفى نهاية شهر ديسمبر كانت الخطة التى وضعها الروس للزحف على فنلندا قد فشلت وحل بها الدمار .

ولم يكن هجومهم على خط مانرهايم بأحسن حالا من هذا الهجوم فى أوائل شهر

ديسمبر قام الروس بهجوم استخدموا فيه نحو اثنتى عشرة فرقة . وقد واصلوا اندفاعهم المتتابع طوال الشهر . ولم تأت نهاية العام حتى كانت القوات السوفياتية قد منيت بفشل ذريع اقتنعت بعده بأنها فى معركة مع خصم أشد مما كان يدور فى حسبانها . وقررت أن تقوم بهجوم كبير شامل ولكن مثل هذا الهجوم يحتاج إعدادا واسع النطاق لذلك خفت وطأة القتال على الجبهة الفنلندية بعد انتهاء العام . وقد ظفر الفنلنديون بانتصار باهر على عدوهم القوى الشديد . وقد قوبل هذا الحادث العجيب بالرضا والاغتباط فى سائر أنحاء العالم سواء بين المحاربين والمحايدين . فقد كانت هذه المعركة دليلا قويا على انحطاط قوة الجيش السوفياتى . وكان الكثيرون من البريطانيين يهنىء بعضهم بعضا . ولم نكن قد بالغنا فى محاولة اقناع السوفيات بالانضمام إلى صفوفنا . وإن كانوا ظلوا يشيدون بقواتهم ويعلنون عن بعد نظرهم وقد استنتج الكثيرون أن الجيش الأحمر أصابته فى صميمه حركات التطهير . وقد قام الدليل واضحا على فساد نظام الحكم والمجتمع . ولم يقتصر هذا الرأى على البريطانيين وحدهم فلا شك أن هتلر وقادته العسكريين قد فكروا كثيرا فى نتائج الحملة الفنلندية وقد لعب هذا التفكير دوراً كبيراً فى آراء الفوهرر .

وقد اشتد السخط الذى شعر به الجميع ضد الحكومة السوفياتية لعقد ميثاق ريبنتروب مولوتوف واشتعلت نيرانه بعد هذا العدوان الوحشى . وقد اقترن بالاحتقار والزراية لعجز القوات السوفياتية والحماسة للفنلنديين الشجعان . وعلى الرغم من اشتباكنا فى حرب عظمى فقد كانت لنا رغبة شديدة فى مساعدة الفنلنديين بتزويدهم بالطائرات والمواد الحربية الثمينة والمتطوعين من بريطانيا والولايات المتحدة وحتى فرنسا ولم يكن هناك غير طريق واحد لارسال المعدات والمتطوعين إلى فنلندا . وكان ميناء نارفيك النرويجى المصدر لبرادة الحديد والذى يتخذ عن طريق السكة الحديدية عبر الجبال بمناجم الحديد السويدية مركزاً له أهميته الاستراتيجية . وكان استخدامه قاعدة لتموين الجيوش الفنلندية له أثره على حياد السويد والنرويج وكانا ينشدان خشية ألمانيا وروسيا البقاء خارج نطاق الحرب التى تحيط بهما من كل جانب وقد تشملهما فى أية لحظة . وخيل لهما أن الحياد هو الطريق الوحيد للنجاة وإذا كانت

الحكومة البريطانية مترددة فى القيام بأى عمل يعد خرقا لحياد المياه الإقليمية النرويجية بزرع الألغام فى مداخل هذه المياه لحرمان الألمان من استخدامها ، فقد قامت بناء على عاطفة شريفة لا تتصل اتصالا مباشرا بنضالنا الحربى لنطالب إلى السويد والنرويج السماح بمرور الجنود والمؤن إلى فنلندا .

وكنت أعطف عطفا شديداً على الفنلنديين . وأؤيد كل اقتراح يدعو إلى مساعدتهم فقد رحبت بهذه الخطوة كوسيلة لتحقيق الهدف الاستراتيجى المقصود بقطع شحنات رادة الحديد الحيوية عن ألمانيا فإذا أصبحت نارفيك بأية حال من الأحوال قاعدة للحلفاء ، يمونون منها الفنلنديين فسيسهل علينا بلا شك منع البواخر الألمانية من حمل الحديد من الميناء والمرور به من الخلجان إلى ألمانيا . وإذا كنا سنحتمل احتجاجات النرويجيين والسويديين مرة لسبب من الأسباب فإن الأعمال الكبرى ستضيع إلى جانب الإجراءات الصغيرة التى أثارت هذه الاحتجاجات ، ولهذا أعدت فى السادس عشر من ديسمبر محاولاتى السابقة للحصول على موافقة الوزراء على عمل بسيط لا تهرق فيه الدماء ويقضى بوضع الألغام فى خلجان النرويج .

ودرست وزارة الحرب مذكرتى فى الثانى والعشرين من ديسمبر . ودافعت عن فكرتى فى بكل ما أستطيع من قوة ولكننى لم أصل إلى قرار بالعمل . وتقرر ارسال احتجاجات بالطرق الدبلوماسية إلى النرويج لاساءة استعمال مياهها الإقليمية . وكلف رؤساء أركان الحرب بدراسة النتائج العسكرية التى تنشأ عن أية التزامات على الأرض الأسكندنافية وطلب إلى رؤساء أركان الحرب أن يعدوا خطة لإنزال قوة فى نارفيك لمساعدة فنلندا والرد على احتمال قيام الألمان باحتلال جنوب النرويج » ولكن لم يكن من الممكن إصدار أوامر تنفيذية إلى الاميرالية وكنت قد وزعت على زملائى مذكرة فى الحادى والعشرين من شهر ديسمبر لخصت فيها تقارير المخابرات التى يبدو منها احتمال وجود مشروع روسى لغزو النروج . وقد قيل إن الروس حشدوا ثلاث فرق فى مورمانسك متهيئة لحملة عن طريق البحر وأنهيت الكلام بأن « هذا المسرح قد يصبح فى القريب مركز العمليات عسكرية » وقد تبين صدق ما أقول . ولكن العمليات الحربية جاءت من ناحية أخرى .

ومما كان يشغلني وجوب الاستيلاء على «التمارك» وهي القطعة البحرية المساعدة لجراف شبي . لاسيما أن هذه الباخرة كانت سجنا عائما على سطح البحر لبحارة بواخرنا التجارية التي أغرقتها جراف شبي . وقد علمنا من بحارتنا الذين أطلق سراحهم في منتفديو طبقاً للقانون الدولي أن هناك نحو ثلاثمائة بحار بريطاني من بحارة السفن التجارية كانوا على ظهر التمارك . وقد استطاعت هذه الباخرة أن تختفي في جنوب الأطلنطي شهرين كاملين . ولما تأكد ربانها بأن البحث عنها قد أهمل حاول العودة إلى ألمانيا . وقد كان الحظ مساعداً لها في العودة وقد شاهدت إحدى طائراتنا الباخرة في مياه النرويج في الرابع عشر من شهر فبراير .

وقد جاء في بلاغ صدر من الأميراليه « أن الأوامر قد صدرت لعدد من القطع البحرية لتتحرك نحوها » وتقدمت مجموعة من المدمرات بقيادة الربان فيليب فيان على ظهر مدمرته طريق الباخرة الألمانية ولم تسرع باطلاق النار عليها ، فالتجأت الباخرة إلى خليج جوسينج . وهو ممر ضيق طوله ميل ونصف ميل على التقريب ، وتحوطه الجبال الثلجية من كل مكان . وصدر الأمر إلى مدمرتين بريطانيتين بتفتيش الباخرة ولكن زورقين مسلحين أبلغاها أن الباخرة ليست مسلحة وأنها فتشت في اليوم السابق وصرح لها بأن تعود إلى ألمانيا عن طريق المياه النرويجية ومن ثم انسحبت المدمرتان البريطانيتان .

فلما بلغت هذه المعلومات إلى الأميرالية تدخلت في الحال وأصدرت الأوامر بعد موافقة وزير الخارجية — باقتحام الخليج . ونفذ الربان فيان الأمر ودخل بمدمرته « كوزاك » إلى الخليج في المساء تتقدمه الأضواء الكاشفة . ثم صمدت إلى الزورق النرويجي المسلح « كجيل » وطلب إلى قائده أن يسوق إليه « التمارك » تحت حراسة بحرية مشتركة نحو ميناء « بيرجن » للتحقيق كما يقضي القانون الدولي فعاد الضابط النرويجي يؤكد أن الباخرة الألمانية فتشت مرتين وانها ليست مسلحة وليس على سطحها أسرى من البريطانيين . وقال « فيان » إنه سيصعد إلى ظهر الباخرة الألمانية وطلب من الضابط النرويجي أن يصحبه فرفض .

وفي أثناء ذلك حاولت التمارك أن تتحرك وتصطدم بالمدمرة « كوزاك » لتدمرها

ولكنها لم تفلح وصعد إلى ظهرها فريق من بحارة المدمرة بعد أن ربطوها إلى مدمرتهم وقامت معركة بالسلاح الأبيض قتل فيها أربعة من الألمان وجرح خمسة وفر فريق إلى البر واستسلم الباقون ثم بدأ البحث عن الأسرى البريطانيين فعثر عليهم وهم مئات وكانت أفواههم مكممة وقد أحكم وثاقهم وربطوا معاً ثم زج بهم فى المستودعات وبعضهم وضع فى مخزن كان يستعمل للبترول وارتفع الهتاف مردداً « لقد قدم الأسطول » وفتحت الأبواب وخرج الأسرى إلى ظهر الباخرة وقد تبين أن « التمارك » كانت تحمل مدفعين صغيرين وأربعة مدافع رشاشة . ولم يقم النرويجيون بتفتيشها وان كانوا قد صعدوا على ظهرها . وظل الزورقان النرويجيان يرقبان العمل عن كثب طوال الوقت وعند انتصاف الليل غادر فيان الخليج النرويجى وأبحر نحو قاعدته .

وكنت مع الاميرال باوند نجلس فى غرفة العمليات الحربية بالاميرالية والقلق يساور نفوسنا . وقد ألححت على وزارة الخارجية فى هذا وأنا أدرك خطورة الاجراءات التى نقوم بها ، ولكن همنا الأول كان العثور على الأسرى البريطانيين الذين كانوا فى الباخرة وقد أفعمت قلوبنا بالسرور حين وصلتنا الأنباء فى الساعة الثالثة من الصباح بأنه قد تم العثور على ثلاثمائة أسير أنقذوا جميعا وهذا أمر له أهميته البالغة .

وكان هتلر قد قرر غزو النرويج كما قدمت فى الرابع عشر من شهر ديسمبر . وكان ضباط أركان الحرب يضعون الخطة تحت أشراف كايتل ولا شك أن حادث التمارك كان حافزا للألمان نحو العمل وفى عشرين من فبراير استدعى هتلر بناء على اقتراح من كايتل الجنرال فون فولكنهورست للحضور إلى برلين عاجلا وكان يقود الفيلق القائم فى كوبلينز فى ذلك الوقت وفولكنهورست هذا كان قد اشترك فى الحملة الالمانية فى فنلندة سنة ١٩١٨ فلما وصل اجتمع هو وهتلر وكايتل ويودل لبحث تفاصيل الخطة المطلوبة للحملة على النرويج وقد تقرر أن يعهد إليه بقيادتها وكان الأختلاف قائما على أى الحملتين يبدأ بها هل يقدم هتلر بغزو النرويج قبل تنفيذ خطة « الحقيبة الصفراء » للهجوم على فرنسا أو بعدها ؟ وفى اليوم الأول من شهر مارس صدر قرار هتلر بأنه يجب البدء بحملة النرويج . وقد عقد الفوهرر مؤتمرا

عسكريا بعد ظهر السادس عشر من شهر آذار وتقرر أن يبدأ الغزو فى الشهر التاسع من شهر إبريل .

* * *

وفى أثناء ذلك كان السوفيات قد دفعوا قواتهم لتقف ضد الفنلنديين ، وضاعفوا الجهد لاختراق خطر مانرهايم قبل ذوبان الثلوج . وقد تأخر الربيع الذى عول عليه الفنلنديون لسوء الحظ ستة أسابيع . وبدأ الهجوم السوفياتى الكبير فى اليوم الأول من فبراير واستغرق اثنين وأربعين يوما مصحوبا بغارات جوية عنيفة على المخازن والسكك الحديدية وراء الجبهة وقد استمر ضرب المدافع الثقيلة عشرة أيام بغير انقطاع قبل بدء هجوم المشاة . وقد اخترق السوفيات القطاع بعد خمسة عشر يوما من القتال الشديد . واشتدت الغارات الجوية على قاعدة فيبورى . وفى نهاية الشهر كان خط مانرهايم قد تحطم واستطاع الروس أن يركزوا هجومهم على خليج فيبورى . وكان الفنلنديون قد بلغ منهم الجهد والنصب . وكادت تنفد معداتهم الحربية .

وكان موقف الاستقامة والشرف الذى اتبعناه حائلا دون الوصول إلى أى امتياز استراتيجى يمكننا من إرسال المعدات والذخائر إلى فنلندا بصفة جدية . أما فى فرنسا فقد بدأ شعور عميق تبناه مسيو دلادييه بعناية وحماسة . ففى اليوم الثانى من شهر مارس . ودون أن يستشير الحكومة البريطانية وافق على إرسال خمسين ألف متطوع ومائة قاذفة قنابل إلى فنلندا . ولم يكن فى مقدورنا أن نفعل مافعله الفرنسيون لاسيما أن الوثائق التى وجدت مع الضابط الألمانى فى بلجيكا والتقادير المتتابعة عن حشد القوات الألمانية على الجبهة الغربية كانت تجعل هذا العمل بعيداً عن العقل والسداد .

ومع ذلك فقد تقرر إرسال خمسين قاذفة بريطانية كذلك وقررت وزارة الحرب فى الثانى عشر من شهر مارس إحياء الخطط التى ترمى إلى إنزال قواتنا فى نارفيك وتروندهايم وإتباعها بنزول آخر فى ستافنجار وبرجيه بجزء من المساعدة الفنلندية التى ساقنا إليها الفرنسيون . وكان من المفروض أن تكون هذه الخطط مهيأة للتنفيذ فى العشرين من شهر مارس . على الرغم من أننا لم نتمكن من الحصول على

موافقة السويد . ولكن المستر باسيكيفى كان قد ذهب مرة ثانية فى السابع من شهر آذار إلى موسكو للبحث فى شروط الهدنة وفى الثانى عشر منه قبل الفنلنديون شروط موسكو وقد ركنت جميع خططنا العسكرية التى كانت مهيأة للنزول فى النرويج . وتفرقت القوات التى كانت قد جمعت لهذا الغرض . وتقرر إرسال الفرقتين اللتين كنا نحتفظ بهما فى انكلترا إلى فرنسا . أما قواتنا الضاربة التى كانت معدة للنرويج فقد نزلت إلى أحد عشر فوجا .

وقد أدى انهيار فنلندا إلى نتائج أخرى فقد اجتمع هتلر وموسوليني فى الثامن عشر من شهر مارس بممر برينر . وأسر هتلر متعمدا إلى ضيفه بأن ليس هناك أى تفكير للقيام بهجوم برى ألمانى تجاه الغرب . وقد تحدث المستر تشمبرلين فى التاسع عشر من شهر مارس ردا على حملة النقد التى وصلت إليه فقال مؤكدا — وكان على حق فى تأكيده إن أهم ما كان يشغلنا هو المحافظة على حياد السويد والنرويج ودافع عن موقف الحكومة فى عدم الدخول فى محاولات لنجدة الفنلنديين باعتبارها عملا غير مجد ولا يأمل فى نجاحه . وكانت هزيمة فنلندا ذات أثر بالغ على حكومة دلاديه الفرنسية التى كانت نـ تخذت خطوات واسعة لمساعدة فنلندا وإن كانت قد جاءت متأخرة وقد أتاح رئيسها بطريقة غير مناسبة هذه الناحية من متاعبنا وفى الحادى والعشرين من شهر مارس تألفت وزارة جديدة برآسة مسيو رينو وقد تعهدت بأن تبذل أكثر ما يستطاع من قوة للقيام بما توجبه الحرب .

وكانت علاقتى بالمسيو رينو قائمة على أسس تختلف عن علاقتى بالمسيو دلاديه . فقد كان رينو وميندل كلاهما يشاركانى النوازع والشعور بالنسبة لاتفاق ميونخ . أما دلاديه فقد كان يقف إلى الناحية الأخرى . وجاء الوزراء الفرنسيون إلى لندن فى الثامن والعشرين من شهر مارس لحضور اجتماع المجلس الحربى الأعلى . وافتتح المستر تشمبرلن الاجتماع بكلمة شاملة واضحة وصف فيها الموقف كما يراه وقال ان لألمانيا ناحيتى ضعف هما تموينها من برادة الحديد ومن البترول . وكانت المنابع الرئيسية لهاتين المادتين تقعان فى الطرفين المضادين من القارة الأوربية . فبرادة الحديد تأتى من الشمال . وأخذ يشرح بعبارة دقيقة قضية قطع تموين الحديد عن ألمانيا من السويد ثم تناول موضوع حقول البترول فى رومانيا وبا كو التى يجب أن يمنع نتاجها

عن ألمانيا بالطرق الدبلوماسية إذا أمكن وكنت أصغى إلى تلك الحجج القوية بسرور بالغ وارتياح وما كنت أعرف حتى ذلك اليوم مقدار ما بيني وبين تشمبرلين من الاتفاق الكثير فى وجهات النظر .

وتحدث المسيو رينو عن أثر الدعاية الألمانية على الروح المعنوية فى فرنسا . وقال « ان الدعاية الألمانية تعلن أن ليس ثارايخ أى اختلاف مع فرنسا وان الحرب لم تقم إلا بسبب ذلك « الاذن على بياض » الذى قدمته بريطانيا إلى بولندا وأن فرنسا سيقت إلى الحرب فى إثر بريطانيا وأنها ليست على حال تمكنها من القتال .

وكانت سياسة جوبلز نحو فرنسا ترمى إلى استمرار الحرب على هذا النحو الخفيف معتمداً على ما يبثه من روح الخور وتثبيط الهمم بين الخمسة ملايين فرنسى الذين عبئوا فى الجيش وعلى قيام حكومة فرنسية ترغب فى الوصول إلى تفاهم مع ألمانيا على حساب بريطانيا العظمى .

وقال : إن السؤال الذى يتردد فى فرنسا هو كيف يتاح للحلفاء الفوز فى الحرب ؟ فنسبة الفرق على الرغم من الجهود البريطانية تزداد بسرعة إلى جانب ألمانيا لا إلى جانبنا .

فكيف وأنى لنا أن نحقق ذلك التفوق المنشود للقيام بعمل ناجح فى الغرب ؟ وليس لدينا علم بما تملكه ألمانيا من العتاد الحربى ويسود فرنسا اعتقاد بأن الحرب قد وصلت إلى نقطة من الجمود وليس على ألمانيا إلا أن تنتظر . وإذا لم تقم بعمل حاسم لمنع تموين العدو بالزيت والمواد الأولية ، فإن الشعور بأن الحصار ليس كافياً لتحقيق النصر للحلفاء سيزداد قوة » وكان يستجيب إلى وجوب قطع برادة الحديد من السويد ويؤكد وجود علاقة شديدة بين هذا التموين وبين ما تنتجه ألمانيا من صناعات الحديد والفولاذ . ومن ثم رأى أن لابد من زرع الألغام فى المياه الإقليمية على طول الشاطىء النرويجى . والقيام بعمل مماثل لمنع نقل برادة الحديد من ميناء لوليا السويدى إلى ألمانيا . وأكد أن من الضرورى منع الزيت الرومانى عن المانيا .

وقد تقرر أخيراً بعد توجيه عدة مراسلات إلى السويد والنرويج أن تزرع الألغام

فى المياه . الاقليمية النرويجية فى اليوم الخامس من شهر ابريل وتم الاتفاق على أنه إذا قامت ألمانيا بغزو بلجيكا تدخل قوة الحلفاء إليها فى الحال ولا تنتظر دعوة رسمية من الحكومة البلجيكية وإذا غزت ألمانيا هولندا ولم تتحرك بلجيكا لمساعدة جارتها . فإن الحلفاء يطلقون لأنفسهم الحرية لدخول بلجيكا لمساعدة هولندا .

وتقرر أخيراً بإجماع الآراء اتفاق الحكومتين البريطانية والفرنسية على إصدار البيان التالى :

« تتعهد الدولتان فى الحرب الحالية بأن لا تقدم إحداهما على مفاوضة أو عقد هدنة أو معاهدة صلح إلا بالاشتراك مع الدولة الأخرى » .

وقد كان لهذا الميثاق شأن كبير فيما بعد .

***

وفى الثالث من شهر ابريل قررت وزارة الحرب البريطانية تنفيذ قرار مجلس الحرب الأعلى . وسمحت للاميراليه بزرع الالغام فى مداخل المياه النرويجية فى الثامن من شهر ابريل .

ولما كانت هذه العملية قد تدفع الألمان إلى القيام بعمل مضاد فقد تم الاتفاق على ارسال كتيبة بريطانية ووحدة فرنسية صغيرة إلى نارفيك لتطهير الميناء والسير قدما نحو الحدود السويدية وتقرر ارسال قوات أخرى إلى سفانا نجراد وبرجن وتروندهايم لمنع العدو من استخدام هذه القواعد .

وأخذت تترامى إلينا النذر والأنباء السيئة التى تختلف فى مصادرها . فقد أعلن وزير الحربية فى نفس الجلسة التى عقدتها وزارة الحرب فى الثالث من ابريل أن وزارته تلقت تقريراً بأن الألمان يحشدون قوات كبيرة فى ردستوك تمهيداً للاستيلاء على اسكنديناوة إذا رأوا ضرورة تقضى بذلك . وقال وزير الخارجية إن مالديه من الأنباء الواردة من استوكهلم تميل إلى تأييد ماجاء فى تقرير وزارة الحرب . وقد ذكرت المفوضية السويدية فى برلين أن بواخر ألمانية حمولتها مائتى ألف طن وعلى ظهرها مايقرب من أربعمائة ألف جندى تحتشد على ميناءى ستيتين وسوينموند وتتأهب

التوجيه ضربة معاكسة لأى هجوم قد نشنه على الموانى النرويجية التى تهتم بها وتشعر بالقلق الشديد من أجلها .

وفى الرابع من شهر ابريل ألقى المستر تشمبرلن خطابا أبدى فية كثيراً من التفاؤل فقد أعلن أن هتلر « قد فاته الركب » وأن الأشهر السبعة الماضية قد أتاحت لنا فرصة التغلب على ما كان عندنا من الضعف وتعزيز قواتنا الحربية إلى حد بعيد وقال إن ألمانيا من الناحية الأخرى ، كانت قد بذلت كل مالديها للاستعداد للمعركة ولم يعد فى مقدورها مزيد فوق الذى وصلت إليه .

وقد تبين أن هذا الخطاب جاء فى غير أوانه ، وكان تقديره خاطئاً فهو يفترض فى أساسه أن مركزنا أصبح أقوى نسبيا مما كان وهذا افتراض غير معقول فإن الألمان كما بينت سابقاً كانوا يدخلون فى السنة الرابعة من استعدادتهم الحربية الهائلة . ونحن مازلنا نسير فى المرحلة الأولى التى قد تقاس إلى السنة الثانية من هذا السباق من ناحية الإنتاج .

فضلا عن هذا فإن كل شهر يمر على الجيش الالمانى الذى بلغ السنة الرابعة من عمره يزيده نضوجا وكمالا . وقد أخذ يختفى تفوق فرنسا السابق من ناحية التدريب وحسن النظام شيئا فشيئا بصفة مستمرة . وكان كل شيء معلقا فى كفة القدر . وقد . لقيت المقترحات المختلفة التى سبق أن قدمتها لتحسين مركزنا قبولا آخر الأمر إلا أنه لم ينفذ حتى ذلك الوقت شيء رئيسى لها سواء عندنا أو عند الفرنسيين وكانت خطتنا تقضى بتقوية حصارنا بزرع الألغام فى النرويج فى الشمال ومنع وصول الزيت إلى ألمانيا من جنوب أوروبا الشرقية . وكان كل شيء ساكن وراء الجبهة الألمانية ثم بوغتنا بالمفاجآت المذيفة التى اكتسحت كل ما كان يعده الحلفاء من سياسة جامدة ضيقة الحدود وقد أخذنا درسا جديدا فى معنى الحرب الجماعية .

النرويج

قبل أن أبدأ بعرض هذه المسألة يجب أن أوضح ما طرأ على مركزى فى شهر ابريل سنة ١٩٤٠ .

أصبح منصب اللورد شانفيلد كوزير للدفاع لافائدة منه وقد قبل المستر تشمبرلن استقالته فى الثالث من شهر ابريل وفى الرابع من الشهر نفسه صدر بيان من دونفج ستريت بأن الحكومة تنوى شغل هذا المنصب . وإن كانت قد اتخذت الإجراءات لكى يتولى وزير البحرية بصفته أقدم وزراء القوات المسلحة رآسة لجنة التنسيق العسكرية .

ومن ثم توليت رآسة اللجنة التى كانت تعقد جلساتها كل يوم مرة أو مرتين فى الفترة ما بين الثامن والخامس عشر من ابريل وهكذا أصبحت لى سلطة واسعة من الناحية النظرية . وان لم يعهد إلى بسلطة فعالة فى القيادة والتوجيه فقد كنت بين وزراء القوات المسلحة الآخرين الأعضاء فى وزارة الحرب « الرجل الأول بين الأكفاء » ولذلك لم تكن لدى السلطة اللازمة لاتخاذ القرارات أو تنفيذها . وكان حتما على الأخذ بوجهة نظر وزراء القوات المسلحة ورؤساء أركان حربهم من المحترفين . وكان من حق فئة كبيرة من الرجال ذوى الكفاية والأهمية بل ومن واجبهم كذلك أن يبدوا آراءهم فى مختلف مراحل المعركة التى تتبدل من آن لآخر وقد حمى وطيسها .

وكان رؤساء أركان الحرب يعقدون مع وزرائهم جلسات يومية منظمة بعد دراسة الأوضاع بصفة منتظمة وكانوا يصلون إلى قرارات ذات أهمية كبيرة . وكانت تصلنى تلك القرارات عن طريق لورد البحر الأول . الذى لم يكن يخفى عنى أمرا من البيانات والمذكرات التى يصدرها رؤساء أركان الحرب ، وكنت أستطيع إذا شئت أن أسأل عن أى موضوع خاص بهذه القرارات وأناقشه وأثير البحث فى أول جلسة تعقدها لجنة التنسيق التى يحضرها رؤساء أركان الحرب مع وزرائهم المختصين الذين كانوا يقفون غالبا إلى جانبهم يدعونهم إلى الجلسة كأعضاء عاديين وكان النقاش يدور

فى هذه الجلسات بطريقة مهذبة وينتهى عادة بتقرير لائق يعده سكرتير الجلسة ويقره ممثلو وزارات القوات المسلحة بعد التأكد من سلامته وخلوه من الأخطاء وهكذا وصلنا إلى تلك الذروة السعيدة الفسيحة حيث تتخذ القرارات للمصلحة القصوى لأكبر عدد من الناس عن طريق تبادل الرأى بين الجميع . لكن الأوضاع التى كان علينا أن نواجهها فى هذه الحرب كانت ذات اختلاف كبير ومما يؤسف له أن أقول إن النضال القائم كان أشبه بالنضال بين رجل شرير يهاجم انسانا فيهوى على أنفه بعصا أو مطرقة أو أى شىء تقع عليه يده مما تنفر منه النفوس . وتلك من العوامل البارزه التى تدعو الانسان إلى محاولة تفادى الحرب وتسوية الأمور بالطرق الودية ، مع النظر بعين الاعتبار إلى حقوق الأقليات والعناية الحقة بمختلف الآراء .

وكانت لجنة الدفاع المتفرعة من وزارة الحرب تعقد جلساتها كل يوم لدراسة تقارير لجنة التنسيق العسكرية وتقارير لجنة رؤساء الحرب . وكانت تقاريرها تعرض على مجلس الوزراء العادى . ويتحتم فى كل جلسة من هذه الجلسات شرح الأوضاع وعندما تنتهى كل هذه الاجراءات يكون الموقف جميعه قد تغير وكنا فى الأميرالية التى اتخذناها مقرا لقيادة المعركة البحرية نتخذ القرارات الخاصة بالأسطول بصفة عاجلة ولا نحيل منها إلى رئيس الوزراء سوى الأمور البالغة حد الخطورة . فكان يوافق على قراراتنا . أما فيما يتعلق بالقوات المسلحة الأخرى فلم يكن فى المستطاع أن نجرى الأمور بالسرعة التى تتطلبها الأمور العاجلة . إلا أن ثلاثة ارباع العمل التنفيذى فى بدء الحملة النرويجية كان فى يد الأميرالية .

ولا أدعى أنى إذا كانت لدى سلطات أوسع مما أتيح لى أستطيع أن أتخذ قرارات أفضل أو أصل إلى حلول أحسن المشاكل التى لا مفر لنا من أن نواجهها . ولكن الأحداث التى سأشرحها كانت عنيفة والأوضاع كانت فى اضطراب وقد أدركت أن سلطات رئيس الوزراء هى وحدها التى تستطيع أن تنظم أعمال لجنة التنسيق وتتحكم فيها ومن ثم طلبت إلى المستر تشمبرلن فى الخامس عشر من شهر ابريل أن يتولى رآسة اللجنة وقد تولى بالفعل رآسة جميع الجلسات التى عقدناها بعد هذا التاريخ طوال حملة النرويج . وكان يقف الى جانبى ويؤيد آرائى . ويزكيها على وجهات نظر الآخرين بما له من سلطة وعملنا معاً فى وئام تام .

ولا شك أن الولاء والنية الحسنه كانا متوافرين لدى الجميع . ومع ذلك فقد أحسسنا أنا ورئيس الوزراء أن نظامنا الذى نسير عليه يحتاج إلى الوضع الصحيح وبخاصة عندما نواجه سير الأحداث التى تحير العقول وعلى الرغم من أن الاميرالية كانت المحرك الاول فى هذا الوقت فقد كان لأى وزير أن يعترض على أى تنظيم يحاول فيه وزير آخر تنسيق عمليات القوات العسكرية الأخرى ، فى الوقت الذى يدير فيه أعمال الأميرالية ويتحمل مسئولياتها المتعلقة بالحركات البحرية ولم يكن وجود رئيس الوزراء وتأييده لى مذللا جميع العقبات وقد واصلت عملى فى هذه الحلقة الودية المذبذبة التى يعوزها الثبات فى الوقت الذى حالفنا فيه سوء الطالع وانصبت علينا الضربات .

وقد صرح لى بعد أن حلت بنا النوازل العديدة فى سكندينافيا ، بأن أدعو لجنة رؤساء أركان الحرب إلى الانعقاد وأن أرأس جلساتها : وهى لجنة لم نكد نستطيع أن نقوم بأى عمل دونها وأعطيت لى السلطة الرسمية « للتوجيه والقيادة » وقد انتدب الجنرال إيسماى أ كبر ضباط أركان الحرب فى القيادة المركزية ليكون تحت تصرفى كضابط أركان حرب وممثل لى : وأصبح بهذه الصفة عضوا فى لجنة رؤساء اركان الحرب . وكنت أعرف الجنرال ايسماى منذ سنوات . ولكننى عرفته هذه المرة معرفة وثيقة . ومن ثم أصبح رؤساء أركان الحرب أمامى إلى حدما عن حالتهم الجماعية . وكنت أستطيع كنائب لرئيس الوزراء أن أؤثر تأثيرا فعالا فى قراراتهم وسياساتهم .

وكان طبيعيا أن ينحازوا إلى وزرائهم المختصين . الذين ربما كانوا يشعرون بشىء من السخط — بحكم الطبيعة الإنسانية — لانتقال جزء من سلطتهم إلى زميل من زملائهم . وكان قد اتضح أننى أتولى هذه السلطة بالنيابة عن لجنة التنسيق العسكرية . وهكذا كان على أن أحمل مسئوليات جسام دون أن تكون السلطة الفعلية فى يدى للقيام بأعباء هذه المسئوليات ومع ذلك فقد كنت مطمئنا إلى أننى أستطيع أن أحقق نجاحا للتنظيم الجديد إلا أن هذا التنظيم لم يطل أ كثر من أسبوع ولكن علاقتى بالجنرال ايسماى وعلاقته بلجنة رؤساء أركان الحرب متواصلة لا تنفصم أو يعتريها الوهن منذ اليوم الأول من شهر مايو سنة ١٩٤٠ إلى السادس والعشرين من شهر يولية سنة ١٩٤٦ حين القيت عن كاهلى المسئوليات .

وقد دعا وزير ألمانيا المفوض فى اوسلو ليلة الجمعة الخامس من شهر أبريل لفيفاً من الضيوف البارزين ومن بينهم الوزراء إلى مشاهدة عرض شريط سينمائى فى دار المفوضية . وقد عرض الشريط المناظر الرهيبة التى التقطت أثناء غارات الدافع على وارسو . وكانت العبارة التى ألقيت لشرح هذه الصور « إن البولنديين يستطيعون أن يحمدوا أصدقاءهم الإنكليز والفرنسيين على ما حل بهم » وانفض الضيوف وقد استولى عليهم الأسى والوجوم . وكانت الحكومة النرويجية تشعر بقلق شديد لنشاط الإنكليز وأعمالهم . وقد قامت أربع مدمرات بريطانية بوضع الألغام فى مداخل الخليج الغربى وهو القناة التى توصل إلى ميناء نارفيك وكان ذلك ما بين الساعة الرابعة والنصف والخامسة من صباح اليوم الثامن من شهر أبريل وأذيعت الأنباء بذلك من لندن فى الساعة الخامسة صباحاً . وفى الساعة الخامسة والنصف سلمت مذكرة من حكومة صاحب الجلالة إلى وزير الخارجية النرويجية . وظلت اوسلو طوال الصباح تعد احتجاجاتها للندن . وفى ساعة متأخرة من بعد الظهر فى نفس اليوم أبلغت الاميرالية المفوضية النرويجية فى لندن أن البوارج الألمانية شوهدت على مقربة من الشاطىء النرويجى تتقدم نحو الشمال وقد تكون متجهة نحو نارفيك وقد وصلت الأنباء فى نفس الوقت بأن ناقلة الجنود الألمانية ريودى جانيرو ، قد غرقت بالقرب من الساحل الجنوبى للنرويج وقد أغرقتها الغواصة البولندية أورزبل ، وقد أنقذ الصيادون النرويجيون عدداً كبيراً من الجنود الألمان وقد صرحوا بأنهم كانوا فى طريقهم إلى برجن ليساعدوا النرويجيين على الدفاع عن بلادهم ضد البريطانيين والفرنسيين . وأن فى الطريق بواخر أخرى . وكانت ألمانيا قد اقتحمت حدود الدانمارك ولكن هذه الأنباء لم تصل إلى النرويج إلا بعد أن تعرضت للغزو ولم تتلق نرويج تحذيراً رسمياً وقد استولى الألمان على الدانمارك بعد أن قاوموا مقاومة عنيفة قتل فيها عدد من الجنود المخلصين .

وفى تلك الليلة اقتربت البوارج الألمانية من ميناء أوسلو وأرسلت البطاريات الساحلية عليها النيران . وكانت القوة الدفاعية النرويجية تتألف من زارعة ألغام هى أولان تريجفاسون ، وكانستى ألغام وبعد الفجر بقليل دخلت كانستا ألغام ألمانيتان

مدخل الخليج لانزال الجنود بالقرب من المدفعية الساحلية . فأغرقت إحداها بنيران مدفعية زارعة الألغام تريجفاسون ولكن القوات الألمانية نزلت واستولت على البطاريات الساحلية وقد استطاعت زارعة الألغام الباسلة أن تصد مدمرتين ألمانيتين عند مدخل الخليج وألحقت أضراراً بالطراد إيمدن . واشتركت فى المعركة سفينة من سفن صيد الحيتان مزودة بمدفع واحد دون أن يكون لديها أمر من أحد . وقد طار مدفع السفينة فى هذه المعركة وأصيب قائدها فى ساقيه وحتى لا يصاب رجاله بذعر أو تنهار أعصابهم دحرج جسده على ظهر السفينة وانتحر بشجاعة نادرة . ودخلت القوة الألمانية الرئيسية يتقدمها الطراد بلوخر إلى الخليج واتجهت إلى الخلجان التى تحميها قلعة أوسكار زبورج . وأرسلت المدفعية النرويجية نيرانها وأطلقت القوة المدافعة طوربيدين من مسافة خمسمائة ياردة فغرق الطوربيد بلوخر فى الحال . وغرق معه كبار رجال القيادة الألمانية الإداريين وفئات من الجستابو . ونكصت السفن الألمانية الأخرى راجعة ومن بينها لوتزاو . ولم يعد الطراد ايمدن إلى الاشتراك فى أى قتال . وقد احتلت أوسلو عن طريق القوات التى هبطت من الجو إلى الخليج لا عن طريق البحر .

وأصبحت خطة هتلر واضحة تماما . فنزلت القوات الألمانية فى كريستيان ساند، وستافانجر . ونزلت فى الشمال فى برجن وتروند هايم .

وكانت فى نارفيك الضربة الكبرى فقد مضى أسبوع والبواخر الألمانية التى تنقل برادة الحديد تعود إلى ذلك الميناء وتسير فى الطريق المخصص لها بناء على الحياد النرويجى . وهى ملأى بالمؤن والعتاد وكانت عشر مدمرات ألمانية تحمل كل منها مائتى جندى ومعهما الطرادان شارنهورست وجينزناو قد أقلعت من ألمانيا قبل بضعة أيام ووصلت إلى نارفيك فى وقت مبكر من صباح اليوم التاسع من شهر أبريل .

وكانت فى مياه الخليج سفينتان حربيتان من السفن النرويجية هما السفينة نورج والسفينة ايدزفولد وكلاهما على استعداد للقتال وعند الفجر ظهرت المدمرات متجهة إلى الميناء بسرعة كبيرة . وقد حالت العواصف الثلجية الشديدة دون معرفة جنسية هذه المدمرات . ولكن سرعان ما ظهر ضابط ألمانى يستقل زورقاً بخارياً ، وطلب

من إيدزفولد الاستسلام . وقد انسحب هذا الضابط عند ما سمع من قائد السفينة الحربية ذلك الرد القصير « سأهاجم » ولـكن السفينة غرقت فى الحال بوابل من الطوربيدات التى انهالت عليها . وفى خلال ذلك أرسلت نورج نيرانها ولكنها غرقت فى الحال بقذائف الطوربيد وقد قضى فى هذه المركة ٢٨٧ بحاراً نرويجياً ولم ينج من السفينتين أكثر من مائة بحار . وقد أصبح احتلال نارفيك أمراً ميسوراً وهكذا ضاع هذا الموقع الاستراتيجى وحرمنا منه إلى النهاية .

وكان الأميرال نوربس يتربص بالقوة الرئيسية من أسطوله فى ذلك الصباح أمام برجن . وكان الموقف فى نارفيك لم يتبين بعد وقد كان القائد يأمل أن يتمكن من أن يحول بين الألمان وبين احتلال الميناء فزج بمدمراته إلى الخليج لتمنع الألمان من النزول إلى الساحل وأسرع الربان وودبر تولى على رأس خمس مدمرات هى هاردى وهنتر وهانوك وهوتسبر وهوسنايل بالدخول إلى الخليج الغربى وقد أبلغه النرويجيون فى ترانوى أن ست سفن حربية أكبر من قطعه ترافقها غواصة مرت بالمكان وأن الألغام وضعت فى الميناء وقد أرسل هذه المعلومات وأضاف إليها هذه الكلمة « عزمت على الهجوم عند الفجر » . وفى اليوم العاشر من شهر إبريل دخلت المدمرات الخمس إلى الخليج وكانت عند الفجر أمام نارفيك . وكانت داخل الميناء خمس مدمرات . وقد استطاعت المدمرة هاردى فى هجومها الأول أن تقذف القطعة الألمانية التى كانت ترفع علم القائد الألمانى الذى قتل وغرقت مدمرة أخرى بقذيفتى طوربيد أما الثلاث الباقية فقد أصابتها نيران المدفعية ولم تستطع المقاومة . وكان فى الميناء ثلاث وعشرون باخرة تجارية من مختلف الجنسيات منها خمس بواخر بريطانية وست ألمانية ودمرت جميعها . ولم تشترك فى هذه المركة غير ثلاث من مدمراتنا . وبقيت هوتسبر وهوستايل كقوة احتياطية ضد تدخل البطاريات الساحلية أو سفن ألمانية جديدة . ولـكنهما عادتا فاشتركتا فى الهجوم الثانى ، وتمكنت هوتسبر من إغراق سفينتين ألمانيتين تجاريتين بالطوربيد . ولم تصب أية قطعة من قطع الربان دووبرتون لى . وقد وقفت مدفعيات العدو ، وبعد ساعة من المركة لم تـكن وحدة من الوحدات الألمانية تستطيع الخروج من المضيق القائه .

لكن الحظ بدأ يتغير ويتقلب . فقد صادف ووربرتون وهو عائد بعد هجومه الثالث ثلاث قطع جديدة تقترب منه وبدأت معركة على مسافة سبعة آلاف ياردة . وقد ظهرت فجأة سفينتان حربيتان من وراء الضباب . ولم تكن هاتان السفينتان من سفن النجدة البريطانية كما كان يظن ولكنهما كانتا مدمرتين ألمانيتين ترسوان في خليج قريب وبدأت المدافع الألمانية تدوى بصوتها وتحطم ماتشاء على ظهر هاردى وقد أصيب القبطان دوربرتون لى إصابة مهلكة، وقتل سائر ضباطه ورفاقه وجرح البعض عدا الملازم ستانج سكرتيره الذى قام بأعمال القيادة ونزلت قذيفة فى غرفة الآلات فانفجرت . واضطرت المدمرة إلى الجنوح نحو الشاطىء تحت تأثير النيران الشديدة وكانت آخر رسالة بعث بها ربان هاردى إلى المدمرات الأخرى « واصلوا القتال مع العدو » .

وفى أثناء ذلك كانت المدمرة هنتر قد أغرقت ، أما هوتسبر وهوستايل اللتان اصيبتا إصابات مباشرة مع هافوك ، فقد اتجهتا معها إلى عرض البحر ولم يستطع العدو الذى تصدى للمدمرات الثلاث أن يقفها . وبعد نصف ساعة لاقت المدمرات الثلاث سفينة كبيرة تبين أنها السفينة رونفيلز وكانت تحمل العتاد للالمان فأطلقت هافوك عليها النيران فنسفتها . واستطاع الناجون من المدمرة هاردى أن يصلوا إلى الشاطىء وقد حملوا جثة قائدهم الذى منح وسام « صليب فكتوريا » بعد موته . وقد خلف هو ورجاله أثراً لا يمحى على العدو وصفحة خالدة فى تاريخنا البحرى .

وكان الهجوم الخاطف على النرويج يمتاز بالمفاجأة والقسوة والخطط الدقيقة التى غودر فيها شعب برىء أعزل كالشعب النرويجى . وقد استخدمت ألمانيا فى هذا الهجوم سبع فرق وثمانمائة طائرة عاملة وما يقرب عدده من مائتين وخمسين إلى ثلاثمائة طائرة نقل مما كان له أثره الواضح فى الهجوم . ولم تمض ثمان وأربعون ساعة حتى كانت جميع موانى النرويج قد وقعت فى أيدى الألمان . فلما ظهرت الحقيقة أمام الناس والشعب والجيش اشتد غضبهم ولكن بعد فوات الأوان فقد أعمتهم الدعاية الألمانية عن الحقائق وعادت فسلبتهم القدرة على المقاومة وأسرع الجنرال كويزلنج فأعلن

نفسه حاكما على المناطق التى احتلها الألمان . وقد رفض سائر الموظفين النرويجيين العمل تحت إمرته . وبدأت التعبئة وأخذ الجيش يقاتل الغزاة الذين كانوا يزحفون شمالا من أوسلو وهرع الوطنيون الذين استطاعوا الحصول على الأسلحة إلى الجبال والغابات وقد انسحب الملك وحكومته نحو هامار وتقع على بعد مائة ميل من أوسلو وكانت السيارات الألمانية المدرعة تطاردهم ، وحاول الألمان القضاء عليهم بالقنابل والمدافع الرشاشة ، ولكنهم على الرغم من ذلك ظلوا يحضون الشعب على أن يبذل كل ما لديه من قوة فى سبيل المقاومة ولكن الشعب كان قد أخذ منه الرعب والخوف كل مأخذ ولجأ إلى السكينة والخضوع . ومن المعروف أن شبه جزيرة النرويج تمتد ألف ميل طولا وسكانها مبعثرون فى كل ناحية وطرق مواصلاتها قليلة وبخاصة فى الشمال . ولا شك أن السرعة التى استطاع بها هتلر الاستيلاء على تلك البلاد تعد من الأعمال الخارقة وهى مثل للنظام الدقيق والوحشية البالغة التى عرف بها الألمان .

وناشدتنا الحكومة النرويجية التى كانت تقف منا موقف الفتور أن نعجل بنجدتها . وكان إنقاذ جنوب النرويج أمراً عسيراً علينا إذ أن سائر قواتنا المدربة والكثير من القوات المدربة نصف تدريب قائمة فى فرنسا . وكان كل هم قواتنا الجوية أن تقوى الحملة البريطانية فى فرنسا وأن تدعم الدفاع الداخلى ، وتقوم بأعمال التدريب الواسعة . وكنا فى حاجة إلى عشرة أضعاف ما لدينا من المدافع المضادة للطائرات للدفاع فى جميع الجهات المعرضة للغارات الجوية . ولكننا مع ذلك كنا نشعر بضرورة المساعدة ولو عرضنا سائر استعداداتنا ومصالحنا للخطر . وقد رأينا أن فى استطاعتنا أن نستولى على نارفيك وندافع عنها لمصالح الحلفاء جميعها . ويستطيع ملك النرويج أن يرفع علمه حراً عليها ونستطيع أن نقاتل العدو عند تروندهايم لنمنعه من الزحف إلى الشمال حتى يمكننا أن نستعيد نارفيك ونجعل منها قاعدة لجيشنا . وقد تبين أن من الممكن الاحتفاظ بها وتموينها بطريق البحر . إذا استخدمنا قوة تفوق ما فى مقدور العدو أن يرسله من خمسمائة ميل من المنطقة الجبلية .

وقد وافق مجلس الوزراء على إجراء كل ما يمكن لإنقاذ نارفيك وتروندهايم

والدفاع عنهما ، وكانت هناك قوة مهيأة لذلك وهى القوة التى كانت معدة لفنلندا مضافا إليها ما كنا قد احتفظنا به لمشروع نارفيك من قبل . وكانت هذه القوة تعوزها الطائرات والمدافع المضادة للدبابات والدبابات ووسائل النقل والتدريب . وكانت الثلوج تغطى سائر الأجزاء الشمالية من النرويج إلى ارتفاع لم يتح لجنودنا أن رأوا مثله من قبل . ولم يكن لدى جنودنا أحذية أو زحافات للثلوج . ورغم ذلك فقد كان حتماً علينا أن نعمل ما استطعنا وبدأت الحملة على هذه الصورة .

وقد حاولنا أن ننزل فى نارفيك وتروندهايم وأماكن أخرى وكان تفوق الألمان فى التخطيط والإدارة والحيوية واضحاً . فقد وضعوا لحملتهم خطة دقيقة أتقنوها من قبل كل الإتقان . وأحسنوا استخدام السلاح الجوى على نطاق شامل فى سائر المراحل وفضلا عن ذلك فقد كان تفوقهم الفردى ظاهراً وبخاصة فى المجموعات الصغيرة . وقد استطاعت قوة ألمانية صغيرة غير منظمة لا يزيد عددها على ستة آلاف جندى أن تقف ستة أسابيع أمام عشرين ألف جندى من قوات الحلفاء . وإذا كانوا قد أرغموا على الخروج من المدينة إلا أنهم عاشوا حتى رأوا جنود الحلفاء تخرج منها . وقد بدأ الأسطول من البحر بداية طيبة ولكنه توقف عن العمل لاحجام قائده عن القيام بتلك المخاطرة اليائسة . وقد قسمنا قواتنا بين نارفيك وتروندهايم ، وبهذا التقسيم قضينا على خطتنا بالفشل . وقد تمكن الألمان من هزيمتنا على الرغم من أنهم كان عليهم أن يقطعوا مئات الاميال فى أرض تغطيها الثلوج ، وعلى الرغم من قصص البطولة التى ظهرت فى تلك المعارك . وأمام عدو يتحرك كيف شاء فى مسافات شاسعة مجتازا شتى العقبات والصعاب هزمنا نحن الذين كنا نسيطر على البحار ونستطيع النزول على أى شاطىء .

وقد وضعنا أنفسنا مختارين فى أزمات وسقطات فى النرويج وظننا أن الحظ كان معاكساً لنا وقد خدمنا بالخروج من تلك الأزمات وما كدنا نصل إلى نهاية شهر مايو حتى وجدنا أنفسنا أمام إخلاءات متتالية . وإذا نظرت إلى الدور الذى قمت به فى هذه الأحداث والمصاعب التى واجهتنا وتغلبت عليها ، أو العيوب التى كانت فى قيادتنا وتنظيماتنا . أيقنت أننى نجوت بمعجزة من كل هذه المآزق . واحتفظت

بمركزى أمام الرأى العام وتقديره وثقة البرلمان . وربما كان هذا لأنى قضيت عامين وأنا أتكهن بتلك الاحداث وأوالى التحذيرات والإنذارات التى لم يعبأ بها أحد فى الماضى وإن كان الجميع أصبحوا يذكرونها الآن .

وهاجم الطرادان الألمانيان شارنهورست وجينزناو حاملة طائراتنا جلوريوس فى اليوم الثامن من شهر يونيه فأغرقاها فى أقل من ساعة ونصف ودمرت إحدى المدمرات التى كانت معها وهى اكاستا ولم ينج من بحارتها إلا بحار واحد .

وقد ظهرت حقيقة واحدة لها أهميتها البالغة بالنسبة للحرب . وهى أن الألمان فى المعركة اليائسة أمام الأسطول البريطانى كانوا يدمرون ما لديهم من قطع بحرية فى انتظار المعركة الحاسمة . وقد بلغت خسائر الحلفاء فى القتال الجوى فى النرويج حاملة طائرات واحدة وطرادين وسفينة حربية صغيرة وتسع مدمرات وأصيبت ست طرادات وسفينتان حربيتان وثمانى مدمرات بأضرار يمكن إصلاحها وفى نهاية شهر يونيه وهو تاريخ له أهميته فى سير الحرب كان الأسطول الألمانى لا يزيد على طراد يحمل مدافع من عيار ثمان بوصات وطرادين خفيفين وأربع مدمرات ولم يعد الأسطول الألمانى ذا أهمية فى معركة غزو بريطانيا .

* * *

وقد انتهت قصة هجوم هتلر على النرويج وظهر فى الجو أعظم بعث عسكرى عرفه الإنسان . وقد أوضحت فى فصل سابق ذلك السبات العميق الذى ظلت فيه بريطانيا وفرنسا ثمانية أشهر والعالم ينظر فى ذهول وقد نال الحلفاء من جراء ذلك أضرار جسيمة . ومنذ الوقت الذى تم فيه التفاهم بين ستالين وهتلر . تلقى الشيوعيون الفرنسيون الايحاء من موسكو وأعلنوا « أن الحرب جريمة استعمارية رأسمالية ضد الديمقراطية » وقد عمل الشيوعيون جهدهم للقضاء على الروح المعنوية فى الجيش وعرقلة إنتاج المصانع وقد انحطت الحالة المعنوية فى فرنسا سواء بين الجنود أو الشعب فى شهر مايو بصورة واضحة عما كانت عليه عند بدء الحرب .

ولم يحدث فى بريطانيا شىء من ذلك حيث كانت الدعاية الشيوعية ضعيفة كل الضعف . وكنا مع ذلك نمثل حكومة حزبية وعلى رأسنا رئيس وزراء تنظر إليه

المعارضة بمضاضة ولا يجد تأييدا أو حماسا من الحركة النقابية . ولم يكن لمثل هذا التوسع الوقور المخلص الذى يسير على أنظمة معينة من الادارة أن يستثير أى مجهود حربى ، سواء فى الدوائر الحكومية أو فى المصانع الحربية وهو أمر حيوى بالغ الأهمية . ونحن أشد ما نكون حاجة إلى حفز الهمم والحث على مواجهة الأخطار واستنهاض قوى الشعب ، وكانت الأجراس تؤذن بالخطر .

سقوط الحكومة

كان لحملة النرويج القصيرة وما تبعها من فشل وأخطار أثر بالغ فى النفوس اهتزت له بريطانيا واشتعلت العواطف الهائجة فشملت الجميع حتى أولئك الذين كانوا فى السنوات السابقة للحرب متراخين متوانين . وطلبت المعارضة المناقشة فى الوضع الحربى فتقرر لهذه المناقشة اليوم السابع من شهر مايو وقد امتلأ المجلس بالأعضاء وقد شملتهم سحابة من الغم والغضب ولم يكن لبيان المستر تشمبرلين تأثير فى تهدئة التيار المعارض وقوطع عدة مرات بالهزء والسخرية وذكره بعض الأعضاء بخطابه الذى ألقاه فى الرابع من شهر ابريل وذكر فيه بغير تحفظ : « ان هتلر فاته القطار » وحدد فى خطابه مركزى الجديد وصلاتى برؤساء أركان الحرب وأعلن فى الرد على سؤال ألقاه المستر هيربرت موريسون انى لم أكن أتمتع بالسلطة أثناء حملة النرويج وأخذ الخطباء من الجانبين يهاجمون أعضاء الحكومة واحداً بعد واحد لاسيما رئيسها بشىء من العنف والغضب ووجدوا أنهم يقابلون بهتافات عالية من سائر الجهات . وانتقد السير روجر كييس الذى كان يبغى الظهور فى الحرب الجديدة ، القيادة البحرية وألحى عليها باللائمة لفشلها فى محاولة احتلال ميناء تروندهايم وقال : « إننى عندما رأيت الحالة السيئة التى وصل إليها الموقف لم أتوان عن رجاء الأميرالية ووزارة الحرب بأن يسمحالى بتحمل المسئولية وقيادة الهجوم » وكان يتحدث وهو مرتد الملابس العسكرية كأميرال فى الأسطول . وقد أيد حملة المعارضة بتفاصيل فنية دقيقة واستخدم معلوماته الفنية بطريقة صادفت تجاوباً بين أعضاء المجلس . وقام المستر إيمرى من المقاعد القائمة وراء الحكومة لحزبها يردد ما سبق أن قاله كرومويل للبرلمان فى شىء من الكبرياء : « لقد قضيتم هنا وقتاً طويلا لا يتفق مع النفع الذى رأيناه منكم . وأقول لكم انصرفوا ودعونا نخلص منكم . بالله عليكم أن ترحلوا » وقد قوبلت كلماته بهتافات عالية . وكانت هذه الكلمات الرهيبة صادرة عن صديق وزميل لعدة سنوات ، فضلا عن أنه كان عضواً فى حزبنا عن برمنجهام وعضواً فى مجلس الملك الخاص ذا شخصية بارزة وله خبرة واسعة .

واستمرت المناقشة فى اليوم الثانى أى فى الثامن من شهر مايو على أساس الاقتراع بالتأجيل ولكنها اتجهت إلى نوع من الاقتراع بالثقة . وأعلن المستر هربرت موريسون باسم المعارضة عزمها على طلب الاقتراع بالثقة . وقام رئيس الوزراء للمرة الثانية فقبل التحدى واتجه نحو أصدقائه يطلب منهم أن يقفوا إلى جانبه وقد احتمل هؤلاء الأصدقاء نتيجة أعماله أو اهماله فى الماضى ومن ثم أصبحوا يشتركون معه فى مسئولية تلك السنوات الهزيلة « التى أكل الجراد نباتها » قبل الحرب . ولكن هؤلاء الأصدقاء ظلوا ساكنين خجلين وقد اشترك بعضهم فى المظاهرات العدائية .

وشهد المجلس فى ذلك اليوم للمرة الأخيرة تدخل المستر لويد جورج فى أعماله فألقى خطابا قصيراً لم يستغرق أكثر من عشرين دقيقة أنزل فيه ضربة قاسية على رأس الحكومة . وقد حاول أن يجنبنى هذه الضربة معلنا براءتى حين قال : « لا أظن أن وزير الحربية هو المسئول على الاطلاق عن كل ما حدث فى النرويج » فقاطعته فى الحال وقلت : « إننى لأتحمل المسئولية كاملة عن كل ماقامت به الأميرالية ، وأتحمل نصيبى من العبء على أتمه » وبعد أن حذرنى المستر لويد جورج بأن آوى إلى مخبأ من مخابىء الغارات الجوية يقى زملائى الإصابة بالشظايا التفت إلى المستر تشمبرلين قائلا : « إن الموضوع لا يتعلق بأصدقاء رئيس الوزراء . إن القضية أكبر وأضخم من هذا بكثير . لقد طالبتنا بالتضحية والشعب جميعه مستعد للتضحية إذا رأى القيادة الصالحة وإذا رأى ما ترمى إليه الحكومة حقيقة وإذا تأكد من أن هؤلاء الذين يتولون قيادته يبذلون أقصى ما يستطيعون من جهد » ثم انتهى إلى أن قال : « اننى أعلن بكل جد أن رئيس الوزراء يقدم المثل للشعب على التضحية . فليس أدعى للنصر فى هذه الحرب من أن يضحى بمنصبه » .

وقد وقفنا كوزراء متضامنين فى جبهة واحدة ، وكان وزيرا الحربية والطيران قد ألقيا كلمتيهما . واقترحت أن أختم المناقشة . وكان هذا أمراً لا يخرج عن واجبى لا على سبيل الولاء للرئيس الذى أعمل تحت رئاسته فحسب بل لأهمية الدور الذى قمت به لمساعدة النرويج بقوات غير كافية . وحاولت جهدى أن أقف أمام تيار المعارضة العنيفة والمقاطعات المتوالية ومعظمها كان صادراً من مقاعد العمال . وقمت بهذا الواجب

بحماسة بالغة لأعيد السيطرة على المجلس لصالح الحكومة وأنا أذكر الأخطاء السياسية الانهزامية الخطيرة فى السنوات السابقة للحرب . وكيف اقترعوا قبل نشوب الحرب بأربعة أشهر فحسب ضد التجنيد الإجبارى وقد أحسست أنا وبعض أصدقائى بأننا وحدنا الذين لهم الحق فى توجيه اللوم . أما الآخرون فليس لهم هذا الحق على الاطلاق. وقد رددت عليهم بقوة حين تصدوا لى . وارتفعت الأصوات وزاد الضجيج حتى تعذر على الآخرين أن يسمعوا صوتى . ولكن سرعان ما بدا أن غضبهم لم يكن منصبا على ولكنه كان موجهاً إلى رئيس الوزراء الذى كنت أدافع عنه ما استطعت إلى ذلك سبيلا . فلما انتهيت من خطابى فى الساعة الحادية عشرة أجرى الاقتراع فانقسم المجلس . وقد نالت الحكومة الثقة بأغلبية واحد وثمانين صوتا . على الرغم من أن ثلاثين نائباً محافظاً انضموا إلى المعارضة مع العمال والأحرار . وستين نائباً امتنعوا عن التصويت . وقد اتضح من المناقشة عدم الثقة بالمستر تشمبرلين وحكومته .

وقد طلب إلى الرئيس أن أذهب إلى مكتبه فى المجلس . وأحسست أنه كان ينظر نظرة جدية إلى شعور المجلس نحوه . وأدرك أنه لا يستطيع الاستمرار فى الحكم . ورأى أن من الواجب أن تقوم حكومة قومية . فليس فى مقدور حزب واحد أن يتحمل العبء منفرداً . ولابد من شخص يؤلف هذه الحكومة التى تشترك فيها جميع الأحزاب وكنت قد اهتاجنى النقاش وعلى الرغم من أننى على ثقة من سجلى السابق بالنسبة للمسائل المعروفة فقد كانت لى رغبة فى مواصلة النضال وقلت له «لقد كانت مناقشة قاسية حقا ولكنك فزت بأغلبية طيبة . فلا تتألم ، إن قضيتنا قوية فيما يتعلق بالنرويج . وهى أقوى مما استطعنا أن نعرضه على المجلس . وأرى أن من الواجب عليك أن تقوى حكومتك من سائر النواحى ولنواصل العمل حتى تتخلى عنا الغالبية .

ولكن المستر تشمبرلن لم يقتنع بكلامى ولم ترض نفسه بعد ماصح به من الألم الممض . وغادرته وأنا أحس بأنه قد عقد العزم على أن يضحى بنفسه إذا لزم الأمر ولا يمضى بالحرب بحكومة الحزب الواحد .

ولا أذكر كيف توالت الأحداث صباح اليوم التاسع من شهر مايو ولكنها

وقعت فعلا . فقد كان المستر كنجزلى وود وثيق الصلة برئيس الوزراء كرميل وصديق . وكانا قد عملا معا مدة طويلة فى ثقة ووئام . فعلمت منه أن المستر تشمبرلن كان قد صمم على وجوب تأليف حكومة قومية وإذا لم يتم له هذا الأمر فإنه يتخلى عن رآسة الوزارة لأى شخص آخر يثق فيه . وأحسست بعد ظهر ذلك اليوم بأننى قد أدعى إلى تأليف الوزارة . ولم يستشرنى هذا الأمر واعتقدت أن هذا هو الحل الأفضل وكنت مقتنعا بأننى لابد أن أترك الأمور تسير فى مجراها وقد استدعانى بعد الظهر رئيس الوزراء إلى داونتج ستريت حيث وجدت اللورد هاليفاكس بعد حديث قصير عن الموقف قيل لنا إن المستر اتلى والمستر جرينوود سيصلان بعد دقائق للتشاور معهم . فلما وصلا جلسنا نحن الوزراء الثلاثة إلى جانب وجلس زعيما المعارضة إلى الجانب الآخر وقد بدأ المستر تشمبرلن حديثه مبيناً رأيه بأن لا مناص من تأليف حكومة قومية وود لو يعرف رأى حزب العمال فى العمل تحت رآسته ولكن تبين أن الزعيمين لا يستطيعان أن يبتا فى الأمر برأى قاطع دون استشارة حزبهما . وقد أشارا إلى أن الرد سيكون فى الغالب ردا سلبياً . وانسحب الزعيمان العماليان بعد ذلك . وكان النهار مشرقا فقضيته مع اللورد هاليفاكس فى حديقة المجلس . وتناولنا الحديث فى سائر الأمور . ثم عدت إلى الأميرالية فقضيت المساء وهزيعا من الليل فى أعمال ذات أهمية بالغة .

* * *

وبزغ فجر اليوم العاشر من شهر مايو ومعه أنباء جسام فقد انهالت على الأميرالية ووزارة الحربية والخارجية البرقيات تقول إن الألمان قد ضربوا ضربتهم التى طال انتظارها وغزت جيوشهم هولندا وبلجيكا واجتازت حدودها فى مواضع كثيرة وقد اندفع الجيش الألمانى يغزو الاراضى الواطئة وفرنسا .

وحضر إلى السير كينجزلى وود فى الساعة العاشرة موفداً من عند رئيس الوزراء . وقال لى إن المستر تشمبرلن يشعر الآن بأن المعركة الهائلة التى نخوض غمارها تقضى ببقائه فى منصبه . وقال كينجزلى وود إنه أجابه بأنه يرى عكس ذلك وإن الأزمة الجديدة تدعو إلى ضرورة قيام حكومة قومية لتواجه الأمور . وأضاف أن المستر

تشمبرلن اقتنع أخيراً بوجهة نظره واستدعيت فى الساعة الحادية عشرة مرة ثانية إلى دوننج ستريت لمقابلة رئيس الوزراء ووجدت لديه اللورد هاليفاكس واتخذنا مجلسنا أمام المستر تشمبرلن وقد أبلغنا بأنه أصبح مقتنعاً بعجزه عن تأليف حكومة قومية . فقد تركه زعما حزب العمال وهو موقن بالنتيجة . فمن يستطيع أن يعرض اسمه على الملك لتولى رئاسة الوزارة بعد أن يستقيل . وكان فى مظهره شىء من الفتور والسكينة والبعد عن الناحية الشخصية وهو ينظر إلينا من مقعده على المائدة .

وقد جرت فى حياتى العامة مقابلات كثيرة ذات أهمية بالغة ولا شك أن هذه المقابلة كانت أهمها . وإذا كان من دأبى كثرة الحديث فإننى فى هذا الموقف ظللت ساكناً . ولا شك أن المستر تشمبرلن كان يستعرض فى مخيلته ذلك المظهر العنيف الذى كان فى مجلس العموم منذ ليلتين حين تصديت لنواب العمال فى مناقشة حادة بلغت حد النزاع . وعلى الرغم من أن مناقشتى كانت تأييداً له ودفاعاً عنه فقد أحس بأن وجوده ربما كان عقبة فى سبيل قبولهم لى . ولا أتذكر الكلمات التى فاه بها تماماً ولكنى أدركت منه هذا القصد . ويقول المستر فيلنج مؤرخ حياته « إنه كان يفضل أن يختار اللورد هاليفاكس .

وقد ساد صمت طويل لأنى ظللت ساكنا . ولا شك أن هذه الفترة من الزمن كانت أطول من الدقيقتين المألوفتين اللتين تحتفظ بالصمت فيهما يوم الهدنة ثم تكلمت أخيراً مع اللورد هاليفاكس فقال إن مركزه كلورد خارج مجلس العموم يجعله يشعر بأنه لا يستطيع أن يقوم بواجباته كرئيس للوزراء فى مثل هذه الحرب . إذ أنه سيكون مسئولا عن كل شىء دون أن تكون لديه الوسائل اللازمة لتوجيه المجلس الذى لابد لكل حكومة أن تعتمد على ثقته بها . وقد تحدث بضعة دقائق على هذا النحو ولما انتهى من حديثه تبين أن الواجب سيقع علىّ بل إنه قد وقع على بالفعل . وهنا تحدثت لأول مرة فقلت إننى لا أتصل بأى حزب من المعارضة قبل أن يصدر قرار إلى بتأليف الوزارة . وانتهت مدة المحادثات الخطيرة عند هذا الحد . ثم انتقلنا إلى الحديث فى بعض المسائل المألوفة التى يتحدث فيها أصدقاء عملوا معاً عدة سنوات وعدت إلى الأميرالية حيث كانت — كما يستطيع أن يدرك كل إنسان — تنتظرنى الكثير من المهام .

ووجدت الوزراء الهولنديين فى مكتبى . وقد بدا على وجوههم الوجوم والتعب بعد أن طاروا من استردام . فقد هوجمت بلادهم بغير سبب ندركه ولو كان ضعيفاً ودون أى إنذار وانهار عليهم جبل الجليد ولكن بالنار والحديد فلما بدأت المقاومة وأطلق حرس الحدود نيرانهم انصب عليهم الدمار من الجو . وعمت الفوضى سائر أنحاء البلاد . وقد أسرع الهولنديون بتنفيذ الخطط الدفاعية المعدة منذ زمن طويل وفتحت السدود المائية وسالت مياه البحر إلى مسافات بعيدة ولكن الألمان كانوا قد تجاوزوا الخطوط الخارجية وبدءوا يزحفون على ضفاف الراين ويعبرون الخطوط الدفاعية الداخلية وأصبحوا يهددون قناة الزيدرزى فهل فى مقدورنا أن نصنع شيئاً ؟ ولحسن الحظ أن قافلة بحرية كانت قريبة ، فصدرت إليها الأوامر بالإسراع إلى تلك المنطقة وصب نيرانها عليها لإلحاق الدمار بالغزاة الزاحفين . وكانت الملكة لا تزال فى هولندا ولكنها لن تستطيع البقاء بها طويلا .

وأصدرت الأميرالية الأوامر المتتابعة إلى جميع القطع البحرية والقريبة بأن تتأهب للمعركة وقد قامت علاقات وثيقة بينها وبين الأسطول الهولندى . ولم يكن يستطيع الوزراء الهولنديون على الرغم من التجربة التى حدثت فى النرويج والدنمارك إلا أن يتصوروا حتى الليلة السابقة كيف يقوم الألمان الذين كانوا يتظاهرون بالصداقة والثقة بهذا الهجوم الوحشى بين عشية وضحاها . وقد انهالت علينا البرقيات من سائر الأنحاء التى تعرضت للهجوم الساحق الذى قام به الألمان .

وانضح لنا أن خطة « شليفن » القديمة أصبحت رهن التنفيذ وكانت تضع هولندا فى نطاقها . وكانت خطة الغزو الألمانى سنة ١٩١٤ قد اجتاحت بلجيكا ولكنها لم تدخل هولندا . وكان من الواضح أن الحرب إذا تأخرت ثلاث سنوات أو أربع فإن جيوشاً ستكون قد أعدت لاكتساح هولندا بعد أن تمد طرق المواصلات والخطوط الحديدية الضرورية لذلك . ولكن هذه الخطة المعروفة قد نفذت هذه المرة كاملة . وقد بدأ الهجوم بعد أن أعد له كل ما يمكن لجعله ميسرا مع الظروف المفاجئة والخداع . ولم يكن هذا كل ما فى الأمر ، فالضربة الرئيسية للعدو لن تكون فى حركة التفاف حول الجناح ولكن فى اختراق الجبهة الرئيسية . ولم نكن نحن

أو الفرنسيون نتوقع أن تسير الأمور إلى هذا الحد وإن كنت قد حذرت فى اجتماع صحفى ، هذه الدول المحايدة من العاقبة التى تنتظرها . وكانت ظاهرة فى تنقلات الجيوش واعداد طرق المواصلات والخطط الألمانية التى وقعت فى أيدينا . إلا أن هذه الدول تبرمت بأقوالى وقابلتها بالسخط .

وفى خلال هذه المعركة الرهيبة كانت الأحاديث الهادئة التى كانت تجرى فى دوننج ستريت تسير القهقرى ومع ذلك فقد نقل إلى أن المستر تشمبرلن قد ذهب فى طريقه لمقابلة الملك وكان هذا متوقعا وفى الساعة السادسة وصلت رسالة تدعونى إلى القصر وقد صدرت الصحف ملأى بالأخبار المفزعة التى نقلت إليها من أنحاء القارة إلا أنها لم تذكر شيئاً عن الأزمة الوزارية ولم يتسع الوقت للجمهور لمتابعة الأنباء فى الداخل والخارج لذلك لم تكن هناك جموع محتشدة على أبواب القصر .

وأذن لى بالمثول أمام الملك فاستقبلنى جلالته ببشاشة ولطف بالغين وأمرنى بالجلوس فجلست وأخذ ينظر إلى بعينين متفحصتين ثم قال لى : « أظنك لا تدرى لماذا استدعيتك » وجاريته فى طريقته فقلت « لا يمكننى أن أدرك ذلك بيسر » فابتسم ثم قال « أريد أن أطلب إليك تأليف الوزارة » فقلت « إننى ألبى الأمر طائعاً » .

ولم يشترط الملك شيئاً فيما يتعلق بنوع الحكومة وقوميتها وقد أحسست أن تكليفى بتأليف الوزارة غير مشروط بحكومة قوية ولكن الظروف التى تقدمت وأدت إلى استقالة المستر تشمبرلن تدعو إلى قيام حكومة قومية وكان هذا هو الطريق الأمثل للوضع القائم . إلا أننى من الناحية الدستورية لن أكون ممنوعا من تأليف أقوى حكومة تضم كل من له استعداد للوقوف إلى جانب بلادهم فى هذه الظروف الحرجة على أن تنال تأييد الأكثرية فى مجلس العموم وقد أبلغت جلالته أننى سأستدعى زعماء حزبى العمال والأحرار وقد عزمت على تأليف وزارة الحرب من خمسة وزراء أو ستة وأرجو أن أقدم له خمسة أسماء على الأقل قبل منتصف الليل واستأذنت للانصراف وعدت إلى الأميرالية .

ودعوت المستر أتلى فجاء ومعه مستر جرينوود فأبلغته تكليف الملك لى بتأليف

الوزارة وسألته عما إذا كان حزب العمال يرغب فى الاشتراك فيها، فأجاب بأن الحزب سيشترك واقترحت أن يكون للحزب أكثر من ثلث المقاعد الوزارية ويكون له مقعدان من مجموع الخمسة أو الستة مقاعد المخصصة لوزارة الحرب وطلبت إليه أن يمد قائمة بأسماء الوزراء الذين يريدهم واقترحت أن تشمل الأسماء المستر أرنست بيفن والمستر الكسندر والمستر موريسون والمستر دالتون لحاجة البلاد إلى خدماتهم فى المناصب ذات المسئولية وكنت بطبيعة الحال أعرف إتلى وجرينوود منذ أمد فى مجلس العموم ففى إبان السنوات العشر التى سبقت الحرب كنت كثيراً ما أتصدى للحكومات المحافظة والقومية أكثر من المعارضة العمالية أو معارضة الأحرار. ودار بيننا حديث ممتع، ثم انصرفا ليتقلا الأنباء تليفونيا إلى أصدقائهما وأتباعهما فى بورنماوث وكانوا على اتصال بهم مدى الثمانى والأربعين ساعة التى تقدمت.

ودعوت المستر تشمبرلن تليفونيا ليتولى رآسة مجلس العموم فرد بالايجاب، وقد اتفقنا على أن يذيع على الشعب بيانا يعلن فيه استقالته ويدعو إلى الالتفاف حول خلفه وتأييده. وقد قام بذلك بصورة رائعة طيبة ودعوت اللورد هاليفاكس إلى الاشتراك فى وزارة الحرب فوق منصبه كوزير للخارجية وفى الساعة العاشرة بعثت إلى الملك بيانا بخمسة أسماء تنفيذا لوعدى السابق. ولم تزل أمامى مهمة كبيرة وهى اختيار وزراء القوات المسلحة وكنت قد قررتهم فى نفسى ورأيت أن يتولى المستر ايدن وزارة الحربية والمستر الكسندر وزارة البحرية والسير ارشيبالد سنكلير زعيم حزب الاحرار وزارة الطيران وفى نفس الوقت قررت أن أتولى بنفسى وزارة الدفاع دون أن أحدد مالها من سلطات.

وفى اليوم العاشر من شهر مايو وفى بداية المعركة الشديدة تسلمت زمام السلطة الذى ظللت محتفظا به بقوة وعزم خمس سنوات وثلاثة أشهر من الحرب العالمية التى تم فى نهايتها استسلام سائر أعدائنا بلا قيد أو شرط أو كانوا على وشك الاستسلام ثم ابعدنى الناخب البريطانى بعد انتهائها وتسلم الزمام.

وكنت فى هذه الايام الحافلة بالاعمال من جراء الأزمة الوزارية محتفظا بهدوئى وسكينتى دائما وكنت أتقبل الأمور حسب الأمر الواقع ولكننى لا أخفى عن القراء

أنني عندما كنت آوى إلى فراشي في الساعة الثالثة من الصباح كنت أشعر بالراحة والاطمئنان فقد وكل إلى زمام الأمور وأصبح من حقي أن أصدر التوجيهات في الأمر كله وشعرت بأنني أمشي مع القدر وأن حياتي الماضية كلها لم تكن إلا استعدادا لهذه اللحظة . وكانت السنوات العشر الأخيرة التي قضيتها في خضم السياسة وغياهبها قد أخلتني من العداوات الحزبية المألوفة . وكانت التحذيرات التي وجهتها في السنوات الست الأخيرة كثيرة وتفاصيلها واسعة وكانت قد اتضحت بصورة رهيبة لا يستطيع أن ينكرها إنسان أو يكذبني فيها . وليس لأحد أن يلومني بدعوى أنني السبب للحرب أو أنني المسئول عن التأخر في الاستعداد لها وقد رأيت أنني أعرف الكثير من شئونها وأنني لن أفشل :

وقد كنت على لهفتي للصباح أنام نوما عميقا لا أصبو فيه إلى أحلام ، فالحقائق خير من الأحلام .

وحدنا فى الميدان

من ١٠ مايو سنة ١٩٤٠ إلى ٢٢ يونية سنة ١٩٤١

حكومة الائتلاف القومى

ثارت علينا العاصفة التى تجمعت وئيدا ، تهاجمنا بكل ما لديها من قوة والتق وجها لوجه أربعة ملايين أو خمسة فى أول حرب مدمرة من الحروب التى لا ترحم والتى لم يسبق لها مثيل فى تاريخ العالم وفى خلال أسبوع كانت الجبهة الفرنسية التى عرفنا الركود وراءها فى السنوات الشاقة فى الحرب الماضية وفى المرحلة الأولى من هذه الحرب قد انهارت بصورة لا يمكن إصلاحها . وقد قدر للجيش الفرنسى ذى الشهرة القديمة أن يتحطم فى مدى ثلاثة أسابيع وتحل به الهزيمة ويزج بجيشنا البريطانى الذى لا تملك سواه إلى البحر بعد أن فقد كل ما لديه من عتاد وفى ثلاثة أسابيع وجدنا أنفسنا وحيدين فى الميدان بغير سلاح وقد أمسكت ألمانيا وإيطاليا المنتصرتان بخناقنا وأصبحت أوروبا بأسرها متفتحة أمام هتلر ووقفت اليابان تنظر بعينين متلهفتين فى الجانب الآخر من الكرة الأرضية وقد تسلمت أعمالى كرئيس للوزراء ووزير للدفاع فى خضم هذه الحقائق والاحتمالات وأخذت أقوم بمهمتى الأولى وهى تأليف حكومة من جميع الأحزاب تقوم بتصريف الأمور فى الداخل والخارج بأحسن الطرق لتحقيق المصلحة العامة فى البلاد .

ولعل من المفيد هنا أن نلقى ببصرنا قدما إلى خمس سنوات أخرى لنرى كيف واتت الظروف . كانت إيطاليا قد أصبحت تحت السيطرة وموسولينى فى الأموات وكان الجيش الألمانى قد استسلم دون قيد أو شرط وانتحر هتلر وقد وقع فى أيدينا من الأسرى ثلاثة ملايين جندى ألمانى فى أربع وعشرين ساعة على أيدى الماريشال اليكساندر فى إيطاليا والماريشال مونتجومرى فى ألمانيا بالإضافة إلى ما وقعت عليه أيدى الجنرال إيزنهاور وقد تحررت فرنسا واتحدت وانتعشت ووقفنا جنبا إلى جنب مع حليفتينا وهما أقوى أمبراطوريتين فى العالم نسير إلى الأمام للقضاء على المقاومة اليابانية ولا شك أن هذه المفارقة واضحة فقد كانت الطريق التى قطعناها فى هذه السنوات الخمس شاقة كثيرة الأخطار والمزالق . ولم تذهب الأرواح التى

قضت فيها بلاجدوى وسيفخر الذين اجتازوها إلى النهاية بأنهم اجتازوها بعزة وإباء .

ولعل من الواجب على وأنا أتحدث عن الحكومة القومية الائتلافية التى ألفتها أن أوضح مدى إسهام بريطانيا العظمى وإمبراطوريتها اللتين تقوى عرا اتحادها وقت الأزمات فأقول ولا أقصد أن أقيم مقارنات تثير النفور أو المنافسات ضد حليفتنا الولايات المتحدة التى ندين لها بالكثير مما لا يدركه العدد إنه كانت لبريطانيا وإمبراطوريتها قوات تربو كثيراً على قوات الولايات المتحدة ، فى اشتباك مع العدو غير ما كان لها فى آسيا ضد اليابان وعندما وصلت قوات الجيش الأمريكى الكبيرة العدد إلى نورماندیا فی خریف سنة ١٩٤٤ كان لنا أن نتحدث كأنداد أو كشركاء لنا النصيب الأوفى ، فى كل ميدان من ميادين الحرب عن المحيط الهادى واستراليا . وقد صح هذا القول حتى ذلك التاريخ فى مدى الشهور المتتالية فى هذه المدة . ولكن بعد شهر يولية سنة ١٩٤٤ تفوقت الولايات المتحدة فى عدد الفرق المشتبكة مع العدو وظل هذا التفوق حتى تم النصر النهائى بعد عشرة أشهر :

ومن مقارنة أخرى قمت بها يتضح أن التضحيات التى قدمتها قواتنا وقوات إمبراطوريتنا كانت أكثر منها عند حليفتنا الباسلة فقد بلغ عدد القتلى من البريطانيين والمفقودين الذين يعدون فى حكم الأموات ما يقرب من ٣٠٣٫٢٤٠ ومن الدومنيون والهند والمستعمرات ١٠٩٫٠٠٠ ويصل المجموع إلى ٤١٢٫٢٤٠ غير ٦٠٫٥٠٠ من المدنيين الذين قضوا فى الغارات الجوية على المملكة المتحدة وخسائر الاسطول التجارى والصيادين وقد بلغت ثلاثين ألفاً . ويقدر الامريكيون خسائرهم فى الجيش والقوة الجوية والبحرية وحرس السواحل ب ٣٢٢٫١٨٨ وهذه أرقام استخلصتها من سجل الشرف وأنا مؤمن بأن روح الالفة والزمالة المشتركة التى وطدتها هذه التضحيات الغالية بالدماء الطاهرة ستظل موضع تقدير العالم الناطق باللغة الانكليزية .

أما فى البحار فلا شك أن الولايات المتحدة قد حملت عبء الحرب فى المحيط الهادى . وقد حققت لها المعارك التى قامت قرب جزر ميداوى وفى بحر المرجان سنة ١٩٤٢ النجاح وأعطتها الزمام فى ذلك المحيط المترامى الأطراف وفتحت لها

الأبواب فى هجماتها على الأراضى التى احتلتها اليابان وعلى اليابان نفسها . ولم يكن فى مقدور الأسطول الأمريكى أن يتحمل كذلك العبء فى الاطلنطى والبحر الأبيض المتوسط ومن واجبى هنا أن أضع الحقائق فى موضعها ، فقد كانت البحرية البريطانية هى التى أغرقت ٥٩٤ غواصة من ٧٨١ غواصة ألمانية و٨٥ غواصة إيطالية أغرقت فى البحار الأوربية والمحيطين الاطلنطى والهندى . كما أن بريطانيا هى التى أغرقت وعطلت سائر البوارج والطرادات والمدمرات الالمانية مع تدميرها وأسرها الأسطول الإيطالى جميعه .

وهنا بيان بخسائر الغواصات :

القوة المدمرة	المـانية	إيطالية	يابانية
بريطانية	٥٢٥	٦٩	٩ ونصف
أمريكية	١٧٤	٥	١١٠ »
قوات أخرى وأسباب مجهولة	٨٢	١١	١١
المجمـــوع	٧٨١	٨٥	١٣٠

فيكون مجموع الغواصات التى دمرت ٩٩٦ .

* * *

وقد كانت للولايات المتحدة جهود كبيرة فى معركة القتال الفعلية بقلاعها الطائرة على نطاق واسع من اللحظات الأولى بعد ميناء اللؤلؤ وقد استخدمت هذه القوات ضد اليابان وضد ألمانيا من قواعدها بالجزر البريطانية . وعلى الرغم من ذلك فعندما وصلنا إلى الدار البيضاء فى يناير سنة ١٩٤٣ لم تكن طائرة أمريكية واحدة قد قامت بغارة نهارية واحدة على ألمانيا وكان من المنظور أن يبدو أثر الجهود التى كانت الولايات المتحدة بصدد بذلها ولكن حتى نهاية سنة ١٩٤٣ كان مجموع ما قذفته الطائرات البريطانية من القنابل على ألمانيا يزيد على ثمانية أضعاف ما ألقته الطائرات الأمريكية نهاراً وليلا على السواء ولم ترجح كفة الولايات المتحدة إلا فى ربيع سنة ١٩٤٤ . كذا قد دفعنا بسائر قواتنا فى البداية ولم تستطع الولايات المتحدة أن تلحق بنا أو تفوقنا إلا فى سنة ١٩٤٤ بمجهودها الحربى الكبير .

ولابد لنا أن نذكر أنه بفضل الولايات المتحدة زاد عتادنا الحربى بمقدار الخمس نتيجة لمشروع الإعارة والتأجير الذى طبق فى يناير سنة ١٩٤١ وكان فى مقدورنا بفضل الأسلحة والمعدات التى منحتنا إياها الأمريكيون أن نخوض غمار الحرب وكأننا شعب يبلغ ثمانية وخمسين مليونا لا ثمانية وأربعين وقد تدفقت المؤن إلينا من الأطلنطى واستمر تدفقها بفضل إنتاج سفن الحرية التى تم انتاجها على نطاق عجيب . ومن واجبى هنا أن أذكر خسائرنا الملاحية بسبب أعمال العدو طوال مدة الحرب وهذا بيانها بالأرقام :

الجنسية	بالأطنان	النسبة المئوية
بريطانية	١١,٣٥٧,٠٠٠	٥٤
أمريكية	٣,٣٣٤,٠٠٠	١٦
جنسيات أخرى	٦,٥٠٣,٠٠٠	٣٠
المجموع	٢١,١٩٤,٠٠٠	١٠٠

وكان ٨٠ فى المائة من الخسائر فى نطاق المحيط الأطلنطى تدخل ضمن مياه بريطانيا الساحلية وبحر الشمال أما فى المحيط الهادى فلم تكن أكثر من خمسين فى المائة .

وقد أوردت هذه الأعداد على سبيل إقامة الدليل بالأرقام على وجوب التقدير والاحترام العادلين للجهود الكبيرة التى بذلها شعب هذه الجزر الصغيرة حين ألقيت على كاهله أعباء تلك الحرب التى هى أعظم حرب عرفها التاريخ ولا نزعم لأنفسنا فيها فضلا لم نكن أهلا له .

* * *

لعل من الأسهل تأليف وزارة — لا سيما إذا كانت ائتلافية أثناء خوض غمار المعركة ، من أى وقت آخر من أوقات الهدوء والراحة . ففى هذه الأوقات يكون الإحساس بالواجب غالباً على كل شىء سواه حيث تختفى النوازع والأهواء فمنذ أن تم الترتيب الأساسى مع زعماء الأحزاب بموافقة أحزابهم أصبح كل من استدعيتهم يقفون وكأنهم الجنود فى معركة القتال . وينتقلون إلى المراكز التى عينتها لهم

بغير تردد . وإذ كان النظام الحزبى عندنا ثابت الأركان فقد بدا لى أننى لن أواجه مشكلة الأوضاع الشخصية عند كل من قررت أن أدعوهم من السادة المختصين . وإذا كان بعضهم قد تردد فلاعتبارات عامة . وهذا المسلك المظيم ينطبق كذلك على العدد الكبير من الوزراء المحافظين والأحرار القوميين ، الذين اضطروا إلى ترك مناصبهم باستقالة رئيسهم واعتزال حياتهم الرسمية فى مثل هذه الظروف البالغة أقصى ما يمكن من الأهمية والحماس

وكانت للمحافظين أغلبية تزيد على المائة والعشرين مقعدا بالنسبة إلى عدد مقاعد الأحزاب جميعاً . وكان المستر تشمبرلن هو الزعيم الذى اختاروه . وكان لا بد لى أن أقدر أن إلغائى لزعامته ستقابل باستياء عند الكثيرين منهم لا سيما وقد قضيت السنوات الطويلة أنقده وأوجه إليه اللوم الشديد فى بعض الأحيان . ولا شك أن الكثيرين منهم كانوا يعرفون أننى قضيت حياتى فى احتكاك معه يبلغ حد الصراع البارز مع حزب المحافظين . وأننى تخليت عنهم فى موضوع حرية التجارة ثم عدت إليهم كوزير للمالية . وكنت بعد ذلك خصما لهم فى موضوع الهند والسياسة الخارجية والحاجة إلى الاستعداد للحرب . وكان من العسير عليهم أن يرضوا بى رئيساً للوزراء فضلا عن أن الولاء لرئيس الحزب المختار من الظواهر المعروفة لدى المحافظين . وإذا كانوا قد قصروا فى واجبهم الوطنى فى بعض المسائل فى السنوات السابقة للحرب ، فقد كان هذا ناشئا لولائهم للرئيس المختار . إلا أن هذه الاعتبارات جميعا لم يكن لها أثر فى نفسى ، فقد كنت أدرك أنهم جميعهم انساقوا فى هذا التيار .

وقد عرضت أول الأمر على المستر تشمبرلن رآسة مجلس العموم وقبل هذا العرض كما عرضت عليه رآسة مجلس الملك الخاص ولم ينشر شىء من ذلك إلا أن المستر إتلى قال إن حزب العمال سيجد صعوبة فى العمل وفق هذا النظام ففى حالة قيام وزارة ائتلافية يجب أن تكون رآسة المجلس مقبولة من سائر الأحزاب . وعرضت هذا الأمر على المستر تشمبرلن فقبل عن رضا أن يتخلى عن رآسة المجلس فتوليتها بنفسى وقد احتفظت بها حتى شهر فبراير سنة ١٩٤٢ وفى خلال تلك الفترة كان المستر إتلى ينوب عنى و قوم بالأعمال اليومية المألوفة . وكانت لخبرته الطويلة فى المعارضة جدواها

ولم أكن أقوم بالرآسة إلا فى الحالة البالغة حد الأهمية القصوى وإن كانت هذه الحالات تتكرر كثيراً .

وقد شعر كثير من المحافظين بأن زعيمهم قد أسىء إليه إلا أنهم جميعا أعجبوا بحسن مسلكه . وفى اليوم الأول لدخوله المجلس فى وضعه الجديد فى اليوم الثالث عشر من شهر مايو قام نواب حزبه جميعا وتتألف منهم الغالبية الكبرى بالمجلس واستقبلوه بظاهرة حماسية عظيمة تدل على العطف والاجلال وكانت الهتافات والتحيات الموجهة لى تنبعث من مقاعد العمال . ولكن الولاء للمستر تشمبرلن وتأييده كانا قويين ثابتين . وكنت أنا كامل الثقة بنفسى .

وقد لاقيت ضغطاً شديداً من صفوف العمال وبعض الشخصيات البارزة المتحمسة التى لم تشترك فى الحكومة الجديدة لتطهير «المذنبين» والوزراء الذين كانوا مسئولين عن ميونخ أو الذين قصروا فى استعداداتنا الحربية . ولكن الوقت لم يكن مناسباً لحرماننا من رجال أكفاء مخلصين يمتازون بخدمتهم الطويلة فى المناصب الوزارية . ولو خضعت لهذا الضغط الذى بلغ حد اللوم لكان على أن أخرج ثلث الوزراء المحافظين وإعلمى بأن المستر تشمبرلن هو زعيم المحافظين فقد تبين لى أن مثل هذا العمل سيقضى على الوحدة القومية فضلا عن أنى لا أرى اللوم يقع على جهة واحدة وإذا كانت المسئولية الرسمية تقع على حكومة ذلك الوقت فإن المسئولية الأدبية تتناول عدداً أكبر من الشخصيات . وكنت لا أزال أذكر سلسلة طويلة من أقوال الوزراء العمال والأحرار واقتراحاتهم وقد أثبتت الأحوال خطأها وحماقتها ولهذا فقد عارضت هذه النوازع . وقلت بعد بضعة أسابيع : « إذا كان الحاضر سيقف موقف القاضى من الماضى فإنه سيضيع المستقبل » . وقد كانت حجتى مع ما نواجه من أحداث الساعة قاضية على هذه الاعتراضات جميعا .

* * *

وكانت أوضاعى فى هذه الأيام الأولى بالغة حد الغرابة . فقد كان علينا أن نعيش فى المعركة التى تركزت عليها سائر أفكارنا . وكان على أن أصرف وقتى فى تأليف الحكومة ومقابلة السادة الذين لا بد لى أن أقابلهم وأن أحفظ التوازن بين الأحزاب

ولا أستطيع أن أوضح كيف كنت أقضي هذه الساعات . وكانت الوزارة البريطانية تضم مايقرب من ستين أو سبعين وزيراً من وزراء التاج وكان على أن أضع كل إنسان فى موضعه المناسب مع النظر إلى مصالح الأحزاب الثلاثة ومطالبها . ولم يكن على أن أقابل كبار الشخصيات التى ستشترك فى الوزارة فحسب بل على أن أقابل الكثير من الرجال ذوى الكفاية الذين يختارون لشتى المناصب ولو كانت مقابلاتى تستغرق دقائق معدودات وعلى رئيس الوزراء أن يعنى برغبات زعماء الأحزاب فى الأشخاص الذين يختارون من أحزابهم لشغل المناصب الوزارية وقد سرت وفق هذا المبدأ وتقيدت به . وإذا كنت قد تجاوزت عن عدد من المستحقين للوزارة بناء على رغبات سلطاتهم الحزبية فإنى لآسف لذلك أشد الأسف ومهما يكن الأمر فإن الصعوبات التى وجدتها لم تكن كثيرة

وقد وجدت فى كليمنت إتلى زميلا له خبرة حربية كبيرة وتجارب فى أعمال مجلس العموم . وكان كل ما بيننا من خلاف فى وجهات النظر يتعلق بالمبادىء الاشتراكية ولكن هذه الخلافات قد أذابتها الحرب التى تقضى على الفرد بالخضوع للدولة خضوعا تاماً . وقد اشتركنا فى العمل معاً بيسر وثقة طوال مدة الحكومة وكان المستر أرثر جرينوود مستشاراً شجاعاً سديد الرأى وكان كذلك صديقاً عظيما نافعا .

ورأى السير أرشيبلد سنكلار وهو الزعيم الرسمى لحزب الأحرار من العسير عليه أن يقبل منصب وزير الطيران ، ويصر أتباعه على أن يكون له مقعد فى وزارة الحرب ولكن هذا لم يكن يتفق ووضع وزارة الحرب الذى يقضى بأن تكون فى أصغر نطاق . لهذا فقد رأيت أن ينضم إلى وزارة الحرب إذا كان الأمر يتعلق بالقضايا السياسية الرئيسية أو ائتلاف الأحزاب . وكان أرشيبلد صديقى كما أنه كان زميلى حين كنت أتولى قيادة فريق الرماة الملكى الاسكتلندى السادس سنة ١٩١٦ . وكانت نفسه تميل إلى التقدم فى ميدان العمل الذى خصصته له . وقد حلت هذه المشكلة بطريقة ودية بعد مباحثات طويلة . أما المستر أرنست بيفن الذى كنت قد تعرفت إليه فى بداية الحرب عندما حاولت تخفيف بعض مطالب الاميرالية .

فقد طلب الرجوع إلى الاتحاد العام للعمال والنقل المشترك الذى كان يقوم بأمانة سره قبل أن يقبل منصبه الهام كوزير للعمل . وقد دامت هـذه الاستشارة يومين أو ثلاثة ولـكنها كانت تستحق كل هذا التأخير . إذ أن الاتحاد وهو أكبر اتحاد من نوعه فى بريطانيا ، أعلن موافقته بالإجماع على قراره باشراكه فى الحـكم وظل هذا القرار قائماً وقوياً مدى خمس سنوات .

وكانت هناك صعوبة كبرى بشأن اللورد بيفربروك . فقد كنت أعتقد أنه يستطيع أن يقوم بخدمات كبيرة للقضية المشتركة وكنت بعد تجاربى السابقة فى الحرب الماضية قد صممت على أن أفصل إنتاج الطائرات وتخطيطها عن وزارة الطيران وطلبت منه أن يكون وزيراً لإنتاج الطائرات . واتضح لى بادىء الأمر أنه متردد لإدراك ما لهذا المنصب من أهمية كما أن وزارة الطيران لم تـكن لها الرغبة فى فصل هذا الفرع الهام من أعمالها . وكانت هناك جهات أخرى تعارض فى تعيينه . ولـكننى كنت اعتقدت عن ثقة أن حياتنا تتركز على استمرار إنتاج الطائرات وكنت بحاجة إلى حيويته الـكبرى وشدة حماسته ومن ثم تمسكت بوجهة نظرى .

وكان من المحتم مراعاة للرأى العـام والبرلمان والصحافة أن تقوم وزارة الحرب فى أضيق الحدود . لهذا بدأت وزارة الحرب بخمسة وزراء فحسب . وكان هؤلاء الخمسة أبرز ساسة العصر . وكان من الضرورى لإدارة دفة الحرب أن يحضر وزير المالية وزعيم حزب الأحرار اجتماعات الوزارة غالباً وبمرور الزمن ازداد عدد «الحاضرين المداومين » إلا أن المسئولية جميعها كانت تقع على الخمسة الوزراء . ولو قدر علينا أن نخسر الحرب فقد كان حقاً أن تقطع رءوس هؤلاء الخمسة فحسب على أبراج قلعة لندن . وكان على الشعب أن يكتفى بلوم الآخرين على ما يكون من التقصير فى شئون وزاراتهم ولا يستطيع أن يوجه إليهم أى لوم فيما يكون من ضعف فى سياسة الدولة . ويستطيع أى وزير عدا وزراء الحرب أن يقول لا يمكننى أن أتحمل مسئولية هذا العمل أو ذاك » ، إذ أن عبء السياسة كان يقع على مستوى رفيع . وقد كان لهذا النظام شأنه فى إزالة القلق من نفوس الـكثيرين فى الأيام التى قدر لنا أن نواجهها .

لقد تقلدت فى حياتى السياسية الطويلة كثيراً من المناصب الهامة فى الدولة .

ولـكننى أقر أن المنصب الذى ألقيت على أعباؤه الآن كان أحبها إلىّ . ولاشك أن فرض السلطة على الآخرين أو إضافتها إلى عظمتك أمر له ما يبرره . أما معرفة الإنسان ما يجب أن يؤديه فى الأزمات القومية . فنعمة من نعم الله فليس ثمة من وجه للمقارنة فى ميادين العمل على اختلافها بين الذين يتقلدون المنصب الأول وبين غيرهم ممن يحتلون المراكز الثانية أو الثالثة أو الرابعة وقد تـكون الواجبات والمشاكل الملقاة على عاتق هؤلاء مختلفة عن واجبات الأوائل ومشاكلهم وأكثر صعوبة . وقد يكون لسوء الحظ أن يعهد إلى الشخص الثانى أو الثالث فى المرتبة بوضع سياسة أو خطة ذات مسئولية كبيرة فعليه فى هذه الحال أن لا ينظر إلى اتفاق الخطة فحسب ، بل إلى آراء رئيسه كذلك وأن لا ينظر بعين الاعتبار إلى ما سيقدمه من ارشادات فحسب بل لابد له أن يراعى ما يجدر به أن يقدمه كنصيحة أيضاً . وأن لا يدرس ما يجب عليه أن يعمل بل كذلك ما يمكن أن يقبل ويكاف بتنفيذه . وفضلا عن ذلك فإن الشخص الثانى أو الثالث فى المرتبة يجد نفسه مضطراً أن يحسب حساب الرابع والخامس والسادس أو حساب رجل بارز الشخصية وإن كان فى الصف العشرين فالطموح يتألق فى كل خاطر لا رغبة فى الأغراض الوضيعة بل رغبة فى طلب الشهرة . وأذكر أننى فى سنة ١٩١٥ انهار موقفى بصفة مؤقتة فى موضوع الدردنيل . وعدل عن مشروع كبير كنت قد أردته وما ذلك إلا لأننى حاولت من منصب ثانوى أن أنفذ عملية من عمليات الحرب الكبرى . وإنى لأنصح غيرى بأن لا يقوم بمثل هذه المغامرات . فقد كانت لى عبرة مما وقع لى وقد صارت جزءاً لا يتجزأ من حياتى .

ولـكن الأمر بالنسبة لمن يقف موقف القيادة فإنه أكثر تيسيرا وحسب القائد أن يكون على ثقة بأن ما قرره هو خير ما يعمل ويكفى أن يكون قد صمم على أمر من الأمور .

وأوجه الوفاء لصاحب المنصب الأول كثيرة فإذا سافر وجد من يخلفه وإذا أخطأ وجد من يدارى خطأه . وإذا نام يجب أن لا يوقظ من نومه لأمر بسيط . وإذا كان غير صالح قتل وإن كان هذا لا يحدث كل يوم لاسيما فى الأيام الأولى من القيادة .

وكانت التغييرات الرئيسية فى جهاز إدارة دفة الحرب أكثر فى حقيقتها مما يبدو فى ظاهرها وقديماً قال نابليون « يجب أن يكون الدستور قصيراً وغامضاً » . أما الأجهزة القائمة فظلت على حالها كما لم يحدث أى تغيير فى الشخصيات الرسمية . وقد واصلت وزارة الحرب ولجنة رؤساء أركان الحرب أول الأمر عقد اجتماعاتها اليومية كما كان يحدث من قبل . وعند ما أطلقت على نفسى لقب وزير الدفاع بموافقة الملك لم أكن قد أحدثت أى تغيير قانونى أو دستورى . وقد كنت حريصاً على عدم تحديد حقوق وواجباتى ولم أطلب لنفسى أية سلطة خاصة لا من التاج ولا من البرلمان . ولكن كان من المعروف والمقبول أننى سأدير دفة الأمور وأتولى التوجيه العام لشئون الحرب مع شرطه معتمداً على تأييد وزارة الحرب ومجلس العموم وكل ما كان من تغيير عند ما توليت الحكم هو أن لجنة رؤساء أركان الحرب أصبحت تحت رآسة وزير للدفاع يتمتع بسلطات غير محدودة أو خاضعة للتوجيه . ولما كان هذا الوزير هو فى الوقت نفسه رئيس الوزراء فقد كان يتمتع بجميع السلطات التى تخولها له الرآسة . ومنها حق اختيار الموظفين وإقالتهم وتنحيتهم سواء أكانوا سياسيين أو عسكريين . وهكذا أصبحت للجنة رؤساء أركان الحرب سلطتها ومركزها الذى يخول لها الاتصال مباشرة برئيس الحكومة . وأصبح لها بالاتفاق معه حق تسيير شئون الحرب وتوجيه القوات المسلحة .

وإذا كان وزراء البحرية والحربية والطيران ليسوا أعضاء فى وزارة الحرب ، كما أنهم لا يحضرون اجتماعات لجنة رؤساء أركان الحرب فقد تأثرت مراكزهم عملا إن لم يكن مظهراً وظلوا مسئولين عن وزاراتهم مسئولية كاملة . ولكنهم فقدوا مسئولياتهم عن وضع الخطط الاستراتيجية وادارة العمليات الحربية من يوم لآخر فهذه المسائل تقرر فى لجنة رؤساء أركان الحرب التي تعمل برآسة وزير الدفاع ورئيس الوزراء وهو الذى يتولى فى نفس الوقت رآسة وزارة الحرب . وقد كان موقف وزراء الحرب الذين اخترتهم من أصدقائى الأكثر كفاية وإخلاصا موقفاً كريما . فلم يعيروا المظاهر أهمية تذكر وعملوا بجد على تنظيم القوات المسلحة التى زاد عددها وادارتها . وبذلوا كل ما فى وسعهم على الطريقة الانجليزية العملية

البسيطة وكانت عضويتهم فى لجنة الدفاع تجعلهم على علم بكل ما يحدث وكان يسمح لهم بالحضور عندى فى أى وقت . وكان المحترفون من مساعديهم إلى رؤساء أركان الحرب يبحثون معهم سائر الأمور ويعاملونهم بالاحترام والتقدير وإن كان هناك توجيه كامل لإدارة دفة الحرب . وقد قبلوا هذا التوجيه باخلاص تام . ولم يمض من سلطتهم . وكان لكل إنسان أن يعبر عن رأيه بحرية على الدوام . وسرعان ما تحولت الإدارة الفعلية للحرب إلى أيد قليلة . وقد تيسر كل ما كان متعذراً من قبل إلا شيء واحد هو هتلر ومع الأحداث المتقلبة والكوارث التى كنا نواجهها فقد ظل العمل يسير بطريقة آلية منتظمة وأصبح فى مقدور الإنسان أن يحيا فى جو من التفكير المتواصل الذى يستطيع أن ينقله إلى أعمال تنفيذية بصورة عاجلة .

كانت المعركة تدور عند القناة . ولعل القارىء يتوق إلى الوصول إلى المعركة . ولكنى أرى من الأفضل هنا أن أشرح النظام والجهاز اللذين ادارا دفة الشئون العسكرية وغيرها منذ توليت الحكم « وكنت ومن دائما بأن الأعمال الرسمية لابد أن تصدر عن أوامر خطية مكتوبة . وإذا كان للرغبات والآراء شأنها إلا فيما يتعلق بالنظام العسكرى فان التوجيهات الخطية الصادرة عن رئيس الحكومة الذى له الحق الشرعى والدستورى فى إصدارها والذى يتولى شئون وزارة الدفاع كان لها أثرها واعتبارها وإن لم توضع فى صيغة الأوامر وكانت تؤتى ثمارها .

وحتى لايساء استخدام اسمى فى أمر من الأمور أصدرت أثناء أزمة شهر يولية البيان التالى :

« أعلن بكل وضوح أن سائر التوجيهات التى أصدرها ستكون خطية . أو تؤكد خطأ بعد صدورها . ولن أقبل فيما يتعلق بالدفاع الوطنى مسئولية أية قرارات إلا إذا كانت قرارات خطية » .

وقد كنت عندما أستيقظ من نومى فى الساعة الثامنة من الصباح أقرأ جميع البرقيات الواردة . وأملى من فراشى فيضا من المذكرات والتوجيهات : فتطبع فى الحال وتسلم إلى الجنرال ايسماى وكيل الوزارة العسكرى لوزارة الحرب الذى كان

يمثلنى فى لجنة رؤساء أركان الحرب . وكان يحضر لمقابلتى كل صباح . فإذا اجتمعت لجنة رؤساء أركان الحرب فى الساعة العاشرة والنصف صباحاً يكون الجنرال قد وضع أمامها عدداً كبيراً من التوجيهات الخطية . وكان أعضاء اللجنة يولون توجيهاتى كل اعتبار وهم يدرسون الوضع بصفة عامة . فإذا كنا مابين الثالثة والخامسة بعد الظهر فان الأوامر والبرقيات التى أصدرها باسمى والتى يرسلها رؤساء أركان الحرب بالاتفاق عليها تكون قد بلغت جميعاً عدا بعض الأمور التى قد يكون فيها بعض الخلاف وتتطلب المزيد من المشاورات .

ولعل من المتعذر وضع حد فى الحرب الجماعية بين المسائل العسكرية وغيرها . وقد كان لشخصية السير إدوارد بريدجز الأمين العام لوزارة الحرب الفضل فى عدم قيام أى احتكاك بين الموظفين العسكريين وموظفى وزارة الحرب. وقد كان وهو سليل أحد شعراء التاج السابقين ، مجدا فى عمله لا يكل ولا يمل وله مقدرة عظيمة وجاذبية كبيرة ، بعيدا عن الغيرة والحسد . وكان كل مايهمه أن يقوم جهاز الأمانة العامة لوزارة الحرب بخدمة رئيس الوزراء والوزارة بكل مايستطاع من القدرة والكفاية ولم يفكر على الإطلاق فى شخصيته أو منصبه ، ولم يقع بينه وبين أحد ممن كانوا تحت سلطته فى الأمانة العامة أى احتكاك .

وفى القضايا الكبيرة أو الخلاف فى الآراء كنت أدعو اللجنة الدفاعية لوزارة الحرب وكانت تضم فى بادئ الأمر المستر تشمبرلين والمستر أتلى ووزراء القوات المسلحة الثلاثة ورؤساء أركان حربهم . وقد أخذت هذه الاجتماعات الرسمية تقل بعد سنة ١٩٤١ . فلما رأيت أداة الحكم قد أصبحت تسير بيسر لم أجد ضرورة لعقد اجتماعات يومين لوزارة الحرب بحضور رؤساء الأركان . ولجأت إلى ما سميناه فيما بعد « بالعرض الوزارى يوم الاثنين » ففى هذا اليوم تعقد اجتماعات عديدة يحضرها وزراء الحرب ووزراء القوات المسلحة ووزير الداخلية ووزير المالية ووزير شئون الممتلكات المستقلة ووزير الهند ووزير الاستعلامات ورؤساء أركان الحرب والوكيل الدائم لوزارة الخارجية وكان كل من رؤساء أركان حرب يقدم بيانا بأعماله عن الأيام السبعة السابقة ثم يليهم وزير الخارجية فيعرض أهم التطورات فى الشئون الخارجية

التى حلت فى هذا الأسبوع أما فى باقى أيام الأسبوع فقد كانت وزارة الحرب تعقد اجتماعاتها الخاصة على انفراد وتقرر ما تشاء فى سائر القضايا الهامة التى تعرض عليها وتتطلب الموافقة . وفى بعض الأحيان كان يحضر هذه الاجتماعات الوزراء الآخرون الذين يعنون بما يعرض فى هذه الاجتماعات . وكان أعضاء وزارة الحرب يطلعون على كل ورقة لها صلة بشئون الحرب ويطلعون على سائر البرقيات التى أبعث بها . ومع نمو الثقة المتبادلة أخذ يقل التدخل الفعلى لوزارة الحرب فى العمليات العسكرية . وإن كان الوزراء ما زالوا يرقبون كل شىء باهتمام وقد رفع الوزراء عن كاهلى سائر الأعباء التى تتعلق بالمشاكل الداخلية والحزبية . حتى يتسع لى المجال فيما هو أهم من الأعمال . إذ كنت أستشيرهم دائماً فى الأعمال المقبلة قبل وقوعها . وعلى الرغم من أنهم كانوا يطلبون إلى أن لا أطلعهم على التواريخ والتفاصيل ويمنعوننى من الحديث عنها فى بعض الأحيان فقد كانوا يولون هذه الأمور كل اهتمام ولم يكن من همى أن أحيل منصب وزارة الدفاع إلى وزارة فعلية وكان على أن أجرى التعديلات الدقيقة التى شرحتها آنفا والتى تيسرت بالعلاقات الشخصية والنوايا الخالصة بطريقة دستورية . وإذا كان الوقت لم يكن مناسباً لها فقد كان هناك جهاز قائم فعال تحت إشراف رئيس الوزراء وذلك هو الجناح العسكرى للأمانة العامة لوزارة الحرب . وكان يعرف فى الأيام السابقة للحرب باسم الأمانة العامة لجنة الدفاع الإمبراطورى ويقوم على رأس هذا الدفاع الجنرال إيسمان والكولونيل هوليس والكولونيل جاكوب كمساعدين رئيسيين ولفيف من الشباب المختارين من فروع القوات المسلحة وقد أصبح هذا الفريق من الأمانة العامة وكأنهم من موظفى مكتب وزير الدفاع . ولا شك أننى مدين لهم بفضل لا يوصف . وقد ارتقى كل من الجنرال إيسمان والكولونيل هوليس والكولونيل جاكوب فى المرتبة وفى الشهرة تدريجيا أثناء الحرب ولكن لم يتغير مركز أحد منهم فالتغيير فى مثل هذه الأوضاع التى تكتنفها السرية يعود بأضرار بالغة تعوق سير العمل بصورة مرضية .

وقد وجد شىء من الاستقرار فى لجنة أركان الحرب بعد التغييرات الأولية التى أجريتها . فقد عين المارشال الجوى نيوال بعد أن أنهى خدمته العسكرية كرئيس

لأركان حرب الطيران فى سبتمبر سنة ١٩٤٠ حاكماً عاماً فى نيوزيلندا وحل محله الماريشال الجوى لورتال الذى بزغ نجمه فى القوى الجوية وظل يعمل معى طوال أيام الحرب . وكان السير جون ديل قد خلف الجنرال إيرونسايد فى مايو سنة ١٩٤٠ وظل رئيساً لأركان حرب قوات الإمبراطورية حتى رافقنى فى زيارتى لواشنطون فى ديسمبر سنة ١٩٤١ حين عينته ممثلا عسكريا لى عند الرئيس روزفلت ورئيساً لبعثة الأركان المشتركة لقواتنا هنالك وقد أصبحت صلاته الطيبة بالجنرال مارشال رئيس أركان حرب الجيش الأمريكى لها قيمتها التى لا تقدر فى سائر أعمالنا . فلما قضى نحبه وهو يقوم بواجبه بعد سنتين أكرمه الأمريكيون فدفنوه فى مقبرة أرلنجتون التى خصصت لكبار العسكريين الأمريكيين وقد خلفه فى رئاسة أركان حرب القوات الامبراطورية السير آلان بروك الذى عمل معى حتى آخر الحرب .

ومنذ سنة ١٩٤١ والسنوات الأربع التالية التى انتهت أوائلها فى حالة من الكوارث والفشل . كان التغير الوحيد الذى حدث فى هذه الفئة الصغيرة من رؤساء أركان الحرب أو كبار موظفى الدفاع تابعاً لموت الأميرال باوند وهو يؤدى واجبه . وربما كان هذا رقماً غريباً فى التاريخ العسكرى البريطانى . وقد احتفظ الرئيس روزفلت فى دائرته الخاصة بهذا النظام . فقد بدأ رؤساء أركان حرب القوات المسلحة الأمريكية وهم الجنرال مارشال والأميرال كينج والجنرال أرنولد الذين انضم إليهم الأميرال ليهى فيما بعد الحرب وهم فى مناصبهم وانتهت الحرب وهم ما زالوا فى نفس المناصب . وإذ كان هؤلاء مع زملائهم البريطانيين يؤلفون لجنة القيادة المشتركة فقد كان لهذا النظام فائدته . وهذا الوضع بين الحلفاء لم يعرف له مثيل من قبل .

ولا أزعم أن الخلاف لم يقع قط بيننا فى الوطن . ولكن نوعاً من حسن التفاهم أصبح بيننا بحيث أصبح فى مقدورنا أن نحل أى خلاف بيننا فى بساطة ويسر وأن يقنع كل منا الآخر دون حاجة إلى أن يتخطاه أو يصدر إليه الأمر . ومما ساعد على ذلك أننا كنا نستطيع أن نتحادث بنفس اللغة الفنية . وكانت لنا جميعاً فكرة عسكرية وخبرة طويلة بشئون الحرب . وكنا فى هذه الأحوال المتقلبة نسير وكأننا رجل واحد . وكانت وزارة الحرب تلقى علينا حجابا من السرية . وتمدنا بالثقة والثبات

اللذين لا يعتريهما الضعف . ولم يكن ثمة انقسام فى الرأى بين السياسيين والعسكريين كما حدث فى الحرب الماضية . أو بين « حلة الفراك » و « الخوذة الفولاذية » فقد كنا قريبين فيما بيننا وقد خلقنا صداقات كان لها فى رأيى أبلغ الأثر .

وتقوم كفاية الإدارة الحربية على القرارات الصادرة من السلطة العليا ، هل تطاع طاعة عمياء وبصدق وإخلاص وقد صح لنا هذا فى بريطانيا خلال هذه الأزمة بسبب الإخلاص الشديد والإدراك والعزيمة المنبعثة من القلوب عند سائر أعضاء وزارة الحرب على العمل الذى وهبنا أنفسنا لأجله . وكانت السفن والقوات والطائرات تتحرك والمصانع تعمل وفق التوجيهات . وقد استطعت بفضل ما لقيته من إخلاص وتمان فى أداء الواجب أن أقود كل ناحية من نواحى مجهودنا الحربى قيادة تامة . وكان هذا أمراً محتوما فالأمور تسير فى سيرة سيئة للغاية وقد قبل الجميع الخطة التى وضعتها إذ أن كل إنسان كان يدرك أننا على شفا الموت والهلاك . ولم يكن الموت فى هذه الحالة أمرا فرديا كما هو معروف . ولكنه الموت الإجماعى الذى لا مثيل له ، لبريطانيا وحياتها ومجدها التليد .

* * *

ولا شك أن كل حديث عن أسلوب الحكم الذى تطور فى ظل الائتلاف القومى يكون ناقصاً إذا لم أوضح سلسلة الرسائل الشخصية التى أرسلتها إلى رئيس الولايات المتحدة ورؤساء الدول الأجنبية وحكومات الدومنيون . فمن حق أن أشرح هذه الرسائل . ولما كنت قد حصلت من مجلس الوزراء على القرارات اللازمة لتحديد سياستنا . فقد تكفلت بإنشاء هذه الرسائل بنفسى وإملائها باعتبارها رسائل شخصية بين أصدقاء وزملاء وليست لها صفة رسمية . وقل أن أعرض صيغتها على أعضاء الوزارة قبل إرسالها وكنت أقبل على عملى بقوة وحرية وكنت على اتصال تام بوزير الخارجية وأعضاء وزارته . وكنا نحل كل خلاف بيننا فى الرأى عاجلا وبطريقة من التعاون والتآلف : وكنت فى كثير من الأحيان أقوم بتوزيع صور البرقيات التى أبعث بها ، على أعضاء وزارة الحرب بعد إرسالها . وإلى وزير الممتلكات المستقلة إذا كان الموضوع له صلة بوزارته وكنت بطبيعة الحال قبل إرسال البرقيات

أرجع فى مختلف الشئون والحقائق إلى الجهات الخاصة . أما الرسائل العسكرية فكانت تتحول من عندى عن طريق الجنرال ايسماى إلى رؤساء أركان الحرب . ولم تكن هذه الطريقة تتعارض بحال من الأحوال مع طرق الاتصالات الرسمية أو أعمال السفراء لكنها أصبحت مع ذلك الطريقة المثلى لتنفيذ الأعمال الحيوية العاجلة وكان لها أثرها البالغ فى إدارة دفة الحرب . بصورة لا تقل إن لم تكن تزيد فى بعض الأحيان ، على واجباتى فى وزارة الدفاع .

وكانت طريقتى فى إنشاء الرسائل موضع إعجاب أعضاء الدائرة المختارة الذين أعطيتهم الحرية التامة فى ابداء آرائهم . وقد أولونى ثقتهم التامة وكنا نحل سائر الخلافات التى تقع مع السلطات الأمريكية بالاتصال المباشر فى بضع ساعات . وقد برهن هذا الاتصال الذى كنت أقوم به ، على المستوى الرفيع على نجاح كبير حتى أننى حرصت على أن لا أتيحه للشئون المألوفة بين الدوائر والوزارات . وكنت أرفض على الدوام طلب زملائى الاتصال بالرئيس شخصياً فى بعض المسائل المتعلقة بالتفصيلات . ولو تحولت هذه الاتصالات إلى اتصالات شخصية غير لائقة لفقدت مالها من سرية ومن ثم تفقد مالها من أهمية .

وقد توثقت علاقاتى بالرئيس شيئاً فشيئاً حتى أصبحنا ندير دفة العمل الرئيسى بين أيدينا عن طريق ما بيننا من اتصالات شخصية . ولذلك تم لنا التفاهم . وإذ كان روزفلت رئيساً للدولة ورئيسا للحكومة فى نفس الوقت ، فقد كانت فى يده السلطة الكاملة فى القول والفعل فى سائر الأمور . وإذ كانت لدى السلطة التامة فى وزارة الحرب . فقد كنت أنا كذلك أمثل بريطانيا العظمى على نفس المستوى . ومن ثم كانت بيننا درجة كبيرة من الاتفاق والمواءمة . ولا شك أن الوقت الذى اقتصدناه بهذه الاتصالات والإقلال من عدد المطلعين عليها كان له أثر حميد لا يمكن تقديره . وكنت أرسل برقياتى إلى السفارة الأمريكية فى لندن وهى على اتصال مباشر على الدوام بالبيت الأبيض بأجهزة خاصة . وكانت ترد إلى الردود فيما يتعلق بتسوية القضايا عاجلة ، مع ملاحظة الساعات بيننا وبين واشنطون . فإذا أعددت رسالة فى المساء أو الليل أو فى ساعات مبكرة من الصباح تصل إلى الرئيس روزفلت

قبل أن يأوى إلى فراشه وقد أرسلت إليه تسعمائة وخمسين رسالة وتلقيت منه قرابة الثمانمائة رداً عليها وكنت أحس دائماً أننى أتصل برجل عظيم فضلا عن أنه صديق صدوق ونصير كبير للقضايا السامية التى ندافع عنها .

وفى يوم الاثنين الثالث عشر من شهر مايو سنة ١٩٤٠ طلبت إلى مجلس العموم فى جلسة طارئة الاقتراع على الثقة بالحكومة الجديدة ، وبعد أن قدمت للمجلس ماحققته من تقدم فى شغل المناصب الخالية قلت « ليس لى ما أقدمه لكم غير الدماء والعرق والدموع والنصب » وهذا البرنامج الشعبى المختصر لم يسبق لرئيس وزراء أن تقدم بمثله للبرلمان فى تاريخنا الطويل ، ثم انتهيت إلى أن قلت :

« قد تسألون . ما هى السياسة التى نتبعها ؟ وأقول لكم هى سياسة الحرب . من البحر والبر والجو بكل ما لدينا من قوة . وبكل ما يمنحنا الله من عزيمة نحارب طغياناً رهيباً ليس له مثيل فى تاريخ الجرائم التى ارتكبها البشر . هذه هى سياستنا . وقد تسألون ما هو الهدف ؟ وردى على ذلك كلمة واحدة وهى النصر . النصر مهما كلفنا من ثمن . النصر رغماً عن الخوف . النصر رغم طول الشقة ووعورة الطريق . فلا حياة لنا دون هذا النصر . وعليكم أن تعرفوا جميعاً أن ليس للامبراطورية البريطانية بقاء . ولا لكل ما مثلته بريطانيا . وما حملته القرون من دوافع للسير بالجنس البشرى إلى الأمام لتحقيق أغراضه دون هذا النصر . وقد قبلت القيام بهذه المهمة يحدونى الأمل والعزم الصادق . وأنا على ثقة بأن قضيتنا لن ينالها الفشل . وأستطيع الآن أن أزعم نصرة الجميع وتأييدهم وأقول « هلموا إذن ولنتقدم معاً إلى الأمام متكاتفين يداً واحدة » .

وقد اقترع المجلس على الثقة بالإجماع بعد بيان هذه الحقائق وأجل جلساته إلى الحادى والعشرين من شهر مايو .

وهكذا قمنــا جميعاً بالواجب المشترك فيما بيننا ولم يلق رئيس وزارة بريطانى من ولاء زملائه ومساعدتهم مثل مالقيته فى السنوات الخمس التالية من هؤلاء الرجال الذين كانوا يمثلون سائر الأحزاب ، وقد حافظ البرلمان على حريته الانتقادية ولــكنه كان يؤيد دائماً جميع الإجراءات التى تقترحها الحــكومة . وكانت حالة الشعب يشملها حماس واتحاد لامثيل له فى تاريخنا من قبل ، وكان هذا أمراً طبيعياً فقد واجهنا أحداثاً شديدة لم يرها شعب فى زمن من الأزمان .

معركة فرنسا

حين وقعت الحرب فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ جمل الألمان القوة الرئيسية لجيشهم وسلاحهم الجوى مركزين على غزو بولندا واحتلالها . وعلى طول الخط من إكس ليشابل إلى الحدود السويسرية وقفت اثنتان وأربعون فرقة . ولم يكن معها قوة مدرعة . وكانت فرنسا تستطيع بعد أن عبأت قواتها أن تقيم فى هذه الجبهة سبعين فرقة . ولكنها لم تفعل للأسباب التى قدمتها آنفاً وقد رئى أن من المتعذر القيام بهجوم على ألمانيا فى ذلك الوقت ولكن الوضع فى العاشر من شهر مايو سنة ١٩٤٠ تغير كل التغيير . فقد استفاد العدو من مهلة الثمانية أشهر ومن تحطيم بولندا فاستعد بنحو مائة وخمسين فرقة وسلحها ودربها حتى أصبحت كاملة ، منها عشر فرق مدرعة وكان من أثر الاتفاقية التى عقدها هتلر مع ستالين أن خفض الألمان قواتهم فى الشرق إلى أقل عدد . ويقول الجنرال هولدر وهو من كبار ضباط القيادة العليا الألمانية : إن هتلر لم يخلف أمام روسيا فى الشرق غير قوة صغيرة لا تصلح إلا للتغطية أو جمع الضرائب . وقد سمح الروس للألمان — دون مبالاة بالمستقبل — بأن يدمروا الجبهة الثانية فى الغرب التى اضطروا بعد فترة قصيرة من الزمن إلى أن يطالبوا بها وينتظروا فتحها بقلق وفزع . ومن ثم أتيح لهتلر أن يوجه هجومه الخاطف على فرنسا بمائة وست وعشرين فرقة وبكل مافى فرقه العشر من أسلحة مدرعة وبعد ثلاثة آلاف سيارة مصفحة منها ألف دبابة ثقيلة على الأقل .

وقد حشد الفرنسيون أمام هذه القوة الكبيرة التى لم نكن على علم بحقيقة وحداتها وتوزيعها نحو ثلاث ومائة فرقة منها القوات البريطانية التى تعمل فى فرنسا . وإذا كان للجيوش البلجيكية والهولندية أن تشترك فإن هذه الأرقام ستزيد اثنتين وعشرين فرقة . ولما كان الغزو قد وقع على هذين فى نفس الوقت الذى هوجمت فيه فرنسا ، فإن مجموع قوات الحلفاء على اختلافها بلغ فى العاشر من شهر سبتمبر نحو مائة وخمس وثلاثين فرقة أو ما يعادل مايملكه الألمان فى الواقع . ولو أحسن

تنظيم هذه القوات وتدريبها وقيادتها لكان فى مقدورها ، حسب ما نعرفه من مقاييس الحرب السابقة ، أن تقف الغزو وعندها الوسائل الكافية لذلك .

ولكن الألمان كانت لديهم ميزة الحرية التامة واختيار الوقت والمكان والقوة اللازمة وكان أكثر من نصف الجيش الفرنسى العامل يقف فى المناطق الجنوبية والشرقية من فرنسا . وكان على الإحدى والخمسين فرقة الفرنسية والبريطانية القائمة بقيادة الجنرال بيلوتى فى مجموعة الجيوش الأولى مع ما سينضم إليها من فرق بلجيكية وهولندية ، أن تواجه الهجوم الخاطف فى الشمال ويقوم به نحو سبعين فرقة معادية بقيادة بوك ورونشتادت بين لانجواى والبحر . وقد قرر الألمان أن يجعلوا رأس الرمح فى هجومهم الرئيسى الدبابات التى لا تخترقها قذائف المدفعية والطائرات القاذفة المنقضة . بالطريقة التى استخدمت بنجاح على نطاق ضيق فى بولندا . وقد صدر الأمر إلى مجموعة من خمس فرق مدرعة وثلاث فرق ميكانيكية يقودها كلايست بالاتجاه عبر الاردين إلى سيدان ومنتيرمى .

ولمواجهة هذا النظام الحربى . دفع الفرنسيون نحو الفين وثلثمائة دبابة أكثرها من النوع الخفيف . وقد ضمت فرقهم المدرعة بعض الأنواع الحديثة والقوية . ولكن أكثر من نصف قوتهم المدرعة كانت مقسمة بين فرق مختلفة من الدبابات الخفيفة للتعاون مع سلاح المشاة . وكانت فرقهم المدرعة الست التى كانت تستطيع وحدها أن تواجه هجوم فرق « البانزر » الألمانية المدرعة موزعة فى الجبهة على طول الخط . ولم يكن من الممكن ضمها إلى بعض للقيام بعمل منظم . وكانت بريطانيا الدولة التى خلقت فيها الدبابة قد تمكنت منذ أيام قليلة من تأليف فرقتها المدرعة الأولى وتدريبها . ولم تكن قد بعثت بها بعد إلى فرنسا .

وكانت الطائرات المقاتلة التى زج بها الألمان فى الغرب تفوق كثيراً طائرات الفرنسيين عدداً وعدة . أما القوة الجوية البريطانية العاملة فى فرنسا فكانت تضم عشرة أسراب محاربة من طائرات «هاريكين» التى أمكن الاستغناء عنها من سلاح الدفاع عن الوطن وتسعة عشر سربا من أنواع أخرى . ولم تكن السلطات الجوية البريطانية والفرنسية قد أنتجت الطائرات المنقضة . وهو سلاح أصبح له مكانته

بعد معركة بولندا . ولعب دوراً هاما فى إضعاف الحالة المعنوية بين جنود المشاة الفرنسيين ولاسيما الملونين .

* * *

وبدأت القوات الألمانية هجومها على فرنسا عند حدود بلجيكا وهولندا ولكسمبورج فى العاشر من شهر مايو بعد أن سبقتها غارات جوية واسعة على المطارات وطرق المواصلات ومقر القيادة ومستودعات السلاح . وكانت لهم ميزة المفاجأة الحربية فى كل مكان وفى ظلام الليل قفزت فرق لا تعد من جنود قوات العاصفة المتحمسين والمسلحين بأحسن سلاح بالمدفعية الخفيفة . قبيل الفجر كان نحو مائة وخمسين ميلا على طول الجبهة قد أصبحت ناراً ملتهبة . وعندما هوجمت هولندا وبلجيكا دون إنذار سابق صاحتا صيحتهما لطلب النجدة وكان الهولنديون قد ركنوا إلى خطهم المائى . وفتحت جميع الثغرات التى لم يستول عليها بالقوة أو الخيانة . وقام الحرس الهولندى بمقاومة الغزاة .

وكان المستر كولجين . وهو رئيس للوزراء . قد زارنى سنة ١٩٣٧ وأوضح لى خطة إغراق الأراضى بالمياه وما لها من أثر فعال وأنه يستطيع بمكالمة تليفونية أن يأمر بالضغط على زر واحد فيواجه الغزاة حواجز مائية عظيمة لا يمكن التغلب عليها لكن هذه الأقوال كانت تافهة . فقوة الدولة الكبيرة التى تواجهها دولة صغيرة لها أثرها الجبار فى الأوضاع العصرية . فقد تمكن الألمان من اجتياز الجبهة فى كل مكان ووضعوا الجسور على القنوات، أو استولوا على فتحاتها وعلى المفاتيح التى تؤدى إليها . وكان فى مقدورهم بعد يوم واحد أن يسيطروا على سائر الخطوط الهولندية الخارجية التى أقاموها للدفاع . وفى نفس الوقت أخذ السلاح الجوى الألمانى يستخدم قوته الجبارة ضد بلاد آمنة لا تستطيع الدفاع وأصبحت مدينة روتردام بين عشية وضحاها أنقاضاً تشتعل منها النيران وقد تعرضت لاهاى وأوزخت وامستردام لمثل هذا المصير وتحطم أمل هولندا فى النجاة من الطرف الأيمن للجناح الألمانى كما نجت فى الحرب السابقة . بناء على الوهم والخيال .

وبدأت الأنباء السيئة تترى إلينا فى الرابع عشر من شهر مايو . فقد كان الوضع

أول الأمر غامضاً . وفى الساعة السابعة مساء قرأت على مجلس الوزراء رسالة تلقيتها من المسيو رينو يقول . . إن الألمان اخترقوا الجبهة فى سيدان . وان الفرنسيين لم يستطيعوا المقاومة أمام العمل المزدوج بين الدبابات وطائرات الانقضاض ويطلب عشرة أسراب من الطائرات المقاتلة للمساعدة على إعادة تثبيت الخطوط . ونقلت رسائل أخرى تلقاها رؤساء أركان الحرب هـذه المعلومات نفسها مضافا إليها أن الجنرال جملان والجنرال جورج ينظران إلى الوضع نظرة خطيرة وقد بهت الجنرال جملان لسرعة زحف العدو . وفى سائر المناطق التى اشتبكت فيها الجيوش كانت شدة الهجوم الألمانى وثقله قد وصلت إلى حد كبير .

وقد قاتلت أسراب الطائرات البريطانية جميعها بعنف وشدة دائبين وكانت تستهدف بصورة رئيسية الجسور القائمة فى منطقة سيدان . وقد دمر عدد من هذه الجسور وأصيب عدد آخر بأضرار فى غارات يائسة ومركزة . وكانت الخسائر فى الغارات الجوية المنخفضة على الجسور من الدفعية الألمانية المضادة للطائرات شديدة مزعجة . ففى حالة من الحالات على المثال لم تعد من الطائرات الست التى اشتركت فى الغارة الناجحة إلا طائرة واحدة . وفى ذلك اليوم خسرنا سبعا وستين طائرة ، ولا نشغالنا فى معارك مع الدفعية الأرضية المضادة أسقطنا ثلاثا وخمسين طائرة ألمانية فحسب . ولم يبق فى تلك الليلة فى فرنسا من مجموع ٤٧٤ طائرة بريطانية إلا ٢٠٦ طائرات .

ووردت إلينا هذه المعلومات المفصلة تدريجيا وقد تبين أن استمرار القتال على هذا النحو سيستنزف السلاح الجوى البريطانى على كثرة عدده وتفوقه .. وكانت المسألة المسيرة الحل هى : ما الذى نستطيع أن نرسله من الطائرات دون ان يكون لإرساله تأثير على الدفاع داخل أرض الوطن والخوف من فقدان القدرة على مواصلة الحرب إذا اشتد علينا الضغط ؟ وكانت رغبتنا الطبيعية فى أن نفى بوعودنا مع الاعتبارات العسكرية الثقيلة الوطء تقوى من دعوة فرنسا . ولـكن كان ثمة من الناحية الأخرى الحد الذى إذا تجاوزناه فقدنا حياتنا .

وقد بحثت وزارة الحرب مكتملة فى هذه الآونة تلك القضايا . وكانت الوزارة تجتمع عدة مرات كل يوم . وكان ماريشال الجو راوديننج قائد قواتنا الجوية المحاربة فى

الوطن قد أبلغنى بأنه إذا توافر لديه خمسة وعشرون سربا من المقاتلات فإنه بذلك يستطيع الدفاع عن الجزر البريطانية ضد السلاح الجوى الالمانى جميعه . وإذا نقص هذا العدد فإنه يفقد القدرة على الدفاع . وكانت الهزيمة لا تشمل تدمير مطاراتنا وقوتنا الجوية فحسب بل كذلك مصانع إنتاج طائراتنا التى يتوقف عليها مستقبلنا جميعه وكنت وزملائى قد اعتزمنا أن نغامر لأجل المعركة بكل شىء حتى هذا الحد ، وكان ما نغامر به جدّ عظيم ولكننا لا نستطيع أن نتجاوزه مهما تكن العاقبة .

وقد استيقظت فى الساعة السابعة والنصف من الصباح فى الخامس عشر من شهر مايو على تليفون من المسيورينو أوصلوه إلى وأنا فى فراشى . وكان يتحدث إلى بالانكليزية ويبدو فى حديثه العناء والنصب . قال « لقد هزمنا » ولما تريثت فى الرد عاد يقول « لقد كسرنا لقد خسرنا المعركة » . فقلت « لا يمكن أن تقع الهزيمة بهذه السرعة العاجلة » فقال « لقد تحطمت الجبهة عند سيدان : وهم يتدفقون فى أعداد كبيرة تتقدمهم الدبابات والسيارات المدرعة » هذا ما قاله : أو قال ما يشبه هذا .

فقلت « إن سائر الاختبارات تشير إلى أن الهجوم سيقف بعد قليل . إننى أذكر اليوم الحادى والعشرين من شهر مارس سنة ١٩١٨ وقدأرغموا على الوقوف بعدخمسة أو ستة أيام انتظارا للمؤونه حيث تكون الفرص مواتية للهجوم المضاد وقد تعلمت كل هذا من الماريشال فوش نفسه ، لقد كان هذا ما رأيناه فى الماضى ، وما كنا ننتظره فى الحاضر ولكن رئيس الوزراء الفرنسى عاد يكرر الجملة نفسها التى قالها فى البداية والتى ثبت صحتها قال « لقد هزمنا . وخسرنا المعركة » فقلت إننى أبغى الحضور إلى فرنسا للتحدث معك .

لقد استطاع الألمان أن يفتحوا ثغرة فى الخطوط الفرنسية عرضها خمسون ميلا ، وقد اندفعت قوات كبيرة من المدرعات من هذه الثغرة . وكان الجيش التاسع الفرنسى فى حالة من الضعف والانحلال وفى الخامس عشر من شهر مايو جاءت إلينا الأخبار بأن القوات المدرعة الألمانية أصبحت على بعد ستين ميلا وراء الجبهة الأصلية وفى ذلك اليوم كان القتال قد انتهى فى هولندا . ولما كانت القيادة العليا الهولندية

قد استسلمت فى الساعة الحادية عشرة صباحاً . لم يكن من المستطاع إلا جلاء عدد قليل من الجنود الهولنديين من البلاد .

وقد أعطتنى هذه الاحداث صورة عن الهزيمة . وقد سبق لى أن رأيت صورا شتى من هذا القبيل فى الحرب الماضية . ولم توح إلى بفكرة تحطيم الخط ، حتى على جبهة عريضة بالنتائج الرهيبة التى بدأت تنهال على أنباؤها . ولما كنت فى السنوات الطويلة الماضية لم أستطع الحصول على المعلومات الرسمية فإننى لم أكن أدرك تلك الثورة الكبيرة فى الأساليب الحربية التى تمت منذ الحرب الماضية بإدخال مجموعات ضخمة من السلاح المدرع وإذا كنت أعرف شيئا ما عن الموضوع فإنه لم يغير رأيى بما يجب أن يعمل . ولم يكن فى مقدورى على أى حال أن أفعل شيئا حتى لو غيرت رأيى . وقد تحدثت مع الجنرال جورج تليفونيا فوجدته هادىء الروع وأبلغنى أن محاولات تبذل لسد الثغرة فى سيدان ووصلت إلى برقية من الجنرال جملان تقول إنه على الرغم من خطورة الموقف بين سيدان ونامور فإنه مازال يرقب الحالة بهدوء وبعثت برسالة رينو والرسالتين السابقتين إلى وزراء الحرب فى الساعة الحادية عشرة من الصباح .

وفى اليوم السادس عشر وردت الأنباء بأن التوغل فى الخطوط بلغ نحو ستين ميلا بعيدا عن الحدود قرب سيدان . وعلى الرغم من أنه كان من المتعذر الوصول إلى صورة واضحة عما يدور فى الجبهة فى هذه الآونة فإن ما يحيط الموقف من أخطار كان جليا وقد أحسست ضرورة الذهاب إلى باريس بعد ظهر ذلك اليوم .

وفى الساعة الثالثة قمت فى طائرة من نوع « الفلامنجو » وهى من طائرات الركاب الحكومية ولم نكن نملك غير ثلاث منها وجاء معى الجنرال ديل نائب أركان حرب الامبراطورية والجنرال إيسماى . وكانت طائرات رائعة وسريعة وتسير بسرعة مائة وستين ميلا فى الساعة وقد رافقتها بعض طائرات الحراسة إذ كانت طائرتنا غير مسلحة . وحلقنا وسط سحب مثقلة بالأمطار . وقد وصلنا إلى مطار «لابورجيه» فى ساعة وبضع دقائق وسرعان ما اتضح لى منذ اللحظة التى غادرنا فيها الطائرة أن الموقف أسوأ بكثير مما كنا نتصور فقد ذكر الضباط الذين استقبلونا للجنرال ايسماى أن

من المنتظر وصول الألمان إلى باريس خلال بضعة أيام على أكثر تقدير وبعد أن سمعت شيئا عن الموقف فى سفارتنا انتقلت بالسيارة إلى الكى دورسيه فوصلتها فى الخامسة والنصف . وقد دخلت إلى إحدى حجرها البديعة فوجدت بها رينو ودلاديه وزير الدفاع الوطنى والحربية والجنرال جملان وكانوا جميعا واقفين . ولم نجلس لحظة واحدة طوال الوقت وكنت أرى علامات الضعف والاعياء بادية على وجوه الجميع . وقد وضع جملان أمامه خريطة مركبة على قواعد مربعة طول ضلعها ياردتان وقد رسم عليها بالخط الأسود مايشير إلى جبهة القتال وفى هذا الخط رسمت ثغرة صغيرة ولكنها مشوشة عند سيدان .

وقد بين لنا القائد العام ماحدث بإيجاز فقد كان الالمان قد اخترقوا الجبهة إلى الشمال والجنوب من سيدان على اتساع خمسين ميلا أو ستين . وقد انهار الجيش الفرنسى الذى كان يقف أمامهم وتفرق شمله . وأخذت السيارات المدرعة تتقدم بسرعة هائلة نحو إميان وأراس . وفى عزمها أن تصل إلى البحر عندا بيفل أو جوارها . وقد تحول هذه القوات اتجاهها فتزحف إلى باريس . وقال ان ثمانى فرق أو عشرا تزحف خلف المدرعات فى سياراتها الميكانيكية توسع اجنحتها وهى تتقدم فى حركة منتشرة ضد الجيشين الفرنسيين اللذين فصل كل منها عن الآخر . وقد دام حديث الجنرال نحو خمس دقائق دون أن يقاطعه أحد . وما كاد يتوقف عن الكلام حتى عم وجوم وصمت طويلان ثم تساءلت وأين القوة الاحتياطية الاستراتيجية ؟ ثم قلت بالفرنسية وأين قوات المناورة ؟ فالتفت إلى الجنرال جملان وهو يهز رأسه وقال : ليست لدينا قوات احتياطية ولا قوات للمناورة .

وقد عدنا نخيم علينا صميت طويل وارتفعت سحب من الدخان فى الخارج فى حدائق الكى دورسيه من أنوار المشاعل . ورأيت جماعات من الموظفين فى عربات متحركة وقد حملوا مجموعات كبيرة من الوثائق واشعلوا فيها النيران . ومعنى هذا أنهم يعدون العدة للجلاء عن باريس .

وإذا كانت للتجارب الماضية ميزاتها فإنها مع الأسف لا تتكرر بنفس الصورة والإلكان الحياة تكون سهلة بسيطة فكثيرا ماتخطيت جهاتنا وأمكننا أن نصل الأشياء

ونضعف حدة الهجوم أما الآن فثمة عاملان لم أكن أتوقع مواجهتهما من قبل أولهما اقتحام طرق المواصلات جميعها والريف القائم وراء الجبهة بفيض لا يمكن مقاومته من السيارات الدرعة وثانيهما عدم وجود احتياطي استراتيجي ولقد قيل لي ليس لدينا احتياطي . فذهلت . ماذا أقول في الجيش الفرنسي العظيم وكبار قادته العسكريين ؟ . لم يكن ليخطر لي ببال أن قائدا يعهد إليه بالدفاع عن خمسمائة ميل من الجبهة يترك نفسه في حالة تعوزه فيها القدرة على المناورة وليس في مقدور أي إنسان أن يدافع عن جبهة واسعة بالثقة التي لا حدود لها وعندما يفرض العدو على نفسه الهجوم باندفاع كهذا الاندفاع الذي اخترق الجبهة فمن واجب الفريق الآخر أن يكون على استعداد بعدد عظيم من الفرق للقيام بهجوم مضاد في حين تكون قوة هجوم العدو قد اعتراها الفتور .

لماذا أقامت فرنسا خط ماجينو ؟ لا شك أن هذا الخط قد وفر استخدام عدد كبير من جنود الجبهة وهيأ مراكز دفاعية لتستخدمها القوات الدائمة في هجمات مضادة وتمكنها من حشد قوات كبيرة من الاحتياطي للانتفاع بها عند الحاجة وهذه هي الطريقة المثلى والوحيدة لمواجهة مثل هذه الطوارىء . ولكنهم يقولون الآن . ليس هناك احتياطي . وإني لأعترف بأن هذا التصريح كان أكبر مفاجأة في حياتي . فلماذا لم أكن على بينة من هذا الموضوع حتى ولو كنت مشغولا بأعمال الأميرالية ؟ ولماذا لم يكن لدى بريطانيا ووزارة الحرب علم سابق بهذه الحقيقة ؟ ولا يجوز فيما أعتقد الاعتذار بأن القيادة العليا الفرنسية لم يكن لها أن تكشف عن توزيع قواتها لنا أو للورد جورت إلا في دائرة من الإبهام لقد كان من حقنا أن نعرف . وكان من حقنا أن نصر على رأينا في أن نعرف ، لأن الجيشين يخوضان معركة واحدة في جبهة واحدة ورجعت إلى النافذة لأرى سحب الدخان المنبعثة من النيران التي تأكل وثائق الجمهورية الفرنسية . وكان السادة الكهول يواصلون المسير بعرباتهم المحملة ويقذفون بما فيها إلى النيران الملتهبة .

وأسرع الجنرال جملان يتحدث ثانية عما إذا كان من الضروري جمع قوات نضرب بها جناحي الاختراق الألماني . أو « الانبعاج » كما كنا نسميه فيما بعد فهناك ثماني فرق أو تسع يمكن سحبها من المناطق الهادئة في الجبهة عند خط ماجينو

وهناك فرقتان أو ثلاث فرق مدرعة لم تشترك بعد فى المعركة وثمانى أو تسع فرق فى الطريق من أفريقيا ويمكن وصولها إلى الجبهة فى مدى أسبوعين أو ثلاثة : ومن ثم فإن الألمان سيتقدمون فى طريق بين جبهتين ويمكن أن تشنّ عليهما حرب على مثال التى دارت فى سنتى ١٩١٧ و ١٩١٨ وقد لا يستطيع الألمان الاحتفاظ بمراكزهم إزاء الضغط المتزايد من الجناحين أو من تمكين اندفاعهم بالمدرعات . هذا ما كان يتحدث به جملان . وكان معقولا فيما تحدث به إلى حد بعيد . ولكننى أحسست أن هذه الفئة الصغيرة من الرجال المسئولين وذوى النفوذ لا تكاد تصدق ما يقول .

وقد سألت الجنرال جملان فجأة عن الموعد الذى يعتزم فيه مهاجمة جناحى الثغرة والطريقة التى يهاجمها بها . وكان جوابه « إننا أقل منهم عدداً وأقل عدة . وأقل منهم فى الطرق الحربية » واكتفى بأن هز كتفيه . ولم يجر نقاش بعد هذا وماحاجتنا إلى النقاش ثم ما هو موقفنا نحن الإنجليز . بهذا القدر الضئيل الذى نساهم به وهو لا يعدو عشر فرق بعد ثمانية أشهر من الحرب وليس بينها فرقة دبابات حديثة .

* * *

وكان ملاحظات الجنرال جملان وغيره من القادة الفرنسيين تتجه إلى الاصرار على نقصهم فى القوة عن العدو لا سيما فى الجو . والالحاح بأن يرسل السلاح الجوى الملكى قوات جديدة من القاذفات والمقاتلات ولا سيما الأخيرة : وقد ظل هذا الإلحاح لإرسال الطائرات المقاتلة مستمرا فى كل اجتماع تال حتى انهارت فرنسا . وقد قال الجنرال جملان وهو يتحدث عن الحاجة إلى المقاتلات انها ضرورية لا لتغطية موقف الجيش الفرنسى فحسب . ولكن لوقف هجوم الدبابات الألمانية كذلك . وهنا علقت قائلا « كلا إن عمل المدفعية وقف الدبابات أما المقاتلات فواجبها تصفية الجو فى سماء المعركة » وكان من الأمور الحيوية بالنسبة لنا ألا نسحب قوتنا الدفاعية المقاتلة من بريطانيا مهما تكن الأسباب لأن بقاءنا متوقف عليها . ومع هذا فقد أصبح كسر النظام أمراً لا بد منه . وفى الصباح التالى . قبل أن أغادر المكان كان مجلس الوزراء فى لندن صرح لى بنقل أربعة أسراب من المقاتلات إلى فرنسا . فلما عدنا إلى السفارة وبعد حديثى فى هذا الشأن مع « ديل » قررت أن أطلب من مجلس الوزراء أن يتيح لى إرسال ستة أسراب أخرى . ومعنى هذا أن يقتصر دفاعنا على خمسة وعشرين

سربا فى الجزر البريطانية جميعها . وهذا هو الحد الأقصى . وكان لا بد من اتخاذ قرار حاسم فى هذا الشأن على كل حال . وطلبت إلى المستر إيسمان أن يتحدث تليفونيا إلى لندن ليطلب اجتماع مجلس الوزراء بصفة عاجلة لدراسة برقية هامة سترسل إليه خلال ساعة أو نحو ساعة .

وجاءنى الرد فى الساعة الحادية عشرة والنصف وكان بالإيجاب وسرعان ما انتقلت ومعى الجنرال ايسمان بالسيارة إلى شقة المسيورينو فوجدتها وقد اكتنفها الظلام وبعد انتظارنا لحظة من الزمن خرج المسيورينو من حجرة نومه يرتدى حلته المنزلية فأبلغته الأنباء الطيبة : عشرة أسراب من المقاتلات ! وأقنعته إذا ذاك بأن يستدعى المسيو دلادييه الذى حضر إلى المنزل ليسمع قرار الوزارة البريطانية . وحاولت بهذه الوسيلة أن أرفع من الروح المعنوية عند أصدقائنا الفرنسيين بقدر ما تسمح به وسائلنا المحدودة ولم يفه دلادييه بكلمة واحدة ولكنه قام من مقعده وضغط على يدى . وفى الساعة الثانية تقريباً عدت إلى دار السفارة ونمت مستريحا وإن كان إطلاق نيران المدافع عند الغارات الجوية قد يجعل الإنسان يتقلب على فراشه من جانب لآخر . وطرت فى الصباح عائداً إلى لندن وعلى الرغم من مشاغلى الأخرى أخذت فى الحال أعمل على تأليف المستوى الثانى من حكومتى .

وعقدت وزارة الحرب اجتماعا فى الساعة العاشرة من صباح اليوم السابع عشر من شهر مايو وعرضت عليها نتائج زيارتى لباريس . وصورة الوضع كما أراه .

وقلت للزملاء إننى أبلغت الفرنسيين أنهم إذا لم يبذلوا كل ما فى وسعهم . فلن يكون هناك ما يجعلنا نتحمل هذه المغامرة الخطيرة التى تعرض سلامة بلادنا للخطر . وكنت أشعر بأن موضوع المساعدات الجوية كان من أخطر المواضيع التى يواجهها أى مجلس وزارة بريطانى . وقيل لى إن خسائر الألمان الجوية أربعة أضعاف أو خمسة أضعاف خسائرنا ولكن قيل لى كذلك إنه لم يبق من قوة فرنسا الجوية المقاتلة غير الربع وقد ظن جملان فى ذلك اليوم أن الوضع قد انتهى وقيل إنه أعلن أنه يستطيع أن يضمن سلامة باريس اليوم فقط وربما غداً أى الثامن عشر والليلة التالية . وكانت

المركة يحمى وطيسها ساعة بعد أخرى وفى نفس ذلك اليوم بعد الظهر دخل الألمان بروكسل ووصلوا فى اليوم التالى إلى كبريه واجتازوا سان كانتان وأخرجوا قواتنا الصغيرة من بيرون . وكانت الجيوش البلجيكية والبريطانية والفرنسية القائمة تواصل انسحابها نحو نهر الشلدت .

وفى منتصف ليلة الثامن عشر — التاسع عشر قام الجنرال بيلوتى بزيارة اللورد جورت فى مقر قيادته . ولم تكن شخصية هذا القائد الفرنسى أو اقتراحاته تتركان شيئاً من الثقة فى نفوس حلفائه . وقد بدأت منذ تلك الآونه فكرة الانسحاب تراود القائد البريطانى فقد جاء فى البرقية التى بعث بها تلك الليلة أى التاسع عشر ونشرت فى شهر مارس سنة ١٩٤١ . لقد اتضحت الصورة وهى تختلف عن صورة الخطر الذى يخترق لأجل محدود . انها صورة القلعة المحاصرة .

* * *

وقد أحدث المسيو رينو تغييرات واسعة فى الوزارة الفرنسية وفى القيادة العليا . فعين المرشال بيتان فى الثامن عشر من شهر مايو نائبا لرئيس الوزراء . ونقل دلاديه إلى وزارة الخارجية وتولى بنفسه وزارة الدفاع الوطنى والحربية وفى الساعة السابعة من مساء التاسع عشر من شهر مايو عين الجنرال فيجان الذى كان قد وصل من الشرق الأدنى قائدا أعلى خلفا للجنرال جملان . وكنت أعرف فيجان عندما كان اليد اليمنى للمرشال فوش . وأعجبت بتدخله العظيم فى معركة وارسو ضد الغزو البلشفى لبولندا فى شهر أغسطس سنة ١٩٢٠ وكانت تلك مرحلة حاسمة بالنسبة لأوربا فى ذلك الوقت وكان قد أصبح الآن فى الثالثة والسبعين من عمره ولكنه ما زال فى ذروة النشاط والحيوية . وكان آخر الأوامر اليومية التى أصدرها الجنرال جملان أمرا أصدره فى الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والأربعين من صباح التاسع عشر من شهر مايو برقم (١٢) ويقول فيه « إن على الجيوش الشمالية حتى لا تسمح بتطويقها أن تشق طريقها نحو الجنوب إلى نهر السوم مهما كلفها ذلك . وتهاجم فرق المدرعات الألمانية التى قطعت مواصلاتها . وعلى الجيش الثانى والجيش السادس الذى أقيما حديثاً أن يهاجما شمالا باتجاه ميزيير . وكانت هذه القرارات على جانب كبير من الصواب .

والحق أنه قد تأخر صدور الأمر بانسحاب عام للجيوش الشمالية إلى الجنوب أربعة أيام على الأقل وكانت الخطة المثلى تقضى بعد أن ظهرت خطورة اختراق الألمان للجبهة فى سيدان بالانسحاب حالا إلى جبهة السوم وبدلا من هذا فقد قامت هذه الجيوش التى يقودها الجنرال بيلوتى ببعض الانسحابات الجزئية إلى الشيلدت . وأقامت جناحا دفاعيا إلى اليمين . ومع ذلك . فقد تكون الفرصة لا تزال قائمة للانسحاب نحو الجنوب .

وقد حل القلق فى نفوس وزارة الحرب البريطانية من جراء اضطراب القيادة الشمالية . وما أصيب به الجيش الفرنسى من الجمود الظاهر وعدم الوثوق بشىء عن حقيقة الواقع . وكانت سائر إجراءاتنا هادئة ومرنة ولكن ظهرت فكرة معينة كنا نقف أمامها ذاهلين وإن كنا متحدين . وفى الساعة الرابعة والنصف من بعد ظهر اليوم التاسع عشر من الشهر وردت إلينا رسالة تقول ان «اللورد جورت يدرس فكرة تدعو إلى الانسحاب إلى دنكرك إذا رأى نفسه مرغما على ذلك» ولم يكن فى وسع رئيس أركان حرب القوات الأمبراطورية أن يوافق على هذه الفكرة التى لم نكن نحن أيضاً نوافق عليها . وكان يرى أن من الواجب الانسحاب إلى الجنوب . ولهذا فقد بعثنا إلى اللورد جورت بتعليمات تقضى بأن يتجه بالجيش البريطانى نحو الجنوب الغربى وأن يجتاز طريقه ضد أية مقاومة فى طريقه حتى ينضم إلى الفرنسيين فى الجنوب . على أن يدعو البلجيكيين إلى تنفيذ خطة مماثلة وإذا لم يشاءوا فإنه يعلن لهم استعدادنا لاجلاء أكثر ما يمكن من القوات من موانىء المانش وعليه أن يبلغ جورت أننا سننقل إلى الحكومة الفرنسية ما استقر الرأى عليه وفى نفس الجلسة قررنا أن نبعث بالجنرال ديل إلى مقر قيادة الجنرال جورج — وكان لنا معه اتصال تليفونى مباشر — ليظل هناك اربعة أيام . وعليه أن يبلغنا كل ما يعرف . فقد كانت الاتصالات حتى مع اللورد جورت منقطعة وغير ميسرة . ولكنى علمت أن المؤن والذخائر التى لديه تكفى لمعركة تستغرق أربعة أيام فحسب .

وفى الجلسة التى عقدناها صباح اليوم العشرين من شهر مايو درسنا وضع جيشنا من جديد . وقد رأيت أنه حتى إذا نجمح التراجع مع القتال باتجاه السوم فمن

الجائز أن تقطع قوات كبيرة من جيشنا عن الأصل أو تضطر إلى الاتجاه نحو البحر وقد أثبت في محاضر تلك الجلسة ما يلي « رأى رئيس الوزراء على سبيل الاحتياط أن تحشد الأميرالية أكبر عدد مستطاع من السفن الصغيرة لتكون مهيأة للابحار عاجلا إلى الموانىء والمداخل الواقعة على الشاطىء الفرنسي » وقد قامت الأميرالية بتنفيذ هذا الأمر بسرعة وبحيوية عظيمة . وقد عهد بقيادة العملية في التاسع عشر من الشهر إلى الأميرال راس قائد منطقة دوفر وبعد ظهر اليوم العشرين مع الشهر عقد بناء على أوامر لندن المؤتمر الأول لكل من يعنيهم الأمر بما فيهم ممثلو وزارة الملاحة لدراسة « الجلاء الطارىء على القناة لقوات كبيرة للغاية » ووضعت الخطة لإجلاء ما يعادل عشرة آلاف رجل عن موانىء كاليه وبولون ودنكرك في كل أربع وعشرين ساعة . وكلف ضباط النقل البحري على طول الشاطىء من هارويش إلى ويمارث بتسجيل سائر البواخر الصالحة التي تحمل ما يزيد على الألف طن وقد تم إحصاء كل ما في الموانىء البريطانية من البواخر . ودلت هذه الخطط التي سميت « عملية دينامو » على أنها الطريق الذي أتاح خلاص الجيش بعد عشرة أيام .

* * *

وقد أصبح اتجاه الجيش الألماني ظاهراً . فقد واصلت السيارات المدرعة والفرق الميكانيكية تدفقها من الفجوة في اتجاه أميان واراس لتاتف غرباً على طول السوم في اتجاه البحر . ودخل الألمان ليلة العشرين من الشهر مدينة أبيفيل بعد أن قطعت كل مواصلات الجيوش الشمالية . ولم تلق أية مقاومة بعد أن كانت قد استطاعت اختراق الجبهة . وكانت الدبابات الألمانية الرهيبة تنطلق بحرية في الأرض الخالية وتسندها وتموّنها السيارات فتتقدم في اليوم الواحد بمعدل ثلاثين أو أربعين ميلا . وقد اجتازت عشرات المدن والقرى دون مقاومة . ويتطلع ضباطها برؤوسهم من الفتحات ويلوحون بأيديهم إلى السكان وقد شوهدت جماعات من الأسرى الفرنسيين الذين كانوا يسيرون معهم وهم مازالوا يحملون بنادقهم . ويجمعها الالمان من أيديهم ويدوسونها تحت الدبابات . وقد فزعت لهذا الفشل في التصدي للمدرعات الالمانية التي استطاعت بضعة ألوف منها أن تدمر جيوشاً قوية بأكملها . وقد أزعجني ما رأيته

من تدهور سريع فى المقاومة الفرنسية بعد أن اخترقت الجبهة . وكان الاندفاع الالمانى يسير على الطرق الرئيسية التى لم تغلق على ما يظهر فى نقطة من النقط .

وقد بدأ فيجان بعقد اجتماع للتشاور مع كبار قواده وكان من الطبيعى أن يرى الوضع فى الشمال بنفسه ويتصل بالقادة ولنا أن نتسامح مع قائد تولى قيادة معركة خاسرة فى عنفوان الأزمة . مع ضيق الوقت . ولم يكن فى مقدروه أن يترك ما تبقى تحت قيادته من قوات ويشغل نفسه بأعمال التأخير والجهد الناتجين عن حركات شخصية ونستطيع أن نلاحظ ما حدث بالتفصيل .

فى صباح اليوم العشرين تسلم فيجان زمام الامور من جملان وتهيأ لزيارة جيوش الشمال فى الحادى والعشرين . ولما علم بأن الطرق من الشمال قد قطعت قرر أن يطير . وهوجمت طائرته واضطر إلى الهبوط فى كاليه . وتقرر تأجيل موعد الاجتماع الذى سيعقده فى أيبرس إلى الساعة الثالثة بعد ظهر الحادى والعشرين ثم اجتمع مع الملك ليوبولد البلجيكى والجنرال بيلوتى أما اللورد جورت فانه لم يحضر الاجتماع لأنه لم يكن قد أبلغ بموعده أو مكانه ولم يحضره أى ضابط بريطانى . وقد وصف الملك هذا الاجتماع بأنه كان عبارة عن « أربع ساعات من الاحاديث التى لا طائل وراءها» وقد تناول الحديث تنظيم الخطط بين الجيوش الثلاثة وتنفيذ خطة فيجان . فإذا لم تنجح فينسحب البريطانيون والفرنسيون إلى ليز والبلجيكيون إلى الايزر ، وكان من المقرر أن ينصرف فيجان فى الساعة السابعة من المساء ولم يصل جورت إلا فى الثامنة فعرض عليه الجنرال بيلوتى وصف ما دار فى الاجتماع وقد انتقل فيجان بالسيارة إلى كاليه حيث أقلته غواصة إلى دييب ثم عاد إلى باريس . وانتقل بيلوتى بسيارته ليعالج الأزمة ولم تمض ساعة حتى كان قد قتل فى حادث سيارة . وهكذا أصبح كل شىء فى يد القدر من جديد .

وعاد أيرونسايد فى الحادى والعشرين يقول إن اللورد جورت حين تلقى أوامر وزارة الحرب ظهر أنها لاتتفق وفكرة الاتجاه نحو الجنوب لان معناها القيام بأعمال مؤخرة ومعوقة على الشلدت . والاندفاع فى الوقت نفسه بهجوم على منطقة يحتلها العدو بقوات كبيرة من المدرعات والمعدات الميكانيكية وفى مثل هذه الحركة يجب

عليه أن يحتاط بجناحيه وقد لا يكون الجيش الفرنسى الاول أو البلجيكيون فى وضع يستطيعون معه التمشى مع هذه المناورة ولو حاولوا القيام بها . وأضاف ارونسايد أن الفوضى تسيطر على القيادة الفرنسية العليا فى الشمال وأن الجنرال بيلوتى قد فشل فى تنفيذ واجباته الخاصة بالتنظيم فى الأيام الثمانية الأخيرة . وكأنه يعمل وليس لديه خطة معينة . وأن قوة الحملة البريطانية لم تزل متمتعة بروح معنوية عالية . ولم تصب إلى الآن بأكثر من خمسمائة إصابة . وقد وصف ارونسايد بوضوح حالة الطرق وازدحامها بطوائف اللاجئين الذين تهاجمهم نيران الطائرات الألمانية بلا انقطاع . وقد لاقى هو نفسه مثل هذه الظروف .

ومن ثم أصبحت وزارة الحرب أمام طريقين رهيبين . أولا : أن يقوم الجيش البريطانى سواء وجد عوناً من الفرنسيين أو البلجيكيين أو لم يجد بشق طريقه نحو الجنوب فى اتجاه السوم مهما تكلف فى سبيل ذلك . وهذه خطة يشك اللورد جورت نفسه فى إمكان نجاحها وإمكانه تحقيقها .

وثانيا : أن يتراجع نحو دنكرك حيث يكون الجلاء عن طريق البحر تحت نيران العدو الجوية . مع التأكد من خسارة كل ما لديه من مدافع وعتاد وكلها نادر وثمين فى ذلك الوقت . ولاشك أن تحقيق الخطة الأولى فيه ما فيه من مخاطر جمة . ولكن ليس هناك ما يمنع من اتخاذ كل ما يمكن من احتياطات واستعدادات لتأمين الجلاء عن طريق البحر إذا فشلت الخطة الأولى . وقد اقترحت على زملائى أن أذهب إلى فرنسا لمقابلة رينو وفيجان للوصول إلى حل . وكان من المقرر أن يلاقينى ديل قادماً من قيادة الجنرال جورج .

* * *

فلما وصلت إلى باريس فى الثانى والعشرين من شهر مايو كان ثمة وضع جديد . فقد ذهب جملان واختفى دلادييه من المسرح الحربى . وكان رينو يتولى رآسة الوزارة ووزارة الحرب معاً : ولم تعد باريس مهددة بعد أن وجه الألمان هجومهم نحو البحر .

وكانت القيادة العامة ما زالت فى فنسان . وحوالى الظهر نقلنى رينو بسيارته

إلى هنالك . وقد رأيت فى الحديقة عدداً من الضباط الذين سبق لى أن رأيتهم يلتفون بجملان . وكان بينهم أحد ضباط الفرسان يروح ويغدو وقال مرافقى معلقاً : هؤلاء رجال العهد المنصرم . ودخلت مع رينو إلى حجرة فيجان ثم انتقلنا إلى حجرة الخرائط حيث انتشرت أمامنا خرائط القيادة العليا واستقبلنا فيجان وهو على الرغم من جهوده الشاقة التى قام بها فى المساء بادى النشـاط والحيوية وقد ترك أثراً طيباً فى نفوس الجميع وأسرع فبسط الخطة التى وضعها للحرب . فهو غير راض عن مجرد زحف تقوم به الجيوش الشمالية نحو الجنوب ومن رأيه أن تقوم هـذه الجيوش فى اتجاه جنوبى شرقى يبدأ من كبريه واراس فى اتجاه سان كنتان بحيث تلتف حول جناح الفرق الألمانية المدرعة التى تشتبك بما دعاه « جيب سان كنتان — أميان » .

وقال إن الجيش البلجيكى يستطيع أن يقوم بحماية مؤخرة هذه الجيوش الشمالية من ناحية الشرق والشمال كذلك إذا احتاج الأمر وفى مقدور جيش فرنسى جديد يقوده الجنرال فرير . ويتألف من ثمـانى عشرة فرقة إلى عشرين إذا سحب من الألزاس ومن خط ماجينو ومن أفريقيا ومن سائر النواحى الأخرى أن يؤلف جبهة على نهر السوم وفى استطاعة هذا الجيش أن يحرك ذراعه اليسرى نحو اميان إلى آراس وأن يبذل جهوداً كبيرة للاتصال بجيوش الشمال ومن الواجب أن يبقى سلاح العدو المدرع تحت ضغط دائم . وقال فيجان « ويجب على كل حال أن لا يترك زمام المبادرة فى أيدى فرق العدو المدرعة » وقد صدرت جميع الأوامر اللازمة . وقيل لنا إن الجنرال بيلوتى الذى أطلعه على خطة كاملة قد قتل منذ قليل فى حادث سيارة . وقد كنت متفقاً مع ديل على أنه ليس لنا خيار فى غير هذه الخطة . وأكدت أن من الضرورى قبل أى شىء إعادة الاتصال بين جيوش الشمال وجيوش الجنوب عن طريق آراس وأن على اللورد جورت فى نفس الوقت الذى يشق فيه طريقه نحو الجنوب أن يظل محتفظا بطريقه مفتوحاً إلى البحر . وحتى أكون على ثقة من عدم وجود أى خطأ فيما اتفقنا عليه أمليت بنفسى ملخصاً للقرار وأطلعت عليه فيجان فوافق ومن ثم نقلت القرار إلى وزارة الحرب التى نقلته إلى اللورد جورت .

ومن هذه الخطة التى وضعها فيجان يتبين أنها لم تـكن تختلف كثيرا عن التعليمات

رقم ١٢ التى أصدرها جملان وألنيت . ولم تكن بعيدة عن وجهة النظر القديمة التى ارتأتها وزارة الحرب فى التاسع عشر . فعلى جيوش الشمال أن تشق طريقها نحو الجنوب فى عمل هجومى . وتحطم ما أمكن من الاندفاع الذى أحدثه العدو بقواته المدرعة . وكان مقرراً أن تلقى هذه الجيوش اندفاعاً مقابلا من اميان . تقوم به مجموعة الجيوش الفرنسية الجديدة بقيادة الجنرال فرير . وكان هذا الشرط ذا أهمية كبيرة إذا تحقق . ولقد شكوت فى حديث خاص بينى وبين مسيو رينو . من أن اللورد جورت لم يتلق أى أمر خلال أربعة أيام متوالية . وقد مضت ثلاثة أيام منذ تولى فيجان القيادة فضاعت فى اتخاذ القرارات . وإذا كان التغيير الذى حدث فى القيادة العليا عملا سديدا فإن التأخير الذى ترتب عنه كان سيئاً للغاية .

إن الحاجة إلى توجيهات القيادة العليا ونقصها تجعل للأحداث وأعمال العدو أثرها البالغ فى أعمال التوجيه وقد خاضت القوات البريطانية بجرار آراس معركة صغيرة معزولة بين الحادى والعشرين والثالث والعشرين . ولكن بعض سلاح العدو المدرع الذى يقوده جنرال يسمى رومل كان نوباً كل القوة . وقد اعتمد الجنرال فيجان حتى تلك اللحظة على جيش الجنرال فرير المتقدم من أميان والبرت وبيرون تجاه الشمال . ولم يكن قد حقق أى تقدم يذكر . إذ كان ما زال فى دور التكوين والتجمع .

* * *

وقد أحست وزارة الحرب والدوائر العسكرية العليا أن من الواجب الإفادة من كفاية السير جون ديل ومعلوماته الاستراتيجية بتعيينه كبيراً للمستشارين العسكريين بعد أن كان منذ الثالث والعشرين من أبريل يقوم بوظيفة نائب لرئيس أركان حرب قوات الامبراطورية . ولم يكن ثمة من شك فى أنه يفوق ايرونسايد فى نواح كثيرة .

وإذا كانت المعركة المنيفة تقترب من قمتها كنت أنا ورفقائى نرغب رغبة شديدة فى أن يصبح السير جون ديل رئيساً لهيئة أركان حرب الامبراطورية . وكان علينا

كذلك أن نختار قائداً عاماً للجزر البريطانية إذا تعرضنا للغزو . وكنا فى ليلة الخامس والعشرين وفى ســاعة متأخرة أنا وايرونسايد ودبل وايسمان وواحد أو اثنان آخران · ندرس الوضع فى غرفتى بدار الأميرالية . وقد أبدى الجنرال ايرونسايد استعداده للتخلى عن رئاسة أركان حرب الأمبراطورية . واستعداده لقيادة القوات بالجزر البريطانية . وإذا نظرنا إلى الظروف الشاقة التى كانت أمام هذه القيادة اتضح لنا مقدار ما ينطوى عليه هذا العرض من روح التفانى والتضحية .

وقد وافقت على اقتراح الجنرال ايرونسايد . ولا شك أن الأوسمة والتقدير الذى لاقاه فيما بعد كان يرجع إلى تقديرى لموقفه العظيم فى تلك الفترة .

وقد أصبح السير جون ديل رئيساً للأركان العامة فى السابع والعشرين من شهر مايو وقد كانت هذه التغييرات مناسبة فى ذلك الحين ·

الزحف نحو البحر

نستطيع أن نستعرض الآن عند هذا الحد سير هذه المركة التي لا تنسى . كان هتلر هو الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يخترق حياد بلجيكا وهولندا . ولن تدعو بلجيكا الحلفاء لمساعدتها إلا إذا هوجمت . ومن ثم أصبح زمام المبادرة العسكرية في أيدي هتلر وقد وجه ضربته في العاشر من شهر مايو . وبدلا من أن تتربص الجيوش الفرنسية الأولى ومعها الجيوش البريطانية وراء خطوطها المحصنة أسرعت إلى الوثوب في خطة يائسة إلى بلجيكا لإنقاذها بنـاء على خطة الجنرال جملان تدعى الخطة (د) وكان الفرنسيون قد خلفوا الفجوة المقابلة للاردين وتركوها سيئة التحصين ضعيفة الدفاع . وقد تمكن اندفاع مدرع لا مثيل له في تاريخ الحرب من اختراق قلب خط الجيوش الفرنسية وأصبح في خلال ثمان وأربعين ساعة يهدد بالقطع سائر جيوش الشمال عن خطوط مواصلاتها الجنوبية وعن البحر كذلك . وكان على القيادة الفرنسية العليا في الرابع عشر من شهر مايو على الأكثر أن تصدر أوامرها الاضطرارية إلى هذه الجيوش بالانسحاب العام بكل ما تستطيع من سرعة ، راضية لا بالمجازفة فحسب بل بالخسائر الجسيمة في المعدات كذلك ولـكن الجنرال جملان لم يقابل هذا الأمر بما فيه من واقع أليم وكان القائد الفرنسي لمجموعة الجيوش الشمالية وهو بيلوتي أعجز من أن يتخذ القرارات الضرورية بنفسه وقد عمت الفوضى سائر الجيوش القائمة على الجناح الأيسر المهدد .

فلما أحست هـذه الجيوش بقوة العدو المتفوقة تراجعت وتقهقرت وعندما التفت الحركة التطويقية حول ميمنتها أقامت جناحاً دفاعيا . ولو بدأت هذه الجيوش تراجعها العام في الرابع عشر لبلغت في السابع عشر منه خطها القديم . ووجدت الفرصة للنجاة من الطوق لـكن هذه الجيوش فقدت ثلاثة أيام على أقل تقدير وهي أيام مدمرة . وأخذت وزارة الحرب البريطانية منذ السابع عشر منه ترى بوضوح أن القتال العاجل نحو الجنوب هو وحده الذي يمكن به إنقاذ الجيش البريطاني . وكانت الوزارة البريطانية تلح على الحكومة الفرنسية وعلى الجنرال جملان بوجهة نظرها هذه ولـكن

القائد البريطانى اللورد جورت كان يشك فى نجاح هذه الخطة القائمة على إشغال العدو فى جبهات القتال فى حين يجب خرق جبهة واحدة لكى يتم التراجع . وفى التاسع عشر ترك الجنرال جملان الخدمة وخلفه الجنرال فيجان وكانت أوامر جملان الأخيرة رقم ١٢ سليمة من ناحية المبدأ وإن تأخرت خمسة أيام عن الموعد الذى يجب أن تصدر فيه . وكانت متفقة والاستنتاجات الرئيسية التى وصلت إليها وزارة الحرب البريطانية ورؤساء أركان حربها ، وقد أدى تغيير القيادة فى وقت الحاجة إليها إلى تأخير ثلاثة أيام أخر ولم تكن خطة فيجان التى اقترحها بعد زيارته الجبهة الشمالية سوى خطة على الورق وهى فى حقيقتها خطة جملان نفسه ولكن بعد أن أصبحت ميئوساً منها من جراء الإبطاء فى تنفيذها .

وإزاء هذا الموقف المزعج الذى نواجهه وجدنا أنفسنا مضطرين لقبول خطة فيجان وبذلنا غاية الجهد لتنفيذها وإن كانت جهودنا قد أصبحت وليس لها أثر فعال وقد واصلناها حتى الخامس والعشرين حين انقطعت سائر المواصلات . وصد الألمان هجومنا المضاد الضعيف واحتلوا آراس . وتدهورت الجبهة البلجيكية . وأوشك الملك ليوبولد على أن يستسلم وأصبح كل أمل فى الانسحاب إلى الجنوب ضائعاً ولم يبق أمامنا إلا البحر . فهل نستطيع أن نصل إليه أم أننا سنطوق وتحطم جيوشنا فى الميدان ومهما يكن الأمر فإن علينا أن نفقد كل ما لجيشنا من مدفعية ومعدات . مما لا يمكن تعويضه إلا بعد بضعة أشهر . ولكن ما قيمة كل هذا أمام إنقاذ الجيش وهو الأساس الذى يقوم عليه بناء قوتنا فى المستقبل وبدأ اللورد جورت الذى شعر منذ اليوم الخامس والعشرين بأن الجلاء بالبحر هو فرصتنا الوحيدة يقيم رأس جسر حول دنكرك وقد شق طريقه إليه بكل ما تبقى لديه من قوة . وكنا فى حاجة ماسة إلى كل ما يمتاز به البريطانيون من نظام وامتثال وما يمتاز به قوادهم من مهارة أمثال بروك والكساندر ومونتجومرى وكنا نحتاج إلى أكثر من هذا لنقوم بعمل كل ما فى طاقة الإنسان أن يعمله .

***

وسندرس الآن قصة كثر فيها الكلام والجدل . ذكر الجنرال هولدر رئيس

أركان حرب القيادة الألمانية أن هتلر تدخل فى هذه الفترة تدخلا مباشراً فى المعركة لأول مرة . إذ أصبح كما يذكر ذلك القائد العليم بهذا الموضوع « فى خوف على فرقه المدرعة لأنها كانت فى موقف خطر إلى حد بعيد ، فى أرض صعبة تحيطها القنوات ولا تستطيع أن تحقق نتائج ذات أهمية » وقد أدرك أنه لا يستطيع أن يضحى بفرقه المدرعة دون فائدة لأنه يراها ضرورية لمرحلته الثانية من الحملة . وقد رأى أن تفوقه الجوى يتيح له أن يحول دون وقوع جلاء واسع النطاق عن طريق البحر لهذا أرسل من طريق براوخيتش يامر « التشكيلات المدرعة بأن تتوقف أو تتراجع فى بعض المراكز المندفعة » ومن ثم أصبح الطريق مفتوحاً على تعبير هولدر ، أمام البريطانيين ليصلوا إلى دنكرك . وعلى أية حال فقد استطعنا أن نلتقط رسالة المانية فى الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثانية والأربعين من صباح الرابع عشر من شهر مايو فيها أمر بوقف الهجوم على دنكرك فى ذلك الوقت ويقول هولدر إنه بالنيابة عن القيادة العليا رفض التدخل فى حركة مجموعة الجيوش التى يتولى قيادتها رونشتادت ، كانت لديها أوامر صريحة بمنع العدو من الوصول إلى الساحل . وأضاف أنه كلما كان النجاح هنا أتم وأسرع كان من الأسهل الاستعاضة عن الدبابات المفقودة فيما بعد .

ونقض الخلاف بأمر صريح من هتلر نفسه قال فيه إنه يريد أن يضمن تنفيذ أمره بارسال ضابط اتصال شخصى إلى الجبهة وقال هولدر « ولم أستطع أن أعرف كيف اقتنع هتلر بضرورة عدم تعريض الفرق المدرعة للخطر . وقد يكون كايتل الذى كان قد أمضى فى الحرب العالمية الأولى مدة طويلة فى جبهة الفلاندرز قد أوحى إليه بهذه الآراء بالقصص التى كان يرويها له » .

وقد روى قادة آخرون من الألمان هذه القصة نفسها . وأشاروا إلى أن دوافع سياسية دعت هتلر إلى إصدار هذا الأمر . وترمى إلى تحسين فرص السلام مع انكلترا بعد هزيمة فرنسا . وتروى بعض الوثائق التى ظهرت فيما بعد فى صورة يوميات صادرة من مقر قيادة رونشتادت قصة مختلفة كل الاختلاف . فقد وردت الاوامر عند منتصف ليلة « الثالث والعشرين من مقر القيادة بتوقيع براوخيتش تؤكد أن الجيش الرابع سيبقى تحت قيادة رونشتادت للقيام « بالفصل الأخير من المعركة » وحضر هتلر فى صباح اليوم

التالى لزيارة رونشتادت فأبلغه أن سلاحه المدرع الذى توغل هذه المسافة البعيدة وبمثل هذه السرعة قد وهنت قوته وأصبح فى حاجة إلى التوقف فترة من الزمن لإعادة تنظيمه واستعادة التوازن والقوى . حتى يستطيع أن يوجه الضربة الاخيرة ضد العدو الذى « يحارب بقوة قاهرة » وقد توقع رونشتادت كذلك أن تتعرض قواته الممتدة فى مسافات شاسعة لهجمات من الشمال أو الجنوب . طبقا لخطة فيجان . وهى الخطة التى إذا نفذت كانت العملية الوحيدة التى يمكن للحلفاء أن يقوموا بها كضربة مضادة . وقد اتفق هتلر معه كل الاتفاق . لاسيما وقد كان يشعر بضرورة توفير القوات المدرعة لعمليات مقبلة ، ومع ذلك فقد جاء فى الصباح الباكر أمر جديد بتوقيع بروخيتش القائد العام باستمرار تقدم السلاح المدرع . ولكن رونشتادت . رفض تنفيذ هذا الأمر وهو معتمد على موافقة هتلر الشفوية ولم ينقل الأمر إلى قائد الجيش الرابع كلوجه الذى طلب إليه أن يواصل جمع قواته المدرعة . وقد احتج كلوجه على التأخر ولكن رونشتادت لم يصدر أوامر القيادة العليا إلا فى اليوم التالى أى فى السادس والعشرين وقد أضاف أن دنكرك نفسها يجب ألا تهاجم بصورة مباشرة وتقول اليوميات إن الجيش الرابع أعان احتجاجه على هذا التحديد . وقال رئيس أركان حربه فى السابع والعشرين :

« إن الحالة فى موانى القناة تبدو على الصورة التالية : البواخر الكبيرة تقترب من الأرصفة : وتمد الالواح الخشبية إلى الشاطىء وسرعان ما تمتلىء أسطح هذه البواخر بالرجال أما العتاد الحربى فيتركونه جميعه وراءهم . ولكننا لانريد أن نرى هؤلاء الرجال وقد أعادوا تسليحهم من جديد وتصدوا لنا مرة ثانية » .

ويبدو من هذا أن السلاح المدرع قد توقف . وأن الامر الصادر بتوقفه لم يكن من هتلر ولكن من رونشتادت ولاشك أن لرونشتادت وجهة نظره فى هذا الموضوع تتعلق بأوضاع السلاح المدرع نفسه ثم بالمعركة بصفة عامة ولكن كان يجب عليه أن يخضع للأوامر الرسمية الصادرة عن القيادة العليا أو أن يبلغ هذه القيادة ما قاله هتلر فى محادثاتهما . وثمة اتفاق تام بين القادة الألمان على أن فرصة عظيمة قد ضاعت منهم .

* * *

وكان هناك سبب خاص ، له تأثيره على حركات السلاح الألمانى المدرع فى تلك المرحلة الحاسمة .

فبعد أن وصل الألمان إلى البحر وراء ابيفيل ليلة العشرين من الشهر اتجهت الوحدات المتقدمة من الصفوف الألمانية المدرعة والآلية شمالا نحو بولون وكاليه ودنكرك . لقطع الطريق على الفرار من ناحية البحر . وكانت هذه الطريقة ماثلة فى خاطرى منذ الحرب الماضية حين حافظت على اللواء البحرى المتحرك ، العامل من دنكرك ضد جناحى ومؤخرة الجيوش الألمانية الزاحفة على باريس ومن ثم لم أكن فى حاجة إلى معلومات جديدة عن نظام الرى والقنوات بين كاليه ودنكرك ، ولا إلى معرفة جديدة عما للخطوط المائية فى هذه المنطقة من الأهمية . وقد فتحت السدود . وأخذ الفيضان يزداد يوماً بعد يوم ويتدفق ماؤه فيحمى خط تراجعنا من جهة الجنوب . وأصبح من الضرورى الدفاع عن بولون لا سيما عن كاليه إلى آخر لحظة ، لما لذلك من الأهمية فى هذه الحالة المضطربة من المعركة . وأرسلت الحاميات إلى الميناءين من انكلترا فى الحال . وقد عزلت بولون وهوجمت فى الثانى والعشرين من شهر مايو وكان يتولى الدفاع عنها فريقان من الحرس وبطارية من البطاريات القليلة المضادة للدبابات التى فى حوزتنا ومعنا وحدة فرنسية صغيرة وبعد ست وثلاثين ساعة قضيناها فى المقاومة بدا أنها أمر مستحيل وقد وافقت على إجلاء حاميتها التى تشمل الفرنسيين كذلك بطريق البحر . وقامت ثمانى مدمرات فى ليلة الثالث والعشرين والرابع والعشرين بنقل من تبقى من الرجال بعد خسارة ما يقرب من مائتى رجل وواصل الفرنسيون الدفاع عن القلعة حتى صباح اليوم الخامس والعشرين فأحسست ندماً على جلاء قواتنا .

وكنت قبل أيام قلائل قد عهدت إلى رئيس أركان حرب القوات الإمبراطورية . أن يتولى الدفاع عن موانىء المانش مباشرة . وكان على اتصال دائم بى . ثم قررت الدفاع عن كاليه حتى الموت وأن لا تجلو حاميتها التى تتألف من فريق من حملة البنادق . وفريق آخر من الكتيبة الستين . وفريق من كتيبة الملكة فكتوريا ، وبطارية المدفعية المضادة للدبابات التاسعة والعشرين وفريق من الدبابات وعدد من

الدبابات الخفيفة ، وقوات فرنسية مماثلة بطريق البحر وكان من المؤلم التضحية بهذه القوات المظيمة المدربة التي قل أن يوجد عندنا مثيل لها . طمعاً في أن نكسب يومين أو ثلاثة أيام يشك في نتائجها . وقد وافق وزير الحربية ورئيس أركان حرب الامبراطورية على هذا العمل الشاق .

وفي ليلة السادس والعشرين من شهر مايو اتخذنا قراراً بعدم إنقاذ الحامية . وكانت المدمرات حتى ذلك التاريخ على استعداد تام . وكان إيدن وإيرونسايد معي في الأميرالية . فلما خرجنا من العشاء في الساعة التاسعة مساء تلك الليلة كنا قد اتخذنا القرار . وكان بين هذه القوات الفريق الذي كان يعمل فيه ايدن وحارب معه في الحرب العالمية الأولى . وإذا كان للإنسان أن يأكل ويشرب حتى في أيام الحرب فقد كان هذا القرار يهز في نفسي ونحن على مائدة العشاء إلى حد المرض وكانت كاليه موضع الخطورة . وقد تحول بيننا وبين إنقاذ دنكرك عوامل أخرى . ولكن مما لاشك فيه أن الأيام الثلاثة التي كسبناها بالدفاع عن كاليه قد قوت خطنا المائي في « جرنفلاند » ومكنته من المقاومة وعلى الرغم من تردد هتلر وأوامر رونشتادت فإن خطوطنا كانت ستقطع وتضيع سائر قواتنا .

***

ووقعت في خلال ذلك كارثة . فالألمان الذين لم يكونوا قد ضغطوا على الخط البلجيكي ضغطاً شديداً حطموا هذا الخط على جانبي كورتاني في الرابع والعشرين من شهر مايو . وهي منطقة لا تبعد أكثر من ثلاثين ميلا عن أوستند ودنكرك . وقد اعتبر ملك بلجيكا أن الوضع أصبح ميئوساً منه وتهيأ للاستسلام .

وفي ليلة الخامس والعشرين اتخذ اللورد جورت قراراً حيوياً وكانت الأوامر الصادرة إليه حتى تلك الليلة هي أن يتابع خطة فيجان بأن يوجه هجومه نحو الجنوب في اتجاه كمبريد ويستخدم في هذا الهجوم الفرقتين الخامسة ، والخمسين بالاشتراك مع الفرنسيين . ولم يتم الهجوم الفرنسي الموعود باتجاه الشمال من منطقة السوم . وتم إخلاء آخر المناطق المدافعة عن بولون . أما كاليه فكانت لا تزال ثابتة . وقرر اللورد جورت التخلي عن خطة فيجان فلم تعد خطة الزحف نحو الجنوب ونحو السوم

باقية . وفى خلال ذلك تم انهيار الخط البلجيكى ، والفجوة التى فتحها الألمان فى الشمال لها خطرها . وقد قرر جورت عن ثقة بمقدرته العسكرية واقتناع بانهيار كل إشراف من جهة الحكومتين البريطانية والفرنسية على ميدان المعركة وفقدان كل سيطرة للقيادة العليا الفرنسية عليها — أن يتخلى عن فكرة الهجوم تجاه الجنوب . وأن يسد الثغرة التى ستنفتح عاجلا باستسلام بلجيكا فى الشمال .

ويزحف تجاه البحر ومن ثم يكون الأمل الوحيد فى إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الدمار أو الاستسلام . وفى الساعة السادسة مساء أصدر أوامره إلى الفرقتين الخامسة ، والخمسين بالانضمام إلى اللواء البريطانى الثانى لمحاولة سد الثغرة فى الخطوط البلجيكية . ونقل إلى الجنرال بلانشار الذى خلف بيلوتى فى قيادة مجموعة الجيوش الفرنسية الأولى هذه الأوامر . وقد اعترف هذا الضابط بوقع الاحداث وشدتها . فأصدر أوامره فى الساعة الحادية عشرة والنصف مساء بالانسحاب فى ذلك اليوم إلى خط وراء قناة ليز غرب ليل . وقد صمم على أن يقيم رأس جسر حول دنكرك .

ووضع جورت وبلانشار فى الصباح الباكر من اليوم السادس والعشرين من شهر مايو خطتهما للانسحاب تجاه الشاطىء ولما كان على الجيش الفرنسى أن يقطع مسافة أطول . فقد كانت الحركات الأولى لقوات الحملة البريطانية بمثابة تمهيد مبدئى . وظلت القوات الخلفية للوائين البريطانيين الأول والثانى باقية فى الخطوط الدفاعية للجبهة حتى ليلة السابع والعشرين والثامن والعشرين من شهر مايو . وكان اللورد جورت فى جميع هذه الخطوات يعمل برأيه وعلى مسئوليته . ولكننا كنا فى هذا الوقت على ضوء بعض المعلومات قد وصلنا إلى نفس النتائج . وقد صدرت إليه برقية فى السادس والعشرين من وزارة الحربية تؤيد ما قام به من إجراءات وتتيح له أن يتحرك تجاه الساحل متعاونا مع الجيوش الفرنسية والبلجيكية وبدأ حشد أكبر عدد ممكن من السفن من مختلف الأحجام والأشكال على نطاق كبير .

وفى أثناء ذلك . استمرت عملية إقامة رءوس الجسور حول دنكرك . وتقرر أن يحتفظ الفرنسيون بالمواقع الممتدة من « جريفلاين » إلى برج وأن يحافظ البريطانيون على القناة من فيرنز إلى نيوبورت والساحل ، وبدأت الجماعات المختلفة

تتدفق إلى هذا الخط من جميع الأسلحة وهى تصل من شتى الجهات . وتلقى اللورد جورت من وزارة الحربية أمراً مؤكداً للامر الصادر إليه فى السادس والعشرين . فى برقية مؤرخة فى السابع والعشرين تقول « إن مهمته أصبحت منحصرة فى إجلاء أكبر عدد ممكن من الرجال » وكنت قد أبلغت المسيو رينو فى اليوم السابق أن سياستنا أصبحت محصورة فى إجلاء قوات الحملة البريطانية وطلبت إليه أن يصدر أوامر مماثلة . وكان انقطاع المواصلات له أثره الكبير حتى أن قائد الجيش الفرنسى الأول أصدر أمراً فى الساعة الثانية بعد ظهر السابع والعشرين إلى جنوده قال فيه « إن المعركة تدور الآن حول خط ليز دون تراجع » .

وقد أصبحت أربع فرق بريطانية مهددة بالخطر . والجيش الفرنسى الأول جميعه مهدداً بالانقطاع والعزلة حول ليل . وأخذ جناحا الحركة التطويقية الألمانية يبذلان جهدهما لانطباق الكماشة على هذه القوات الفرنسية والبريطانية . وكانت هذه اللحظة من اللحظات الفريدة الحاسمة . حيث تلعب وسائل النقل الميكانيكية دورها .

ولما أصدر اللورد جورت أمره تراجعت هذه الفرق الأربع بسرعة مدهشة فى ليلة واحدة . وقد استطاعت بقية الجيش البريطانى فى خلال ذلك عن طريق المعارك الطاحنة على جانبي المنطقة الإبقاء على الممر المؤدى إلى البحر مفتوحا . وقد تمكن طرفا الكماشة من الالتقاء أخيراً ليلة التاسع والعشرين فى صورة تشبه تلك العملية الروسية العظيمة حول ستالنجراد سنة ١٩٤٢ بعد أن تأخرا بمجهود الفرقة الخامسة ثلاثة أيام وقد استغرقت عملية إغلاق الكماشة يومين ونصف يوم . وفى خلال ذلك الوقت كانت الفرق البريطانية وجزء كبير من الجيش الفرنسى الاول باستثناء الجيش الخامس الذى فقد ، قد انسحبت جميعها بانتظام عند الثغرة على الرغم من اعتماد الفرنسيين على الخيول فى مواصلاتهم وعلى الرغم من قطع الطرق الرئيسية الممتدة إلى دنكرك ومن امتلاء الطريق الفرعية بالقوات المنسحبة وبقوافل طويلة من وسائل المواصلات والوف اللاجئين .

وكنت قد طلبت إلى المستر تشمبرلين منذ عشرة أيام أن يدرس مع الوزراء هل نستطيع الاستمرار فى الحرب وحدنا .

ثم عرضت الأمر على مستشارينا العسكريين بصفة رسمية . وتعمدت أن أضع صيغة السؤال في عبارة تتيح لرؤساء أركان الحرب . أن يعبروا عن آرائهم بحرية مهما تكن هذه الآراء . وكنت أعرف من قبل أنهم مصممون على الاستمرار في الحرب . ولكني رأيت أن من السداد الاحتفاظ بسجلات خطية لهذه القرارت وأردت أن أجد الفرصة التي تتيح لي أن أؤكد للبرلمان أن وراء تصميمنا آراء الخبراء العسكريين المحترفين . وهأنذا أورد فيما يلي السؤال ورد أركان الحرب عليه .

١ — لقد استعرضنا تقريرنا عن استراتيجية بريطانيا إذا وقع تطور خاص على ضوء المهمة التي عهد إلينا بها رئيس الوزراء في الرسالة التالية :

إذا عجزت فرنسا عن الاستمرار في الحرب . ووقفت موقف الحياد واحتفظ الألمان بمركزهم الحالي مع اضطرار الجيش البلجيكي للاستسلام بعد مساعدة الحملة البريطانية على الوصول إلى الساحل . وإذا تقدمت ألمانيا بعروض تجعل بريطانيا تحت رحمتها عن طريق نزع السلاح ووقف القواعد البحرية عن العمل في جزر أوركني وما شابهها . فما هو أملنا في مواصلة الحرب وحدنا ضد ألمانيا . وربما ضد إيطاليا كذلك .

وهل يستطيع الأسطول والسلاح الجوى . أن يعطيا لنا الأمان ضد غزو خطير وهل تستطيع القوات التي تحتشد في هذه الجزر أن تتحمل الغارات الموجهة إليها من الجو والتي تشتمل على وحدات لا يزيد عددها عن العشرة آلاف رجل .

من العلم بأن إطالة مدى المقاومة البريطانية قد تكون من الخطورة بمكان على ألمانيا المشغولة بالمحافظة على الجزء الأكبر من أوروبا ؟

٢ — وقد توصلنا إلى النتائج التالية :

٣ — ما دام سلاحنا الجوى موجوداً . فيجب على الأسطول أن يتعاون معه . وفي استطاعتهما معا أن يحولا دون قيام ألمانيا بغزو خطير عن طريق البحر لهذه البلاد .

٤ — إذا فرضنا أن ألمانيا استطاعت أن تحصل على التفوق الجوى فنحن نعتقد أن فى استطاعة الأسطول أن يمنع الغزو إلى أجل محدود لا إلى أجل غير محدود .

٥ — إذا عجز أسطولنا عن منع الغزو . وزالت قوتنا الجوية من الوجود . وحاولت ألمانيا الغزو فإن قوة دفاعنا الساحلية لا يمكنها أن تحول دون تثبيت أقدام دبابات الألمان ومشاتهم على سواحلنا . وفى حالة كهذه ستكون قواتنا البرية غير كافية لمواجهة غزو جدى خطير .

٦ — إن جوهر الموضوع يقوم على التفوق الجوى . فإذا استطاعت ألمانيا الوصول إلى هذا التفوق فإنها قد تحاول إخضاع هذه البلاد عن طريق القوة الجوية فحسب .

٧ — إن ألمانيا لا تستطيع أن تصل إلى التفوق الجوى التام إلا إذا قضت على سلاحنا الجوى جميه . وحطمت مصانع طائراتنا التى يوجد منها عدد كبير وهام فى كوفنترى وبرمنجهام .

٨ — قد تقع الغارات الجوية على مصانع طائراتنا فى الليل والنهار ونرى أن علينا أن نلحق أكبر خسائر بالعدو فى غاراته النهارية حتى لا يوقع الضرر بمصانعنا . ومهما عملنا من الإجراءات الدفاعية . ونحن نبادر بما لدينا من قوة ، فليس فى مقدورنا التأكد من قدرتنا على حماية المراكز الصناعية الكبيرة التى تعتمد عليها صناعة طائراتنا . مما يصيبها من الأضرار المادية ذات الأثر البالغ التى تحل بها من جراء الغارات الليلية . وعلينا أن نحول بين العدو وبين إصابة الأهداف ونقف حائلا بينه وبين أهدافه .

٩ — ونجاح الغارات الجوية فى القضاء على صناعة الطائرات لا يقوم على الاضرار المادية التى تحدثها القنابل بل على نيل من الروح المنوية

فى نفوس العمال وعزمهم على المضى فى العمل على الرغم من الدمار الذى يحيط بهم .

١٠ — وإذا أراد العدو أن يستمر فى هذه الغارات الليلية على مصانع طائراتنا ، فقد ينال بغيته وينجح فى تحقيق ما يطمع فيه من إنزال الأضرار المادية والمعنوية داخل المناطق الصناعية حتى يشل حركة مصانعنا تماماً .

١١ — ويجب علينا أن نذكر أن الألمان يفوقوننا فى عدد الطائرات بنسبة واحد إلى أربعة فضلا عن أن مصانع إنتاج الطائرات الالمانية أكثر مناعة وتوزيعاً من مصانعنا .

١٢ — وفى مقدورنا ما دامت لدينا قوة من القاذفات أن نجعلها تقوم بغارات مماثلة على المراكز الصناعية فى ألمانيا وتدمرها وتعطلها عن العمل .

١٣ — وبالإجمال فان ألمانيا تبدو لأول نظرة وكأنها تحمل أكثر الأوراق الرابحة ، ولكن فى وسع القوة المعنوية عند جنودنا المحاربين وسكاننا المدنيين أن توازن بين قوتنا وما تتمتع به ألمانيا من مميزات فى العدد والعدد . ونحن على ثقة بأنها ستنجح فى هذه الموازنة » .

وقد وقع على هذا التقرير الذى كتب فى أشد أوقاتنا ضيقاً وظلمة . قبل انقاذ دنكرك ، رؤساء أركان الحرب الثلاثة وهم نيو وال . وباوند وايرونسايد ، ونوابهم الثلاثة ديل وفيليبس وبيرس . وأود أن أعترف بعد قراءة هذا التقرير بسنوات بخطورة الموقف الذى كنا فيه وحلكته . لكن أعضاء وزارة الحرب والوزراء القليلين الآخرين الذين اطلعوا عليه كانوا قد صمموا على أمر واحد غير قابل للجدال . فالكل قلب واحد وروح واحد .

وقد أصدرت التعليمات التالية :

٢٨/٥/١٩٤٠

سيكون من دواعي غبطة رئيس الوزراء في هذه الأيام أن يرى الروح المعنوية عالية بين زملائه الوزراء ومساعديهم من كبار الوزراء في تلك الظروف التي يعيشون فيها . وعلينا أن لا نقلل من خطورة الأحداث . ولكن علينا في الوقت نفسه أن نعلن ثقتنا التامة وعزمنا على المضي في الحرب . حتى نقضي على إرادة العدو وتصميمه على السيطرة على أوربا وإخضاعها .

وعلينا أن لا نجعل للفكرة القائلة بأن فرنسا ستعقد صلحا منفرداً أثراً في نفوسنا . ومهما طرأ على القارة الأوربية من أحداث فإن واجبنا يقضي علينا بأن نبذل كل مجهود لدينا للدفاع عن جزيرتنا وامبراطوريتنا وقضيتنا .

وفي صباح اليوم الثامن والعشرين استسلم الجيش البلجيكي .

وقد تلقى اللورد جورت إشارة بالعزم على الاستسلام قبل وقوعه بساعة واحدة . وإن كان هذا الانهيار منتظرا منذ ثلاثة أيام . وقد استطاعت القوات البريطانية أن تغلق الثغرة التي سينتهي إليها هذا التطور . وفي ذلك اليوم كان احتمال نجاة الجيش البريطاني في يد الأقدار . وقد واجه الجنرال بروك في الجبهة الممتدة من كومين إلى إيبرس ومنها إلى البحر — وهو يحاول سد الفجوة التي أحدثها البلجيكيون . معركة قاسية قاتل فيها قتالا عنيفاً بعد انسحاب البلجيكيين شمالا واستسلامهم . ولكن هذه الفجوة أخذت تتسع حتى أصبح من المتعذر سدها . . ولم يكن من المستطاع وقف الاندفاع الألماني بين الجيوش البريطانية والبلجيكية . ولكننا كنا نتوقع نتائجها المهلكة . وهي أن يتجه العدو إلى الداخل عبر الإيزار فيصل إلى السواحل وراء قواتنا المحاربة .

وقد احتمل الألمان بجلد الرد الروس الذي لحق بهم . وفي أثناء ذلك وعلى بعد أربعة

أميال فحسب وراء جبهة بروك المكافحة كانت هناك حشود كبيرة من السيارات والجنود مندفعة إلى الوراء نحو رأس الجسر القائم حول دنكرك لتصبح جزءاً لا يتجزأ من خطوطها الدفاعية . فلما جاء اليوم التاسع والعشرون من الشهر كانت قوات كبيرة من الحملة البريطانية قد وصلت إلى القطاع وكانت قد بدأت الإجراءات البحرية فى هذا القطاع تتم بنجاح . وفى الثلاثين من شهر مايو أعلنت القيادة العامة أن سائر الفرق البريطانية أو ما تبقى منها قد دخلت القطاع وقد استطاع أكثر من نصف الجيش الفرنسى الأول أن يجتاز طريقه إلى دنكرك حيث نقل أكثر رجاله من طريق البحر فى سلام . إلا أنه قطع خط الرجعة لخمس فرق على الأقل عن طريق الكماشة الألمانية التى أطبقت إلى الغرب من ليل . واستمر الفرنسيون يقاتلون فى ليل بصورة تدريجية إزاء ضغط زائد حتى أجبروا مساء الحادى والثلاثين من شهر مايو إلى الاستسلام وقد نفد مالديهم من مؤنة وعتاد وهكذا وقع نحو خمسين ألف رجل أسرى فى يد الألمان . وقد استطاع هؤلاء الفرنسيون بقيادة الجنرال مولينييه الباسل أن يثبتوا أربعة أيام شديدة أمام سبع فرق ألمانية على أقل تقدير . وكان فى استطاعة هذه الفرق أن تشترك فى الهجوم على قطاع دنكرك . ولا شك أن هذه المقاومة الباسلة كانت مساهمة ذات شأن فى إنقاذ زملائهم الذين كانوا أسعد حظا فى نجاة الحملة البريطانية .

وقد كنت فى محنة وأنا أحمل المسؤلية وأراقب بأنفاس متقطعة وعيون قلقة حائرة هذه المسرحية التى لا أستطيع أن أتحكم فيها والتى قد يؤدى التدخل فيها إلى ضرر أكثر من الفائدة . ولا شك أننا بتنفيذ خطة فيجان بالتراجع نحو السوم إلى أطول مدى ممكن قد ضاعفنا من خطورة الموقف الحرج الذى كنا نواجهه إذ ذاك ، ولكن قرار جورت الذى أسرعنا بالموافقة عليه ، والذى يقضى بالتخلى عن خطة فيجان والزحف إلى البحر قد نفذ تنفيذاً رائعاً بفضل العبقرية الفذة التى اتصف بها القائد وأركان حربه . وسيظل هذا الحادث أسطورة عظيمة فى تاريخ بريطانيا العسكرى .

إنقاذ دنكرك

كنا فى يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من شهر مايو وقد تخلفت عن مجلس العموم منذ ذلك اليوم إلى يوم الثلاثاء الذى يليه ولم أر فائدة تذكر من الإفضاء ببيان آخر فى هذه الفترة . ولم يبد الأعضاء رغبة فى الاستماع إلى مثل هذا البيان ولكنهم أدركوا جميعاً أن مصير جيشنا سيتقرر قبل أن ينتهى هذا الاسبوع وقلت « إن على المجلس أن يستعد لاستماع أنباء شديدة قاسية ، ولكننى أريد أن أضيف أنه مهما يحدث فى هذه المعركة فلن يحررنا من واجبنا فى الدفاع عن قضية العالم . التى كرسنا لها أنفسنا . ولن يضعف من إيماننا بقدرتنا على أن نشق طريقنا كما فعلنا فى ظروف مماثلة من تاريخنا الطويل حيث اقتحمنا طريق الكوارث والآلام لنلحق الهزيمة أخيراً بأعدائنا ولم أكن قد رأيت الكثيرين من زملائى الوزراء ، من غير أعضاء وزارة الحرب منذ تأليف الحكومة إلا فرادى . ورأيت أن أعقد اجتماعا عاما لجميع أعضاء الوزارة فى غرفتى بمجلس العموم . وكنا نحو خمسة وعشرين وزيراً حول المائدة . فشرحت لهم مجرى الأحداث . وبينت لهم بوضوح أين نقف ، وما هو معلق فى كفة القدر ثم قلت عرضاً وكأننى لا أرمى إلى موضوع ذى أهمية خاصة « وبالطبع مهما يحدث فى دنكرك فإننا سنمضى فى القتال » . .

وحدثت ظاهرة أدهشتنى كثيراً من هؤلاء الساسة والمحنكين ورجال البرلمان الذين يمثلون مختلف الآراء سواء أكانت صائبة أو خاطئة قبل الحرب . فقد رأيت عدداً منهم يقفز من مقعده ويسرع إلى وهو يصيح ويربت على ظهرى ولم يكن ثمة شك فى أننى إذا تخاذلت فى تلك اللحظة فى قيادتى لأمتنا لأقصيت عن منصبى . وكنت على يقين من أن كل وزير كان على أتم استعداد للتضحية بروحه فى هذه اللحظة . وكانوا كأفراد يمثلون مجلس العموم بسائر اتجاهاته ومن ثم فهم يمثلون الشعب البريطانى جميعاً . وقد كان لى فى الأيام والشهور التالية أن أتكلم باسم هؤلاء جميعاً وأعبر عن مشاعرهم فى كثير من المناسبات وكان ذلك حقاً على وكنت أعبر عنها

خير تعبير لأنها كانت عواطف نفسها . وكان هناك خيط رفيع من النور يشرف على جزيرتنا من أقصاها إلى أدناها .

***

ولقد كتب الكثير من البيانات الدقيقة لجلاء القوات البريطانية والفرنسية عن دنكرك . فمنذ اليوم العشرين من شهر مايو تقدمت مجموعة البواخر والقطع الصغيرة في سيرها الحثيث تحت قيادة الأميرال رمزي الذي يتولى قيادة موقع دوفر . وأعلنت الأميرالية مساء اليوم السادس والعشرين من شهر مايو وضع عملية « دينامو » موضع التنفيذ . وقد وصلت إلى الوطن أول قوات جلت عن دنكرك . وإذ ضاع منا ميناءا بولون وكاليه . لم يبق لنا إلا ما بقى من ميناء دنكرك والشواطىء الرملية القريبة من الحدود البلجيكية . ورأينا أن أقصى ما يمكن إنقاذه في ذلك الوقت هو نحو خمسة وأربعين ألف رجل في يومين . وفي السابع والعشرين اتخذت إجراءات الطوارىء للحصول على أكبر عدد ممكن من السفن الصغيرة للقيام بواجبات خاصة . ومعنى ذلك إجلاء مالا يقل عن نصف قوات الحملة البريطانية . وكان معلوماً أن عددا كبيرا من هذه السفن الصغيرة والزوارق ستكفي للجلاء عن الشواطىء الرملية بينما تقوم السفن الكبيرة بعملها في ميناء دنكرك نفسه . وقام ضباط الأميرالية بإشارة من المستر ريجز من وزارة الملاحة . بالبحث في جميع أحواض الزوارق بين تيدلنجتون وبرايتلنجس فعثروا على نحو أربعين زورقا بخاريا ولنشا وكلها صالحة للعمل وقد تم حشدها في شيرنيس في اليوم التالي وقد جمعت في نفس الوقت جميع القوارب والزوارق واليخوت وسفن الصيد الصغيرة . وكل ما على سواحل البحر من وسائل النقل وكلفت بالعمل ، وفي اليوم السابع والعشرين من شهر مايو اندفع سيل دافق من هذه القطع الصغيرة إلى البحر نحو شواطىء دنكرك لإنقاذ جيشنا المحبوب .

وبعد أن انكشف ستار السرية عن هذه الحركة . أطلقت الأميرالية دون تردد الحرية لكل حركة من الحركات التي اجتاحت أهالي السواحل الجنوبية والجنوبية الشرقية من عشاق البحار وقد استطاع كل من له قارب أو زورق بخاري كان أو

شراعى أن يبحر إلى دنكرك . وهكذا قويت الاستعدادات التى بدأناها لحسن الحظ منذ أسبوع بهذه الدفقة من الحماس العظيم الذى أبداه المتطوعون بطريقة مدهشة وكان عدد القوارب التى وصلت فى التاسع والعشرين صغيرة . ولكنها كانت مقدمة لنحو ربعمائة سفينة صغيرة قدر لها أن تلعب بعد الحادى والثلاثين من شهر مايو دورا حيويا فى نقل مالا يقل عدده عن مائة ألف جندى من الشواطىء إلى البواخر الراسية فى عرض البحر . وقد فقدت فى هذه الأيام مدير غرفة خرائطى فى الأميرالية القبطان بيم وشخصاً أو شخصين كانا مألوفين إلى . وكانوا قد استولوا على زورق هولندى صغير أتيح له أن ينقذ فى أربعة أيام ثمانمائة جندى . وقد بلغ مجموع السفن التى أسرعت بانقاذ الجيش تحت نيران المدافع التى لا ينقطع قصفها من طائرات العدو ، نحو ثمانمائة وستين قطعة صغيرة منها نحو سبعمائة يملكها بريطانيون والبقية لبعض رعايا الحلفاء .

* * *

وفى أثناء ذلك ، كان احتلال القطاع القائم حول دنكرك يعزز بقوة وعناد . وقد وصلت القوات إلى القطاع متفرقة وفى حالة من الفوضى . ولكن سرعان ما أعيد تنظيمها ووزعت على الخطوط الدفاعية التى تدعمت فى مدى يومين فحسب ، وقد عهد لأحسن الجنود بحماية الخط الأمامى . واحتفظ بالفرق التى تحملت القتال فى المدة السابقة كالفرقة الثانية والخامسة كقوة احتياطية على الشواطىء . وقد عجل بنقلها إلى أرض الوطن . وكان قد تقرر أن تشترك ثلاثة ألوية فى الدفاع عن الجبهة . ولكن عندما حمل الفرنسيون جزءاً كبيراً من عبء الدفاع تقرر أن يكتفى بلواءين . وكان العدو مستمراً فى المطاردة أثناء عملية الجلاء وقد قام قتال مرير على الأخص حول الجناحين فى نيوبورت وبيرجز . ومع السير فى عمليات الجلاء كان النقص فى عدد الجنود من بريطانيين وفرنسيين يسايره انقباض فى الخطوط الدفاعية . وقد ثبتت عشرات الألوف من الجنود على الشواطىء وبين الكثبان الرملية ثلاثة أيام أو أربعة أو خمسة . إزاء غارات جوية مستمرة بغير رحمة . وقد تبين من هذا أن اعتقاد هتلر فى قوة السلاح الجوى الألمانى وقدرته على منع الفرار .

وما يترتب على ذلك من احتفاظه بتشكيلاته المدرعة للضربة النهائية من المعركة كان اعتقاداً خاطئا ، وإن لم يكن بعيداً عن المعقول .

وقد عملت ثلاثة عوامل فى تخطئة هذه الاحتمالات . أولها أن الغارات الجوية على هذه الجموع من الجنود القائمة على الشاطىء لم تصبها بأضرار بالغة . وقد عجب الجنود حين وقعت غارة جوية شديدة عليهم ولم يقتل أحد منهم أو يصب بجراح . وقد حدثت الانفجارات فى كل مكان . ولكنها لم تصب أحداً . ولو كانت الشواطىء صخرية لكانت النتائج أشد تأثيراً بل لكانت مهلكة مميتة . وهكذا أصبح الجنود ينظرون إلى الغارات الجوية باحتقار . فقد كانوا يقبعون خلف الكثبان الرملية وأمامهم البحر الأزرق وهو صديق صدوق لهم وفيه سفن الانقاذ ووراءها أراضى الوطن .

وكان العامل الثانى الذى لم يكن يتوقعه هتلر . وهو ما حل بطياريه من قتل وذبح . فقد وضعت القدرة الجوية البريطانية والألمانية موضع الاختبار واحتفظت قيادة الطائرات المقاتلة بدوريات متتابعة فى سماء المعركة . وقد بذلت جهداً كبيراً فى محاربة العدو فى معارك جوية عنيفة رغم تفوقه فى العدد . وكانت طائراتنا تتغلب ساعة بعد أخرى على أسراب القاذفات والمحاربات الألمانية فتوقع بها الخسائر البالغة . وتدمرها شر تدمير وتبعدها عن سماء المعركة وقد ظل هذا القتال الجوى مستمراً يوما بعد يوم حتى تمكن سلاحنا الجوى من تحقيق فوزه العظيم . وأينما وجدت طائراتنا مجموعات كبيرة من الطائرات الألمانية كانت تسرع إلى مهاجمتها وتسقط منها العشرات التى تصل عاجلا إلى المئات وقد استخدمنا كل ما لدينا من طائرات احتياطية فى الوطن . وكان الطيار البريطانى يضطر فى كثير من الاحيان إلى الإغارة أربع مرات فى اليوم . وقد وصلنا إلى النتيجة البارزة وهى أن العدو المتفوق يهزم أو يقتل . ويتراجع على ما فيه من شجاعة . وأنها لمعركة فاصلة . ولم يكن الجنود المقيمون على الشاطىء لسوء الحظ يرون الكثير من هذا الصراع الأسطورى فى الجو . فقد كانت هذه المعارك دائرة على بعد عدة أميال أو فوق السحاب . وكانوا لا يعلمون بما ينال العدو من خسارة . وكل ما كانوا يرون هو تلك

القنابل التى كانت تتساقط على الشواطىء يلقى بها العدو الذى كان يستطيع الوصول ولكنه لا يستطيع العودة فى غالب الأحيان وكان يسيطر على الجيش شعور من المرارة والغضب ضد السلاح الجوى لأنه لم يره فى المعركة حتى كان بعض الجنود الذين وصلوا سالمين إلى الوطن يرمون بالسباب زملاءهم الذين يرتدون ملابس الطيران جهلا منهم بالحقيقة . وكان عليهم أن يثنوا عليهم ويهنئوهم ولكن كيف يدركون الحقائق وقد قررت أن أعلن الحقيقة فى البرلمان .

ولكن العاملين الرملى والجوى ما كانا ليحدثا أثرهما لولا العامل الثالث وهو عامل البحر . فقد كان للتعليمات التى صدرت منذ عشرة أيام أو اثنى عشر يوما تحت وطأة الأحداث وما تبعها من السواطف الثائرة أثرها العظيم . وقد عم النظام التام على الشواطىء وعلى ظهر السفن والبواخر وكان البحر هادئاً . وأخذت الزوارق تسير ذهابا وإيابا بين الشاطىء والبواخر تنقل الرجال من الشاطىء بعد أن يخوضوا فى الماء أو تحملهم وهم سابحون غير عابئة بالقذائف الجوية التى كانت كثيراً ماتنالهم ببعض الإصابات وكان العدد الهائل من هذه الزوارق هو وحده الذى تحدى الغارات الجوية وثبت أن « أسطول البعوض » لا يغرق . وقد اتقدت مشاعل المجد وسط الهزيمة وسطعت على شعب الجزر البريطانية الذى اتحدت مشاعره فجلت على الهزيمة وستبقى قصة شواطىء دنكرك حالة فى كل ما نحتفظ به من سجلات .

وإذا تحدثنا عن العمل الباسل الذى قامت به السفن الصغيرة فإننا لاننسى الأعباء التى قامت بها البواخر الكبيرة التى كانت تعمل من ميناء دنكرك والتى قامت بنقل مالا يقل عن ثلثى الرجال . وكان للمدمرات الدور الأكبر فى هذا الميدان وعلينا ألا نتجاهل دور السفن الخاصة وملاحى البواخر التجارية .

***

كنا ننظر إلى عملية الجلاء . بقلوب مرتجفة وآمال متلهفة وقد أصبح مركز اللورد جورت ليلة السابع والعشرين فى حرج شديد بالنسبة للسلطات البحرية . فقد بعث القبطان تيفنانت من رجال الأميرالية وقائد الوحدات العاملة فى دنكرك . برسالة يطلب فيها إرسال كل ما يمكن من سفن وبواخر عاجلا إلى الشواطىء « فالجلاء

سيبدأ ليلة غد أمراً على أشد مايكون من التعقيد » وكانت الصورة التي تلقيناها حالكة ويائسة . وقد بذلنا جهداً عظيما لتلبية النداء . وبعثنا بطراد وثماني مدمرات وست وعشرين قطعة بحرية أخرى إلى الميناء . وكان اليوم الثامن والعشرون يوماً اشتد فيه القلق . ولكن سرعان ماخفت هذه الشدة . حين استقر الوضع في الناحية البرية بمعاونة السلاح الجوى القوى . وتم تنفيذ الخطط البحرية في التاسع والعشرين على الرغم مما نالنا من خسائر بالغة . فقد خسرنا ثلاث مدمرات وغرقت إحدى وعشرين سفينة وأصيب عدد آخر بأضرار .

وفى اليوم الثلاثين من شهر مايو عقدت اجتماعا فى حجرة العمليات الاميرالية حضره الوزراء الثلاثة للقوات المسلحة ورؤساء أركان حربهم . ودرسنا ماوقع من أحداث ذلك اليوم على الشاطىء البلجيكى . وكان عدد الجنود الذين تم انقاذهم حتى تلك الساعة مائة وعشرين ألفاً بينهم ستة آلاف فرنسى وكان عدد القطع البحرية العاملة ٨٦٠ قطعة بين صغيرة وكبيرة . وتلقينا برقية من الأميرال ديك ووكر من دنكرك تقول « على الرغم من الضرب الجوى الشديد . ونيران المدافع فقد استطعنا إنقاذ أربعة آلاف آخرين فى الساعة الماضية » وقد أوضح صعوبة الدفاع عن دنكرك فى اليوم التالى . وأكدت ضرورة إنقاذ عدد أكبر من الفرنسيين . فإن تغاضينا عن هذه الناحية ستترتب عليه إساءة بالغة للعلاقات التى بيننا وبين حليفتنا وقلت كذلك إنه إذا لم يبق لنا فى دنكرك غير فيلق واحد فإننا سنطالب إلى اللورد جورت أن يستقل إحدى القطع البحرية ويعود إلى إنجلترا . ويترك الفيلق فى عهدة قائده . وعلى الجيش البريطانى أن يظل باقياً ما أمكنه البقاء حتى يتم اجلاء الفرنسيين كذلك .

ولما كنت أعرف اللورد جورت شخصيا معرفة تامة فقد أرسلت إليه بخط يدى الأمر التالى الذى بعثت به إليه بصفة رسمية عن طريق وزارة الحربية فى الساعة الثانية بعد ظهر اليوم الثلاثين من شهر مايو .

« استمر فى الدفاع عن القطاع الحالى إلى أقصى مدى حتى تستطيع إجلاء أكبر عدد ممكن من الجنود فى العملية الناجحة القائمة الآن

وابعث إلينا بأخبارك كل ثلاث ساعات وإذا كان فى مقدورنا أن نتصل بك فسنبعث إليك بأمر العودة إلى انكلترا مع العدد الذى تختاره من الضباط فى اللحظة التى ترى فيها أن قواتك قد نزلت إلى الحد الذى يمكن تسليمها فيه إلى قائد فيلق وأنت مخير الآن فى هذا الأمر . وإذا تعطلت سبل الاتصال بيننا وبينك . فعليك أن تسلم القيادة لهذا القائد طبقا للخطة السالفة . حين يصبح عدد قواتك المحاربة فى حدود ثلاث فرق وهذا إجراء عسكرى سليم ينطبق على القواعد العسكرية . وليس لك حق التصرف فى هذا الشأن . وليس لنا أن نترك للعدو فرصة اعتقالك على رأس قوة صغيرة تظل تحت أمرك . وعلى قائد الفيلق الذى تختاره أن يستمر فى الدفاع مع الفرنسيين . وأن يواصل . إجلاء القوات عن دنكرك وعن الشواطىء . ولكن إذا رأى أن من المستحيل القيام بأى جلاء منظم آخر . وتعذر إلحاق أى أذى جوهرى بالعدو فلك أن تدعوه بعد الاتفاق مع القائد الفرنسى إلى الاستسلام بصفة رسمية منعا لسفك الدماء بلا مبرر » .

وقد يكون لهذه الرسالة أثرها فى أحداث جسيمة أخرى وعلى مصير قائد باسل آخر فقد علمت عند ما كنت فى البيت الأبيض فى آخر شهر يناير سنة ١٩٤١ من الرئيس ومن المستر ستمسون بمصير الجنرال ماك أرثر والحامية الأمريكية فى كوريجيدور ووجدت من المناسب أن أشرح لهم كيف كان موقفنا فى حالة مماثلة تتعلق بقائد عام . نقصت قوته حتى أصبحت جزءا صغيرا من القوات الأصلية التى كانت لديه وقد قرأ الرئيس والمستر ستمسون معاً هذه البرقية التى بعثنا بها إلى جورت باهتمام عظيم . وقد عجبت لما بدا على وجهيهما من التأثر . وعاد المستر ستمسون بعد قليل ليطلب نسخة من البرقية . فأعطيتها له فى الحال . وقد يكون لهذه البرقية أثرها لدى الأمريكيين لاتخاذ القرار المناسب الذى اتخذوه فعلا بإصدار الأمر إلى الجنرال ماك أرثر بتسليم القيادة إلى أحد الجنرالات المساعدين وإنقاذ هذا القائد العظيم من المصير الذى كان سيواجهه إما بالموت أو بالبقاء أسيرا عند اليابانيين مدة الحرب والاستفادة من خدماته الجليلة فى المستقبل وكم كنت أود لو يتم ذلك .

وفى نفس ذلك اليوم أى فى الثلاثين من شهر مايو أبلغ أركان حرب اللورد جورت . أن آخر موعد يتيسر فيه للقطاع الشرقى أن يصمد أمام الألمان فى دنكرك هو فجر اليوم الأول من شهر يونية . لهذا عجل المسئولون بعملية الجلاء بكل ما لديهم من جهد ، والتأكد من عدم بقاء ما يزيد على أربعة آلاف جندى بريطانى يعملون كمؤخرة على الساحل إلى هذا الوقت المحدد . ولكن ظهر أن هذا العدد ليس فيه الكفاية لتغطية المواقع الأخيرة . وتقرر الاحتفاظ بالقطاع البريطانى حتى منتصف ليلة اليوم الأول والثانى من شهر يونية ، وتسير عملية الجلاء بالتساوى بين القوات البريطانية والفرنسية .

وهكذا كان الموقف مساء اليوم الحادى والثلاثين من شهر مايو عند ما سلم اللورد جورت قيادته تنفيذا للأوامر الصادرة إليه إلى الميجور جنرال اليكساندر . ليرجع إلى انجلترا .

***

وقد رأيت منعاً لسوء التفاهم . ورغبة فى الاتصال المباشر أن أطير إلى باريس فى اليوم الحادى والثلاثين من شهر مايو لأحضر اجتماعا لمجلس الحرب الأعلى . وقد رحل معى فى نفس الطائرة المستر أتلى والجنرال ديل وايسماى واصطحبت معى كذلك الجنرال سبيرز الذى كان قد وصل إلينا بالطائرة فى اليوم السابق يحمل آخر الأنباء عن باريس . وكان هذا الضابط اللامع وعضو البرلمان . صديقاً منذ أيام الحرب الأولى حيث مر بى فى سنة ١٩١٦ كضابط اتصال بين ميسرة الفرنسيين وميمنة البريطانيين عند مرتفع فيمى ، وكان يتحدث الفرنسية بلسان طلق وعلى ذراعه أنواط خمسة جراحات فكان بشخصيته الفذة خير من يصلح لمعالجة الأمور بين البلدين . وكان الفرنسيون يميلون إلى الاندفاع والحماس والعنف عند ما يشتد النقاش بينهم وبين البريطانيين . فى حين يحافظ البريطانيون على جمودهم إلى حد الخشونة . ولكن سبيرز كان يرد على كبار الفرنسيين ويقنعهم ببساطة بالغة وبصورة لامثيل لها .

ولم نذهب هذه المرة إلى الكى دروسيه بل ذهبنا إلى مكتب المسيو رينو

فى وزارة الحربية بشارع ساندومنيك وقد وجدنا رينو والمريشال بيتان وحدهما . وكانت هذه أول مرة يظهر فيها بيتان فى اجتماعنا كنائب لرئيس الوزراء .

كان يلبس الملابس العادية . وكان يصحبنا سفيرنا وديل وايسمان وسبيرز وكان مع رينو وبيتان كل من فيجان ودارلان والكابتن دى مارجيرى مدير مكتب رينو والمسيو بودوان سكرتير وزارة الحرب الفرنسية .

ولعل الفرنسيين لم يكونوا أكثر دراية منا بحقيقة ما يجرى فى الجبهة الشمالية لجيوش الشمال . فلما أبلغتهم أن ١٦٥ ألفاً قد تم جلاؤهم إلى الآن من بينهم خمسة عشر ألف فرنسي ذهلوا . وعند ما لفتوا أنظارنا إلى زيادة عدد البريطانيين الذين تم جلاؤهم بينت لهم أن السبب فى ذلك هو وجود وحدات إدارية بريطانية كبيرة فى الجهة الخلفية استطاعت أن تلوذ بالبواخر وتعود قبل وصول القوات المقاتلة من الجبهة وفضلا عن ذلك فإن الفرنسيين لم يتلقوا أوامر حتى الآن بالجلاء . وأشرت إلى أن من أهم الأسباب التى دعتنى إلى الحضور لباريس . التأكد من أن أوامر مماثلة ستصدر للفرنسيين . وقد رأت حكومة جلالة الملك نظرا للظروف القاسية التى نحن فيها أن تأمر اللورد جورت بإجلاء المحاربين الفعليين وترك الجرحى مكانهم وإذا صحت الآمال فسنستطيع إجلاء نحو مائتى ألف رجل من ذوى البأس والأجسام الفارهة وستكون هذه معجزة ولا شك ولم أكن قبل أربعة أيام أستطيع الرهان على إنقاذ أكثر من خمسين ألفاً كحد أعلى . وقد تأكد لى ما سينالنا من خسائر باهظة فى المعدات الحربية . وقد أثنى رينو على ما يقوم به الأسطول والسلاح الجوى البريطانيان من أعمال جليلة فشكرته على ذلك ثم انصرفنا إلى الحديث عما يمكن أن نعمله لإعادة إنشاء القوات البريطانية فى فرنسا .

وفى أثناء ذلك كان الأميرال دارلان قد أعد صورة برقية إلى الأميرال ابريال فى دنكرك نصها كما يلى :

« ١ — عليك أن تعمل على إقامة رأس جسر حول دنكرك بالفرق التي تعمل تحت أمرك والفرق الأخرى القائمة تحت أمر القائد البريطاني .

٢ — إذا أيقنت بأنه يتعذر وصول قوات جديدة من خارج رأس الجسر إلى أماكن الجلاء . فيجب على القوات التي تحتفظ برأس الجسر أن تنسحب وتستقل البواخر . ولتكن القوات البريطانية هي المتقدمة في الجلاء » .

وقد تدخلت في الحال ، وقلت إن القوات البريطانية لن تكون السابقة ويجب أن يكون الجلاء على قدم المساواة في العدد . وليكن البريطانيون هم المؤخرة . وأخيراً وافق الفرنسيون على ذلك .

ثم انتقل الحديث إلى إيطاليا . وبينت وجهة نظر بريطانيا . وهي أن إيطاليا إذا دخلت الحرب فستوجه إليها أشد الضربات . فثمة عدد كبير من الإيطاليين يمارضون في دخول الحرب . وعلينا أن نعرفها ما لها من عواقب وما فيها من قسوة . واقترحت أن نبدأ بالضرب من الجو على الثلث الصناعي القائم في شمالها والذي يضم مدن ميلان وتورين وجنوا وقد وافق رينو على ذلك . وعلى الحلفاء أن يضربوا إيطاليا عاجلا . وقال الأميرال دارلان : إنه أعد خطة لضرب مستودعات الزيت الإيطالية المنتشرة على طول الساحل من الحدود الفرنسية إلى نابولي من البحر والجو .

وقد تم الاتفاق على إجراء المباحثات الفنية اللازمة .

وبعد أن تحدثت عن أهمية بقية أسبانيا بعيداً عن الحرب أخذت أستعرض الموقف بصفة عامة . فبينت ضرورة احتفاظ الحلفاء بجبهة ثابتة ضد سائر أعدائهم . وقلت إن الولايات المتحدة قد راعتها الأحداث القائمة وهي إن لم تدخل الحرب الآن فستدخلها قريباً . وإذا ما غزا الألمان انجلترا فإن الولايات المتحدة ستكون أكثر تأثراً . وقد أكدت أن انكلترا لا تخشى الغزو . وستصده بقوة وعنف في كل قرية . وفي كل كوخ . وبعد أن تضمن لنفسها القوات الضرورية التي ترى أنها محتاجة إليها

فستبعث إلى حليفتها فرنسا كل ما يزيد على حاجتها من قواتها المسلحة لتكون تحت إمرتها . وكنت مقتنعا تمام الاقتناع أن علينا أن نمضى فى القتال حتى النصر . وإذا انهار أحدنا فعلى الآخر أن يستمر . والحكومة البريطانية على استعداد للقتال من العالم الجديد . إذا مازالت كارثة بانجلترا . إن ألمانيا إذا انتصرت على إحدى الحليفتين فإنها لن ترحم . وسنصبح فى عداد الأتباع والأرقاء إلى الأبد . ومن الخير أن تصل حضارة أوربا الغربية بكل ما حققته من عظمة إلى نهاية محزنة ولكن رائعة من أن تعيش الديمقراطيتان العظيمتان حياة غير جديرة باسم الحياة .

وقال مستر أتلى بعد ما قدمت أنه متفق معى فى وجهات نظرى ثم قال « إن الشعب البريطانى يعرف الآن الأخطار التى أمامه . ويعرف كل المعرفة أن ألمانيا إذا انتصرت فإن كل مابنيناه سينهار . فالألمان لا يقتلون الأنفس فحسب ولكنهم يقتلون الأفكار كذلك والشعب البريطانى الآن أكثر تصميما على القتال منه فى أى وقت آخر » وقد شكرنا المسيو رينو على ما قلناه . وقال : إنه يعتقد أن الروح المعنوية عند الشعب الألمانى ليست بقدر ما حققته من الانتصارات الوقتية التى أحرزها جيشه وأضاف ، إن فرنسا إذا استطاعت أن تحتفظ بالسوم بمساعدة بريطانيا وإذا عجلت الصناعة الامريكية بسد النقص القائم على عدم التعادل فى السلاح فإننا سنكون على ثقة بالنصر . وقال : إنه شاكر لى كل الشكر تلك الإشارة التى أبديتها بأنه إذا انهارت إحدى الحليفتين فلن تتخلى الأخرى عن الكفاح .

ثم انتهى الاجتماع الرسمى ولما غادرنا المائدة وقف البعض من كبار الموجودين إلى نافذة يتجاذبون الحديث فى جو يختلف بعض الاختلاف . وكان المريشال بيتان . أبرز هؤلاء . ووقف سبيرز إلى جانبى يساعدنى بفرنسيته القوية ويتحدث . وكان الشاب الفرنسى الكابتن دى مارجيرى قد أشار إلى أن القتال فى أفريقيا يجب أن يستمر . ولكن مظهر المريشال بيتان بوجومه وانفراده كان يوحى إلى بأنه يفضل أن يعقد صلحاً منفرداً . وكان لشخصيته وشهرته ومكانته والعبارات التى كان يتحدث بها تأثيراً كافياً للسيطرة على الذين يجتذبهم بسحره . . وقد ذكر أحد الفرنسيين ولا أذكر اسمه على التحقيق فى عبارة مهذبة إن استمرار النكسات العسكرية قد يرغم

فرنسا فى بعض الحالات على تعديل سياستها الخارجية وقد انتهز سبيرز الفرصة ووجه حديثه إلى المريشال بيتان فقال فى لغة فرنسية فصيحة « لا شك أنك تفهم يا حضرة الماريشال أن هذا يعنى فرض حصار على فرنسا » وقال آخر « قد يصبح هذا أمراً لا مناص منه » لكن سبيرز عاد فوجه حديثه إلى بيتان قائلا « وهذا لا يعنى الحصار وحده ، ولكن يعنى ضرب جميع الموانىء الواقعة فى أيدى الألمان » وقد سررت لصدور هذه الكلمات عن سبيرز وعدت أكرر أنشودتى المألوفة « سنقاتل مهما كانت الأمور وسواء يسقط من يسقط » وانقضت ليلة ثانية من الغارات الخفيفة وقد تركت باريس فى الصباح .

***

وفى اليوم الحادى والثلاثين من شهر مايو والأول من شهر يونيه احتد القتال فى دنكرك ووصل إلى الذروة . ولكن لم يصل إلى النهاية . وقد نقل فى هذين اليومين ما يربو على ١٣٢ ألفاً من الرجال ، حمل أكثرهم فى الزوارق الصغيرة من الشواطىء تحت سيل منهمر من قنابل الطائرات وقذائف المدافع . وقد بذلت قاذفات العدو أقصى جهدها فى اليوم الأول من شهر يونيه منذ ساعات الفجر الباكر . وكانت تمد غاراتها فى الوقت الذى تعود فيه مقاتلاتنا لتنال نصيبها من الوقود . وأغرق بسبب هذه الغارات عدد كبير من بواخرنا المحتشدة بلغ فى مجموعه مجموع ما أغرق فى الأسبوع الماضى ، وبلغت خسائرنا فى هذا اليوم من قنابل الطائرات والألغام وزوارق الطوربيد وغير ذلك إحدى وثلاثين سفينة غرقت ، وإحدى عشرة أصيبت بأضرار ، وشدد العدو فى البر ضغطه على رأس الجسر الذى أقمناه لاختراق دفاعنا . وصدته المقاومة الباسلة واليائسة التى بذلتها قوات الحلفاء الخلفية .

وانتهت المرحلة الختامية بمنتهى المهارة والدقة . فقد أصبح فى الإمكان وللمرة الأولى وضع الخطط مقدماً بدلا من الأوضاع الحالية والمرتجلة . وفى فجر اليوم الثانى من شهر يونيه ، كان ثمة نحو أربعة آلاف بريطانى ومعهم سبعة مدافع مضادة للطائرات واثنا عشر مدفعاً مضاداً للدبابات قد ظلوا فى ضواحى دنكرك مع القوات الفرنسية الكبيرة العدد التى ظلت تحافظ على خط الدفاع عن القطاع . وقد أصبح

الجلاء ميسراً ولـكن فى ظلام الليل وقرر الأمـــيرال رامسى النزول فى حشود إلى الميناء تلك الليلة بكل مالديه من وحدات متوفرة وبالإضافة إلى الزوارق الصغيرة والقوارب وسفن الجر رحلت أربع وأربعون باخرة من انـكلترا فى تلك الليلة وبينها إحدى عشرة مدمرة وأربع عشرة كانسة ألغام . واشتركت فى العملية كذلك أربعون سفينة فرنسية وبلجيكية . وقبيل منتصف الليل ، كانت قوة المؤخرة البريطانية قد نقلت إلى ظهر البواخر .

لـكن هذه لم تـكن النهاية فى قصة دنـكرك . فقد كنا متأهبين لأن ننقل تلك الليلة عدداً أكبر من الفرنسيين الموجودين فى الميناء لـكن النتيجة كانت أننا عندما اضطررنا لسحب بواخرنا عند الفجر وبعضها خال ، كان عدد من الجنود الفرنسيين لا يزال مشتبكا مع العدو وقد ظلوا على الشواطئ . وعلى الرغم مما حل بالبحارة من نصب وإعياء لمابذلوه من جهد فى الأيام السابقة التى قضوها بغير راحة فقد لبوا النداء . وفى اليوم الرابع من شهر يونية أنزل فى انكلترا ٢٦٫١٧٥ جنديا فرنسيا . وكان أكثر من واحد وعشرين ألفا منهم فى سفن بريطانية . وقد استمر فى القتال بضعة ألوف فى رأس الجسر لسوء الحظ حتى صباح اليوم الرابع من شهر يونية حتى وصل العدو إلى ضواحى المدينة ، وقد كان المدافعون قد وصلوا إلى غاية ما يمكن للطاقة البشرية أن تحتمل ، بعد أن قاتلوا بشجاعة عدة أيام لتغطية انسحاب رفاقهم البريطانيين والفرنسيين وقد كان نصيبهم أن يقضوا السنوات التالية فى الأسر . ولولا احتمال قوات المؤخرة فى دنـكرك وثباتهم فإن من المشـكوك فيه أن نتمكن بمثل تلك السرعة من بناء جيشنا فى بريطانيا والدفاع عن الجزر البريطانية وإحراز النصر النهائى .

وفى الساعة الثانية والدقيقة الثالثة والعشرين من بعد ظهر اليوم الرابع من شهر يونية أعلنت الأميرالية أخيراً انتهاء عملية « دينامو » التى تم فيها نقل ٣٣٨٫٠٠٠ جندى بريطانى وحليف إلى الجزر البريطانية ، وفى اليوم الرابع من شهر يونية اجتمع البرلمان وقد رأيت أن من واجبى أن أعرض عليه القصة كاملة فى جلستين أولاهما علنية والثانية سرية ، ولسرد القصة كاملة كما أوضحتها فى كتابى هذا لا أحتاج إلا إلى بعض مقتطفات من الخطاب الذى ألقيته فى البرلمان . وكان علينا أن نشرح

لا لشعبنا فحسب ، بل للعالم بأسره ، أن عزمنا على القتال إلى النهاية قائم على أسس قوية وجدية . ولا ينبعث من محاولات يثيرها اليأس ، وكان واجبي كذلك أن أعرض في وضوح الأسباب التي تحملني على هذه الثقة :

« يجب علينا أن لا ننظر إلى عملية الإنقاذ التي حققناها على أنها الحقيقة الجوهرية للنصر . فالحروب لا تكسب بالجلاء . وعلى الرغم من هذه الحقيقة فقد كان هناك انتصار في هذا الإنقاذ . وعلينا أن نرمقه ونسجله . . لقد حققه سلاحنا الجوي . وكثير من جنودنا العائدين لم يتح لهم أن يروا سلاحنا الجوي وهو يعمل . وكل ما رأوه هو قاذفات العدو . التي أفلتت من هجمات سلاحنا الوقائية . ولهذا فقد قللوا من قيمة ما حققه سلاحنا وقد سمعت الكثير من اللغط عن هذا ، لذلك وجدتني مضطرا إلى الخروج عن الموضوع لأبدي هذه الملاحظة التي سألقيها على مسامعكم .

كانت المعركة تجربة عظيمة لقوة السلاحين الجويين البريطاني والألماني . وهل كان للألمان هدف جوي أكثر من أن يجعلوا الجلاء عن تلك الشواطيء أمراً مستحيلا ؟ . وأن يغرقوا سائر البواخر التي خرجت إلى عرض البحر . والتي بلغ عددها الألوف ؟

وهل من هدف أكبر من هذا لتحقيق مزايا عسكرية ذات أهمية لأغراض الحرب جميعها ؟ لقد حاولوا جهد طاقتهم ، ولكن خابت محاولاتهم . نعم . لقد هزموا في هذه المحاولة وخابت مساعيهم . وتمكنا من إنقاذ الجيش . ودفعوا ثمنا غاليا وصل إلى أربعة أضعاف ما أنزلوه بنا وأثبتت جميع طائراتنا على اختلاف أنواعها أنها تتفوق على أنواع الطائرات الألمانية التي واجهتها ، وبرهن طيارونا على تفوقهم . وأستطيع أن أقول — وأنا أرى المزايا التي تتوافر لدينا في حالة الدفاع عن هذه الجزيرة ضد غارات من وراء البحر — إنني أرى في هذه الحقائق أسسا جوهرية تدعو إلى الثقة . وعلي أن أثني كل الثناء على هؤلاء الطيارين من الشباب .

فقد كان الجيش الفرنسي العظيم قد تراجع وناله الذعر لهذا الهجوم الذى تقدمت به ألوف من المدرعات . أليس لنا أن نقول إن قضية الحضارة كلها سيدافع عنها بضعة ألوف من الطيارين بإخلاصهم ؟ وقد قيل أن الهرهتلر يعد العدة لغزو الجزر البريطانية ، وليست هذه الفكرة بجديدة علينا . فقد فكرنا فيها من قبل وعندما وقف نابليون فى ميناء بولون سنة كاملة بزوارقه وجيشه العظيم قال له أحدهم إذ ذاك « إن هناك أعشابا أشد مرارة فى انكلترا » ولا شك أن هذه الأعشاب قد زاد عددها منذ عادت قوات الحملة البريطانية من دنكرك إلى بلادنا .

ولاشك أن مسألة الدفاع عن الوطن ضد الغزو « تتأثر تأثراً شديداً إذا تمسكنا بالحقيقة القائلة بأن لدينا الآن قوات عسكرية أكثر وأقوى من قبل » ولكن هذا الوضع لن يدوم . إننا لا نكتفى بأن نقوم بحرب دفاعية . فعلينا لحليفتنا واجب وعلينا أن نعيد تنظيم الحملة البريطانية ونشيدها تحت قيادة القائد العام الباسل اللورد جورت وهذا كله سائر فى طريقه ، والآن يجب علينا أن نجعل طرق دفاعنا عن هذه الجزر على درجة كبيرة من التنظيم حتى يستطيع أقل عدد من الرجال أن يضمن أوفى ما يمكن من السلامة ويتوافر لدينا كل ما نستطيع من وسائل للهجوم الذى نرى من الواجب أن يتحقق . هذا ما نفكر فيه الآن وهذا ما يجب أن نعمله » .

وقد ختمت خطابى بكلمة كان لها أثرها بعد قليل وفى الوقت المناسب ، فى قرار الولايات المتحدة وهذا هو نصها :

« إننا لن نضعف ولن نستسلم ، على الرغم من أن مساحات كبيرة ودولا كثيرة عريقة وذات شهرة قد وقعت أو قد تقع فى يد الجستابو وفى قبضة جهاز الحكم النازى الرهيب . بل سنمضى حتى النهاية . وسنحارب فى فرنسا . وفى البحار والمحيطات ، وسنقاتل بثقة متزايدة وقوة نامية فى الجو . وسندافع عن جزيرتنا . مهما يكن الثمن . أجل

سنقاتل على السواحل وفى المطارات ومواقع الهبوط وسنحارب فى الشوارع والحقول وفى التلال والسهول. ولن نستسلم. وإذا قدر — وهذا ما لا يخطر ببالى لحظة واحدة — لهذه الجزيرة أو جزء كبير منها أن يقع فى يد العدو ويموت جوعا. فإن امبراطوريتنا وراء البحار — يعززها ويحرسها الأسطول البريطانى — سترفع راية الجهاد إلى أن تتم إرادة الله. فيبادر العالم الجديد بكل ما لديه من قوة إلى إنقاذ العالم القديم وتحريره».

الجرى وراء المغانم

قامت الصداقة بين الشعبين البريطانى والإيطالى . منذ عهد جاريبالدى وكافور . وقد نالت كل مرحلة اتخذتها إيطاليا لتحرير شمالها من الحكم النمساوى . وكل حركة قامت بها لتحقيق وحدتها واستقلالها عطف الديمقراطية البريطانية فى عهد الملكة فيكتوريا وقد كان للنفوذ البريطانى الأثر الأكبر فى ضم إيطاليا إلى صفوف الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى . ولكن الرأى العام البريطانى قد انقسم بقيام موسولينى وتثبيت أقدام الفاشية باعتبارها حركة معارضة للبلشفية وإن لم يؤثر هذا أى تأثير على الأسس الجوهرية القائمة على النوايا الحسنة بين الشعبين . وكنا نرى موسولينى يقف دائما إلى جانب بريطانيا العظمى فى معارضتها المتلربة ومطامع ألمانيا ، حتى جاءت مطامحه فى الحبشة فأنتجت أسوأ النتائج .وقد شرحت آنفا تلك القصة المحزنة للسياسة الخاطئة التى انتهجتها حكومتا بلدوين وتشمبرلن والتى كان لها أسوأ النتائج من ناحيتين . فقد كسبنا عداوة الديكتاتور الإيطالى ولم نقض على قوته ، وأسأنا إلى عصبة الأمم ولم ننقذ الحبشة . وقد رأينا مابذله المستر تشمبرلن والمستر صموئيل هور واللورد هاليفاكس . من الترضية والتهدئة لاكتساب صداقة موسولينى كما رأينا كيف كان اعتقاد موسولينى بأن شمس بريطاليا قد غربت وأن مستقبل إيطاليا بمساعدة ألمانيا يقوم على أنقاض الإمبراطورية البريطانية . وقد أدى هذا إلى خلق محور برلين — روما . الذى كان منظورا أن يؤدى إلى اشتراك إيطاليا فى الحرب ضد بريطانيا وفرنسا منذ اللحظة الأولى .

وكان من سداد الرأى عند موسولينى أن يتريث ، حتى يرى تطور الحرب ومصائرها قبل أن يلقى بنفسه وبوطنه فى غمراتها ويلزمهما أن يقفا إلى جانب ألمانيا . ولم يكن هذا التريث بغير طائل . فقد كان كل من الفريقين يتقربان لإيطاليا وينظران إلى مصالحها برعاية . فعقدت اتفاقات رابحة وكسبت وقتاً ثميناً لاستكمال تسليحها . وهكذا مضت أشهر بوادر الحرب وهى تسير على هذا النحو . ومن التهكنات الممتعة أن ننظر بعين الغيب إلى ما كانت تناله إيطاليا إذا حافظت على سياسة الحياد والانتظار . لقد كانت الولايات

المتحدة تحت تأثير الأمريكيين من الأصل الإيطالى أن نوعز إلى هتلر بأن أية محاولة لإرغام إيطاليا على الوقوف إلى جانبه سيكون لها أسوأ النتائج، وكانت إيطاليا تستطيع بمحافظتها على الحياد والتمسك به، أن تجنى ثمار السلام والازدهار والقوة، وبعد أن يكون هتلر قد وقع فى حرب مع ورسيا فإن هذه الدولة المحظوظة تستطيع أن تحتفظ برخائها ورغدها إلى أمد لا يحدومن ثم يبدأ موسولينى فى عهد السلام الذى يلى الحرب أو فى سنتها الأخيرة، أكثر الساسة الذين عرفتهم شبه الجزيرة المشمسة سدادا فى الرأى ولا شك أن مثل هذا المصير كان خيرا له وأبقى من المصير الذى كان ينتظره فى النهاية.

وكانت علاقاتى بموسولينى فى المرتين اللتين لاقيته فيهما سنة ١٩٢٧ علاقات وثيقة طيبة. وما كان لى أن أثير عليه بريطانيا إلى حد القطيعة فى مسألة الحبشة، أو أستثير ضده عصبة الأمم. إلا إذا كنا على استعداد لمحاربته إلى النهاية. وكان كهتلر يدرك حملتى لتسليح بريطانيا ويقدرها على الرغم من غبطته حين يجد الشعب البريطانى ليؤيدنى فيها.

وفى غيام هذه الأزمة التى وصلنا إليها بعد الكارثة التى أصابتنا فى معركة فرنسا. رأيت أن من واجبى كرئيس للوزراء أن أبذل غاية جهدى لإبقاء إيطاليا بعيداً عن الصراع، وإذا كنت لا أنساق مع الآمال الكاذبة. فإننى على الرغم من ذلك بعثت بعد ستة أيام من تسلمى الحكم فى بريطانيا، بناء على رغبة مجلس الوزراء، بنداء إلى موسولينى ورد عليه. وقد نشر النداء والرد بعد عامين فى ظروف مختلفة كل الاختلاف. وكان النداء فى السادس عشر من شهر مايو سنة ١٩٤٠ وهذا نصه :

« يطيب لى وقد توليت زمام الحكم فى بريطانيا كرئيس للوزراء ووزير للدفاع أن أعود بذاكرتى إلى اجتماعاتنا السابقة فى روما. وأرانى أرغب فى أن أنقل إليك كرئيس للشعب الإيطالى بعض عبارات حسن النية. فى هذا الموقف الذى تتسع فيه الشقة، فهل فات الأوان لحقن الدماء بين الشعبين البريطانى والإيطالى ؟ إننا نستطيع أن ننزل ببعضنا إصابات بالغة، وأن يضرب بعضنا بعضا بغير رحمة، وأن نجعل

البحر الأبيض المتوسط بنزاعنا حلكة شديدة الظلام . فإذا كانت هذه بغيتك . فليكن لك ما تريد . ولكننى أعلن أننى ما كنت يوما ما عدوا لعظمة إيطاليا . إن من الصعب أن يتكهن الإنسان بنتيجة هذه المعارك التى تدور الآن فى أوربا ، ولكننى على ثقة من شىء واحد . وهو أنه مهما جد فى أوربا من أحداث فإن انكلترا ستمضى فى طريقها للنهاية ولو بقيت منفردة فى الميدان — شأننا من قبل — وإننى لعلى يقين بأن مساعدات الولايات المتحدة لنا ستزداد بل إننا سنجد المونة من الامريكتين » .

« وأرجو أن تكون على ثقة بأننى لم أوجه إليك هذا النداء عن ضعف أو خوف . فهذا النداء سيبقى خالداً فى سجل التاريخ . وسينبعث صوتا فوق كل صوت . ينادى بأن لا يشتبك الوارثان الشريكان للحضارتين اللاتينية والمسيحية فى قتال . وإنى لأرجو أن تصغى إلى هذا الصوت بكل تقدير وإكبار قبل أن تبدأ إشارة الخطر ولن تبدأ منا على الإطلاق » .

وكان رد موسولينى قاسيا . وإن لم يكن خاليا من الصراحة . قال :

« يطيب لى أن أقول ردا على رسالتك التى بعثت بها إلى أنك لاشك على علم بالأسباب الخطيرة التى أدت إلى وقوف بلدينا فى معسكرين متضادين ولا أرانى فى حاجة إلى الرجوع إلى الماضى. ولكنى أذكرك بالموقف الذى وقفته حكومتك سنة ١٩٣٥ فى مسألة فرض العقوبات على إيطاليا فى جنيف حيث أرادت أن تضمن لنفسها مكانا صغيراً تحت شمس أفريقيا دون أن تمس ممتلكاتكم ومصالحكم أو ممتلكات غيركم ومصالحهم بضرر من الأضرار . وأريد أن أذكرك كذلك بحالة العبودية التى تجد إيطاليا نفسها راسفه فيها ببحرها ، واذا كانت حكومتك قد أعلنت الحرب على المانيا حفظاً منها على كلمتها وتعهداتها فنى استطاعتك أن تدرك أن مثل هـذا الشعور ، بالمحافظة على الكلمة والتمسك

بالالتزامات التى تفرضها المعاهدة الألمانية الإيطالية اليوم أو غدا مهما تكن الأحوال » .

ومنذ هذه اللحظة لم نشك على الإطلاق فى أن موسولينى سيشترك فى الحرب فى الوقت الذى يراه ملائما . وقد تبين أنه قد صمم على الدخول فيها منذ رأى هزيمة فرنسا وقد ذكر تشيانو فى الثالث عشر من شهر مايو . أنه سيعلن الحرب على بريطانيا وفرنسا فى مدى شهر واحد . وقد نقل قراره الرسمى بإعلان الحرب فى أى وقت ملائم بعد اليوم الخامس من شهر يونيه إلى رؤساء أركان حرب القوات الإيطالية وقد تأجل الموعد بإشارة من هتلر إلى اليوم العاشر من شهر يونيه .

* * *

واذا كان مصير الجيوش الشمالية معلقا فى كفة القدر ، فقد طار إلى انكلترا المسيو رينو فى اليوم السادس والعشرين من شهر مايو ليبحث معنا فى هذا الأمر الذى لم يعزب قط عن بالنا . فقد كنا نتوقع دخول إيطاليا الحرب فى كل لحظة . وهكذا فإن نيران الحرب ستشتعل فى فرنسا من جهة أخرى . وسيزحف عليها من الجنوب عدو جائع . فهل فى مقدورنا أن نفعل شيئا لرشوة موسولينى ؟ هذا هو السؤال الذى كنا نتساءله . وكانت كل تأكيدات رئيس وزراء فرنسا تدل على فقدان الأمل . لـكن رينو كان واقعاً تحت ضغط شديد فى بلاده وكنا ننظر إلى حليفتنا بكل تقدير ونولى وجهة نظرها كل اعتبار ، لاسيما ونحن نرى أن سلاحها الحيوى الوحيد ، وهو جيشها ، أخذ ينهار . وقد أبان المسيو رينو بجلاء احتمال انسحاب فرنسا من ميدان القتال . وأكد أنه شخصيا يود أن يستمر فى القتال . إلا أنه ربما حل محله فى رئاسة الوزارة شخص آخر يرى غير هذا الرأى .

وكنا فى الخامس والعشرين من شهر مايو ، بناء على نداء من فرنسا ، قد أرسلنا إلى الرئيس روزفلت رسالة نناشده فيها التدخل . وقد ألححنا للرئيس فى هذه الرسالة أن يوضح لإيطاليا باسم بريطانيا وفرنسا . أننا ندرك شكواها بالنسبة إلى أوضاعنا فى البحر الأبيض المتوسط . وأننا على استعداد لدراسة أى طلب معقول تتقدم به . وأن الحلفاء سيدعون إيطاليا إلى مؤتمر الصلح . على أن يكون وضعها كأية دولة

من الدول المحاربة وأننا سندعو الرئيس إلى ضمان أى اتفاق نصل إليه . وقد بادر الرئيس بتنفيذ ما طلب إليه . ولـكن الديكتاتور الإيطالى رفض قبول دعوته بطريقة حاسمة . فلما اجتمعنا برينو كان أمامنا رد موسولينى . وقد عرض الرئيس الفرنسى اقتراحات أ كثر تحديداً ودقة وإذا كان لهذه الاقتراحات أن تزيل شكوى ايطاليا من حالة العبودية التى نشير إليها فى بحرها فإنها ولا شك ستؤثر على أوضاع جبل طارق والسويس معاً . وكانت فرنسا على استعداد لتقديم تساهل مشابه فى تونس .

ولـكننا لم نـكن نميل إلى قبول هذه الآراء ، ولم يكن هـذا ناشئاً عن اعتقادنا بخطئها . أو أن الموقف لا يتطلب دفع ثمن غال لبقاء ايطاليا خارج الحرب . بل لأننى كنت أعتقد أن كل ما نستطيع عرضه على موسولينى سيناله من هتلر فى حالة هزيمتنا . وليس لإنسان أن يساوم فى اللحظة الأخيرة . وإذا أخذنا فى التفاوض لإبقاء الدوتشى فى موقف يكون فيه صديقاً لنا ، فسنقضى على كل ما لدينا من عزيمة على القتال . وقد رأيت زملائى فى موقف يدل على التشدد والإصرار . وكانت أفـكارنا ترمى إلى ضرب ميلان وتورين فى اللحظة التى يدخل فيها موسولينى الحرب لنرى مبلغ حبه لهذه الغارات . وقد رأيت رينو الذى لم يكن فى قرارة نفسه معارضاً لهذا الرأى راضياً قانعاً . ولـكن هذا لم يمنع الحـكومة الفرنسية بعد بضعة أيام من تقديم عرض مباشر من ناحيتها إلى ايطاليا لإعطائها شيئاً من التنازل الإقليمى . ولكن موسولينى رفضه بأنفة واحتقار . وقال تشيانو للسفير الفرنسى فى اليوم الثالث من شهر يونيه أن « الدوتشى لا يميل إلى استعادة بعض المناطق الفرنسية بطريق المفاوضات السلمية . وقد قرر أن يخوض الحرب ضد فرنسا » وكان هذا ما كنا نتوقعه .

وعلى الرغم من الجهود العظيمة التى بذلتها الولايات المتحدة لم يكن لأى قوة أن تغير الاتجاه الذى ارتآه موسولينى . وفى الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين بعد ظهر اليوم العاشر من شهر يونية ، أبلغ وزير خارجية ايطاليا السفير البريطانى أن ايطاليا تعد نفسها فى حالة حرب مع المملـكة المتحدة منذ منتصف تلك الليلة وقد أرسلت الحـكومة الإيطالية بلاغاً مماثلا إلى الحـكومة الفرنسية . ولما نقل تشيانو مذكرته إلى المسيو فرانسو بونسيه السفير الفرنسى قال وهو يتجه إلى البا -

« ستجدون أن الألمان سادة قساة » وقد أعلن موسوليني من شرفة قصره في رومه إلى الجماهير المحتشدة « أن ايطاليا في حالة حرب مع فرنسا وريطانيا » .

ولقد كانت تلك - كما قال تشيانو معتذرا فيما بعد - « فرصة لاتواتى إلا مرة واحدة كل خمسة آلاف سنة » ولكن هذه الفرص النادرة قد لا تكون طيبة على الدوام .

وأخذ الايطاليون يهاجمون القوات الفرنسية على جبهة الألب وقد أعلنت بريطانيا الحرب على ايطاليا . وصدر الأمر باعتقال خمس بواخر ايطالية ، كانت معطلة في ميناء جبل طارق ، كما صدرت أوامر إلى الأسطول بقطع الطريق على كل ما يرام من البواخر الايطالية وسوقها إلى أقرب ميناء وقامت قاذفاتنا ليلة الثاني عشر من شهر يونيه ، بعد طيران طويل من انكلترا ، بإلقاء أولى قذائفها على تورين وميلان . وكانت تحمل قذائف خفيفة ، إلا أننا سنحمل قذائف أثقل وزناً عندما نبدأ في استخدام المطارات الفرنسية في مرسيليا .

ولم تكن فرنسا تستطيع أن تحشد أكثر من ثلاث فرق . بالإضافة إلى ما يعادل ثلاث فرق أخرى من الحاميات الجبلية لمقابلة الهجوم المنتظر الذى تقوم به مجموعة الجيوش الايطالية الغربية من ممرات الألب وساحل الريفييرا . وكانت هذه الجيوش تبلغ في عددها اثنتين وثلاثين فرقة بقيادة الأمير امبرتو وقد أخذ السلاح الألماني المدرع ينزل سريعا مع مجرى نهر الرون ، للالتفاف حول مؤخرة الفرنسيين ، ومع ذلك ظلت الوحدات الفرنسية الألبية ثابتة أمام الايطاليين في سائر مواقع الجبهة الجديدة حتى بعد سقوط باريس وليون في أيدى الألمان .

ولما اجتمع هتلر وموسوليني في ميونخ في اليوم الثامن عشر من شهر يونيه . لم يكن لدى الدوتشي ما يباهي به كثيرا .

وشرع الإيطاليون في هجوم عام في الحادي والعشرين من يونيه . لكن المراكز الفرنسية في الألب ثبتت لهذا الهجوم . ولم يصل المجهود الرئيسى على الساحل تجاه نيس أن يحقق شيئاً . إذ توقف في مداخل منيتون . وعلى الرغم من أن الجيش الفرنسى على الحدود الجنوبية الشرقية قد استمر محافظاً على مواقعه وشرفه .

إلا أن الزحف الألمانى نحو الجنوب جعل من المستحيل عليه أن يستمر فى القتال . لهذا كان عقد الهدنة مع ألمانيا مرتبطاً بطلب من ايطاليا لوقف الأعمال الحربية .

وكان من المقرر أن يلقى الرئيس روزفلت خطاباً ليلة العاشر من شهر يونيه وحوالى منتصف الليل . أخذت أستمع إلى الخطاب فى غرفة العمليات الحربية فى الأميرالية . حيث كنت أعمل ومعى بعض الضباط . فلما فاه الرئيس بالعبارة الجارحة التى وجهها لايطاليا وقال فيها « فى هذا اليوم العاشر من شهر يونيه سنة ١٩٤٠ ارتفعت اليد التى تحمل الخنجر وأهوت به على ظهر جارتها » شعرنا جميعاً بالرضا والارتياح . وقلت لنفسى ماذا سيكون من أمر أصوات الايطاليين فى الانتخابات القريبة القادمة ؟

لقد كنت أعرف فى روزفلت سياسيا أمريكيا محنكا ، وتأكدت أنه لا يخشى شيئاً فى سبيل تنفيذ إرادته . إن خطابه ولا شك كان رائعاً ويحمل إلينا بصيصاً من الأمل فلم أذهب إلى فراشى تلك الليلة حتى بادرت برسالة أشكر له فيها عواطفه النبيلة .

* * *

وبدأ دور التسابق إلى المغانم . ولم يكن موسولينى هوالوحش الجائع الوحيد الذى يبحث عن الفريسة ، فقد جاء الدب يسعى مسرعاً مع ابن آوى .

وقد بينت سير العلاقات الانكليزية الروسية حتى وقوع الحرب . وشعور العداء نحو بريطانيا وفرنسا الذى كاد يصل إلى حد قطع العلاقات . والذى ظهر بعد غزو الروس لفنلندا .

وكانت ألمانيا وروسيا تعملان معاً إلى الحد الذى يبيحه مابينهما من خلاف متأصل . وكان هتلر وستالين يشتركان فى الروح الديكتاتورية التى يتسمان بها . كما كان نظام الحكم مماثلا إلى حد بعيد فى بلديهما . وكثيراً ما كان مولوتوف يتصل بسفير ألمانيا الكونت شولنبرج فى المناسبات الهامة وكان على جانب كبير من الصراحة فى ثنائه على السياسة الألمانية وأعمال هتلر العسكرية . فلما هاجم الألمان النرويج

أعلن مولوتوف « أن الحكومة السوفياتية تدرك تماما ماحدا بألمانيا إلى القيام بهذا العمل فالانجليز قد ساروا بعيداً فى تجاهلهم حقوق الدول المحايدة » ثم قال « وإننا لنتمنى لألمانيا النصر الكامل فى أعمالها الدفاعية » وقد أبلغ هتلر ستالين صباح اليوم العاشر من شهر مايو إنباء الهجوم الخاطف على فرنسا والأراضى المنخفضة المحايدة الذى شرع فيه . وكتب شولنبرج يقول « زرت مولوتوف فأبلغته الخبر وقد استحسنه وأضاف أنه يعرف أن ألمانيا لابد أن تحمى نفسها ضد الهجوم الانكليزى — الفرنسى ولم يكن يشك مطلقاً فى انتصارنا »

وعلى الرغم من أننا لم نكن نعرف شيئاً عن هذه التصريحات إلا بعد انتهاء الحرب • إلا أننا لم نكن مخدوعين أبداً فى موقف الروس ومع هذا فقد سرنا على سياسة التريث والأناة وحاولنا أن نقيم علاقات ذات طابع سرى مع روسيا . ورأيت من الحكمة . الإفادة من كفايات السير ستافورد كريبس بتعيينه سفيراً فى موسكو . وقد قبل القيام بهذه المهمة الشاقة ، التى لا أمل فيها ، بسعة صدر ولم نكن ندرك تماماً أن الشيوعيين السوفييت يكرهون الساسة من رجال الجناح اليسارى المتطرف ، أكثر من كراهيتهم المحافظين أو الأحرار . فكلما اقترب الإنسان من الشيوعية بميوله القلبية كان أكثر تعرضاً لكراهية السوفييت إلا إذا انضم إلى الحزب . وقد وافقت الحكومة السوفيانية على تعيين كريبس سفيراً لنا فى بلادها وأوضحت الأسباب لشركائها النازيين . وكتب الكونت شولنبرج إلى برلين فى التاسع والعشرين من شهر مايو يقول « إن الاتحاد السوفياتى . له اهتمام بالغ بالحصول على المطاط والصفيح من انكلترا مقابل الخشب، ولاسبيل إلى القلق من بعثة كريبس . إذ لامبرر على الإطلاق للشك فى موقف الإخلاص الذى يقفه منا الاتحاد السوفياتى . كما أن السياسة السوفياتية الجديدة بالنسبة لبريطانيا لاتحمل أى أضرار بألمانيا أو بمصالحها الحيوية وليس ثمة مايدعو للاعتقاد بأن انتصارات ألمانيا قد أحدثت شيئاً من الفزع أو الخوف فى دوائر الحكومة السوفياتية » .

وكان انهيار فرنسا والدمار الذى حل بجيوشها ، وفترة الانتظار المتوقعة فى الغرب أمورا تدعو ستالين إلى التفكير العميق . ولكن لم يبد مايدل على أن الروس

بدأوا يدركون خطورة الموقف . وقد بعث شولنبرج فى الثامن عشر من شهر يونيه أى عندما تمت هزيمة فرنسا يقول «لقد دعانى مولوتوف إلى مكتبه هذا المساء وأبلغنى تهانى الحكومة السوفياتية البالغة بالانتصارات الباهرة التى أحرزتها المانيا المسلحة وكان هذا قبل سنة واحدة من التاريخ الذى هاجمت فيه هذه القوات نفسها الحكومة السوفياتية بهجوم مفاجىء على روسيا فى كتائب حافلة من الحديد والنار ، ونحن نعرف أن هتلر بعد أربعة شهور فحسب من هذا الحديث كان قد صمم على أن يقوم بحرب مهلكة ضد السوفييت وبعد الحركات الواسعة السرية لنقل هذه الجيوش ، التى هنأها السوفييت بانتصارها ، إلى الشرق .

ولم يكن هذا التقدير السيء ليمنع الحكومة السوفياتية وعملاءها من الشيوعيين وشركاءها المنتشرين فى العالم من أن يرفعوا عقيرتهم مطالبين بفتح الجبهة الثانية التى لابد لبريطانيا . وهى الدولة التى سبق للسوفيات أنفسهم أن حكموا عليها بالعبودية والخراب . أن تقوم بدور قيادى فيها .

ولكننا على أى حال كنا نقدر الأمور قدرها وندرك المستقبل أكثر مما يدركه هؤلاء « الحاسبون » الذين يبنون سياستهم على الأرقام . وقد عرفنا الأخطار التى كانوا معرضين لها وما تتطلبه مصالحهم الحقيقية أكثر مما كانوا يدركون .

وفى اليوم الرابع عشر من شهر يونيه — أى يوم سقوط باريس — بعثت موسكو إلى ليتوانيا إنذارا نهائيا تتهمها فيه هى والدول البلطيقية الأخرى بالتآمر على الاتحاد السوفياتى وتطالبها بتغييرات أساسية فى حكومتها وببعض التساهل فى بعض الشئون العسكرية وفى اليوم الخامس عشر من شهر يونية ، قام الجيش الأحمر بغزو تلك البلاد وتعرضت لاتفيا واستونيا للمعاملة نفسها . فقد فرضت عليها إقامة حكومات موالية للسوفيات وقبول حاميات سوفياتية فى أراضيها . وكانت المقاومة غير وافية بطبيعة الحال . وسرعان ما نقل رئيس جمهورية لاتفيا إلى روسيا ليظل منفيا فيها . ووصل المستر فيشنسكى ليقوم بتعيين حكومة مؤقتة ويشرف على انتخابات جديدة . أما فى استونيا فكان الوضع مماثلا فقد وصل إليها فى اليوم التاسع عشر من شهر يونية جدانوف ليقيم حكومة مشابهة . وفى اليوم الثالث من شهر أغسطس لم تبق حاجة إلى ادعاء

ضرورة قيام حكومات موالية فقد ضمت دول البلطيق جميعها إلى الاتحاد السوفياتى.

وبعث الروس بإنذار نهائى إلى رومانيا عن طريق وزيرها فى موسكو فى الساعة العاشرة من مساء اليوم السادس والعشرين من شهر يونيه ، طالبوا فيه بالتخلى عن بسارابيا والجزء الشمالى من مقاطعة بوكوفينا على أن تبعث رومانيا بردها فى اليوم التالى . وعلى الرغم مما أصاب المانيا من الذعر لهذا العمل الذى يدل على التهجم والاندفاع من جهة روسيا ، لما فيه من الأضرار بمصالحها الاقتصادية فى رومانيا . فقد اضطرت لقبوله بحكم الاتفاق المعقود بين ريبنتروب ومولوتوف فى أغسطس سنة ١٩٣٩ ويعترف لروسيا بمصالحها فى جنوب شرق أوربا . ولهذا فقد أشارت المانيا على رومانيه بقبول طلبات روسيا ، وفى السابع والعشرين من شهر يونيه انسحبت القوات الرومانية من المقاطعتين المذكورتين وانتقلت أراضيهما إلى أيدى الروس . ومن ثم توطدت مراكز قوات الاتحاد السوفياتى المسلحة على شواطىء البلطيق ومصب نهر الدانوب .

عود إلى فرنسا

من ٤ يونيه إلى ١٢ يونيه

لقد ساد شعور بالارتياح والرضى حين أذيع عدد الذين تم إنقاذهم من دنكرك وقد عم هذا الشعور سائر أنحاء الجزر البريطانية بل سائر أرجاء العالم . أجل : كان هناك شعور بالراحة بعد الشدة ، انقلب إلى شعور بالنصر . فإن عودة نحو ربع مليون من زهرة أبنائنا بسلام إلى أرض الوطن علامة فاصلة فى طريقنا عبر سنوات من الهزيمة . وقد عاد الجنود لا يحملون شيئاً غير البنادق والسنان وبضع مئات من المدافع الرشاشة . وقد أسرعوا إلى بيوتهم ليقضوا أسبوعاً من الأجازة فيها . ولم تكن فرحتهم بالاجتماع بعائلاتهم لتخفف من رغبتهم الملحة فى ملاقاة العدو فى أول فرصة . وكان الذين أتيحت لهم فرصة الاشتباك مع الألمان موقنين بأنهم إذا أتيحت لهم فرصة متساوية فسيتغلبون على العدو ، وكانت روحهم المعنوية عالية إلى حد بعيد ، وسرعان ما التحقوا بفرقهم وبطارياتهم بقوة ونشاط بالغين .

وكانت فى دنكرك ناحية مظلمة حالكة فقد خسرنا فيها كل ما كان يملكه الجيش من عتاد . وكان النتاج الأول لمصانعنا يرسل إلى هذه القوات . وقد نقضى عدة أشهر لتعويض ماخسرناه حتى ولو نفذنا برامجنا ولم ينجح العدو فى تعطيلها .

إلا أن بعض العواطف قد ثارت فى نفوس بعض البارزين من قادة الولايات المتحدة من الناحية الأخرى للمحيط الأطلنطى . وقد أدركوا فى الحال أن الغالبية الكبيرة من الجيش البريطانى قد نجت بعد أن فقدت كل عتادها . ولم يدن اليوم الأول من شهر يونيه حتى أصدر الرئيس أوامره إلى وزارتى الحربية والبحرية بأن تقدما إليه تقريراً عما تستطيعان الاستغناء عنه من الأسلحة لإرسالها إلى بريطانيا وفرنسا . وكان الجنرال مرشال يقوم على رأس الجيش الأمريكى كرئيس لهيئة أركان الحرب ويجمع إلى امتيازه كجندى امتيازاً بسعة الأفق وبعد التصور وقد أصدرت أوامره العاجلة

إلى نائبه وإلى رئيس دائرة المستودعات ليقدما إليه بياناً كاملا بكل مالدى الجيش الأمريكي من احتياطي فيالسلاح والذخائر . وفي مدى ثمانية وأربعين ساعة كانت هذه القوائم قد أعدت . ووافق الجنرال مرشال عليها في اليوم الثالث من شهر يونية . وتشتمل القائمة الأولى منها على ربع مليون بندقية من مجموع مليوني بندقية صنعت سنتي ١٩١٧ و ١٩١٨ وظلت محفوظة في أوراقها نحو عشرين عاماً وكانت مع كل بندقية منها نحو ٢٥٠ طلقة وكان هناك نحو تسعمائة مدفع ميدان عيار ٧٥ ومعها أكثر من مليون قذيفة ، وثمانون ألف مدفع رشاش وأنواع أخرى من السلاح . وقد صدر الأمر إلى الميجور جنرال ويسون بالإشراف على إعداد تصديرها . وأسرعت جميع مخازن الجيش الأمريكي ومستودعاته بحزم المواد الحربية ولم تحل نهاية الأسبوع حتى كانت ستمائة سيارة متجهة بما فيها من العتاد الضخم إلى أرصفة الجيش في راريتان في نيوجرسي . وفي اليوم الحادى عشر من شهر يونية كانت إثنتا عشرة باخرة تجارية بريطانية تدخل إلى الميناء وترسو فيه لتحمل الشحنات على سطحها .

وقد ترتب على هذه التدابير الاستثنائية التي قامت بها الولايات المتحدة أنها أصبحت لا تملك لنفسها من المعدات إلا ما يكفي مليوناً وثمانمائة ألف رجل . وهو أقل رقم يمكن أن يقدر لمشاريع التعبئة للجيش الأمريكي . ولعل من ينظر إلى هذه الأرقام الآن لا يقدرها حق قدرها ، ولكنها كانت في ذلك الوقت عملا عظيما منبعثاً عن الإيمان والقيادة ، قامت به الولايات المتحدة وحرمت نفسها هذه المقادير الهائلة من السلاح لترسلها إلى بلاد كان الكثيرون يعتبرونها قد أصيبت بالهزيمة في الحرب . ولم تندم الولايات المتحدة على هذا العمل بطبيعة الحال .. وقد قمنا بنقل هذه الأسلحة الثمينة من الأطلنطي بأمان في شهر يوليه . فوصلت إلينا وهي لا ترمز إلى عامل مادى إكتسبناه فحسب بل إلى عوامل أخرى لها أهميتها الكبرى في سائر الاعتبارات التي ينظر إليها العدو والصديق بالنسبة للغزو .

وكان شهر يونية من الأيام الشاقة بالنسبة لنا ، لما نواجهه من الحاجة إلى الجهود المزدوجة التي يجب أن نقوم بها في هذا الموقف المكشوف الذى كنا فيه مدفوعين

بالواجب الذى يتحتم علينا نحو فرنسا ، وحاجتنا إلى جيش عامل فى أرض الوطن ، وتحصين جزرنا من الناحية الأخرى . وقد اتبعنا على الرغم من المواقف المتضاربة سياسة ثابتة مرطدة لاتؤثر فيها الاندفاعات العاطفية . وقد ظل همنا الأول هو إرسال ما يمكننا إرساله من قوات مدربة حسنة الإعداد لإعادة تنظيم الحملة البريطانية فى فرنسا . ثم بذل جهودنا للدفاع عن جزرنا بإعادة تأليف الجيش النظامى وإعداده وتحصين المواقع التى يحتمل أن يقع فيها إنزال الجيوش وتزويد السكان بالسلاح وتنظيمهم . ثم نقل ما نستطيع نقله من قوات من أنحاء الامبراطورية إلى بريطانيا . ولم نكن فى حاجة إلى الرجال بقدر حاجتنا إلى السلاح . وقد استطعنا إنقاذ نحو ثمانين ألف بندقية من القواعد ومراكز المواصلات إلى الجنوب من نهر السين ولم ينتصف شهر يونية حتى كان كل جندى محارب فى الجيش العادى النظامى . قد حمل سلاحاً خاصاً به فى يده ، ولم يكن لدينا من مدفعيه الميدان إلا القليل حتى للجيش النظامى حيث كنا قد أضعنا فى فرنسا جميع مدافعنا الجديدة من عيار خمسة وعشرين رطلا ولم يبق لدينا غير خمسمائة مدفع و ١٠٣ دبابات متوسطة و ١١٤ دبابة للمشاة و ٢٥٢ دبابة خفيفة . ولم يعرف أن شعبا عظيما يقف مثل هذا الموقف من العراء أمام أعدائه .

وقد رأينا أن من واجبنا إرسال المعونة إلى فرنسا قبل كل شىء وكان من المقرر أن تبدأ حركة إرسال الفرقة الثانية والخمسين إلى فرنسا فى اليوم السابع من شهر يونية وفق الأوامر السابقة ، وقد أعدنا تأكيد هذه الأوامر . وصدر الأمر إلى الفرقة القيادية من الجيش الكندى التى كانت قائمة فى انكلترا من أول العام والمسلحة بأحسن السلاح بأن تتوجه إلى بريست . بموافقة الحكومة الكندية على أن تبدأ فى الوصول إلى هنالك فى اليوم الحادى عشر من شهر يونية أى فى نفس الوقت الذى كانت فيه الآمال تنهار . وقد كان إرسال هاتين الفرقتين إلى فرنسا المتداعية فى مثل هذا الموقف الذى كنا نتوقع فيه أن يندفع الألمان لمهاجمتنا بكل ما لديهم من قوة وعنف ، عملا رائعا لصالحنا إذا ما قورن بالقوات المحدودة جداً التى استطعنا إرسالها إلى فرنسا فى الأشهر الثمانية الأولى من الحرب . وأعجب حين أعود بذا كرتى

إلى هذه الحقائق كيف أتيح لنا أن نرسل التشكيلة العسكرية الوحيدة العاملة التى نملكها إلى فرنسا لو لم نكن ندرك صعوبة عبور المانش بالنسبة للعدو إلا إذا سيطر على البحر أو الجو أو أحرز المعدات اللازمة لإنزالها إلى البر .

* * *

وكان لدينا فى فرنسا الفرقة الجبلية الحادية والخمسون القائمة وراء السوم ، التى انسحبت من خط ماجينو . وكانت لا تزال فى حالة طيبة . وكانت هناك أيضاً فرقتنا المدرعة الأولى والوحيدة — باستثناء كتيبة الدبابات والفئة المساعدة — التى سحبت وأرسلت إلى كاليه للمساهمة فى عملية الإنقاذ . وقد خسرت هذه الفرقة عدداً من رجالها فى محاولة عبور نهر السوم . كجزء من خطة فيجان . ولم يدن اليوم الأول من شهر يونيه حتى كانت هذه الفرقة قد خسرت ثلثى رجالها . وصدرت الأوامر بسحب ما بقى من رجالها إلى ما وراء نهر السين لإعادة تنظيمها . ثم جمع تسعة أفواج من المشاة لا تحمل غير البنادق ، من محطات المواصلات وراء الخطوط فى فرنسا ، ولم يكن لديها إلا القليل من الأسلحة المضادة للدبابات . وليس لديها أية معدات ميكانيكية أو أجهزة إشارة .

وقد بدأت المرحلة الأخيرة من معركة فرنسا فى اليوم الخامس من شهر يونيه . وقد رأينا آنفاً كيف وفر الألمان أسلحتهم المدرعة ولم يستخدموا الكثير منها فى معركة دنكرك ، محتفظين بها لهذه المعركة النهائية فى فرنسا . وقد تدفق هذا السلاح جميعه نحو الجبهة الفرنسية الضعيفة المتداعية الممتدة من باريس إلى البحر . ولست أستطيع هنا أن أسجل غير معركة الجناح الساحلى التى لعبنا فيها دوراً . وقد أراد الجيش الفرنسى العاشر الاحتفاظ بخط نهر السوم . ولكن فرقتين مدرعتين ألمانيتين استطاعتا فى اليوم السابع من شهر يونيه الاندفاع نحو روان وبذلك أصبح الجناح الفرنسى الأيسر الذى يضم فرقتنا الحادية والخمسين معزولا عن باقى الجبهة ، وذلك بتطويق الجيش الفرنسى التاسع فى مثلث روان — دييب — النهر .

وقد خشينا واشتد قلقنا من أن يتسع هذا العزل فيشمل شبه جزيرة الهافر التى تصبح معزولة عن الجيوش الرئيسية .

لهذا صدرت الأوامر إلى الجنرال فورشون بأن ينسحب فى اتجاه روان إذا لزم الأمر إلا أن هذه الحركة لم تتم بسبب الضعف الذى نال القيادة الفرنسية . وقد قدمنا بيانات عاجلة متكررة إلى الفرنسيين فى هذا الشأن ولكن بدون جدوى . وكان هذا من سوء التدبير إذ أن الخطر كان ظاهراً منذ ثلاثة أيام على أقل تقدير .

وفى اليوم العاشر من شهر يونيه تمكنت الفرقة بعد قتال عنيف من التقهقر مع الجيش الفرنسى التاسع نحو خط سان فاليرى للجلاء بطريق البحر . ولكن الضباب فى ليلتى الحادى عشر والثانى عشر من شهر يونيه قد حال دون جلاء الجنود على ظهر البواخر . ووصل الألمان فى صباح الثانى عشر إلى الجانب الصخرى إلى الجنوب . وأصبح الشاطىء واقعاً تحت نيرانهم المباشرة . وارتفعت الأعلام البيض فوق البلدة ، واستسلم اللواء الفرنسى فى الساعة الثانية صباحا . وفى الساعة العاشرة والنصف اضطرت البقية الباقية من فرقتنا الجبلية إلى الاستسلام . ووقع ثمانية آلاف جندى بريطانى وأربعة آلاف جندى فرنسى فى أسر الفرقة الألمانية المدرعة السابقة التى يقودها الجنرال رومل . ولقد أثارنى أن أرى الفرنسيين لا يسمحون لفرقتنا بالتراجع إلى روان قبل فوات الأوان وإبقائها فى مواقعها حتى أصبح من المتعذر عليها أن تصل إلى الهافر أو تتراجع نحو الجنوب مما أضطرها إلى الاستسلام مع قواتهم . ولقد كان مصير الفرقة الجبلية أحسن نوعا ، ولكن الاسكتلانديين قد ثأروا لهذا المصير عندما أعادوا تأليف فرقتهم وعبأوا صفوفهم وتوحدوا مع الفرقة الاسكتلاندية التاسعة وساروا جنباً إلى جنب من ميادين العلمين إلى النصر النهائى وراء الراين .

وقد تلقيت فى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم الحادى عشر من شهر يونيه رسالة من رينو . وكان قد أبرق كذلك للرئيس .. لقد بدأت المأساة الفرنسية تسير نحو الكارثة وكنت منذ عدة أيام ألح فى اجتماع المجلس الأعلى .

وقد تعذر الآن الاجتماع فى باريس . إذ لم تمكن قد وصلتنا الأنباء بالمعلومات الصحيحة عن الأوضاع فيها . ولا شك أن « رءوس رماح » الاندفاع الألمانى كانت تقترب منها ووجدت من التعذر الحصول على موعد من رينو . ولم يكن الوقت وقت التمسك بالرسميات وعلينا أن نعرف ما يريد الفرنسيون أن يعملوه . وقد أبلغنى رينو أنه يستطيع أن يستقبلنى فى بريار بالقرب من أورليان . إذ بدأت العاصمة الرسمية تجلو عن باريس إلى تور . أما مقر القيادة العامة فقد أنتقل على مقربة من بريار . وقد أصدرت أوامرى إلى طائرة « فلامنجو » بالأستعداد فى مطار هندون بعد الغداء . وسافرت فى الساعة الثانية بعد الظهر . بعد أن كنت قد حصلت على موافقة زملائى الوزراء بالسفر فى الجلسة التى عقدناها قبيل الظهر .

وكانت هذه هى رحلتى الرابعة إلى فرنسا . ولما كانت الأوضاع العسكرية هى المسيطرة إذ ذاك . فقد طلبت إلى المستر إيدن وزير الحربية أن يصطحبنى مع الجنرال ديل رئيس أركان حرب الأمبراطورية والجنرال إيسماى وكانت الطائرات الألمانية إذ ذاك تسير أشواطا بعيدة فى سماء المانش مما أرغمنا على القيام بدورة واسعة . ومضت الفلامنجو ومعها اثنتا عشرة طائرة من طائرات « نافثات اللهب » وبعد ساعتين وصلنا إلى مطار صغير كان فيه بعض الفرنسيين وأسرع إلينا ضابط فرنسى برتبة الكولونيل فى سيارة وتظاهرت فى وجهه بالثقة والاطمئنان وابتسمت ابتسامة عريضة كنت أعتقد أنها مناسبة فى مثل هذا الوقت ولكن الضابط لم يستجب لابتسامتى فشعرت فى الحال بأن الموقف قد ساء كثيراً عما كان فى اجتماعنا السابق منذ أسبوع بباريس وسار بنا الكولونيل إلى دار وجدنا بها رينو والمريشال بيتان والجنرال فيجان وقائد الجوفويمن ، وعددا آخر من الضباط من بينهم الجنرال — الصغير نسبيا — ديجول الذى عين منذ قليل وكيلا لوزارة الدفاع الوطنى . وعلى السكة الحديدية كان قطار القيادة حيث لاذ عدد من رفاقنا . أما الدار فلم يكن بها إلا جهاز تليفونى واحد وضع فى دورة المياه وكان مشغولا على الدوام لتأخير الاتصالات التليفونية .

ولما حانت الساعة السابعة بدأنا اجتماعنا . ولم يكن بيننا مجال للتأنيب أو تبادل

الألفاظ النابية فقد كنا جميعاً أمام حقائق مفزعة . وقد دار الحديث بيننا على النحو التالى : لقد طالما حثثت الحكومة الفرنسية على الدفاع عن باريس وأنا أؤكد ما يستغرقه القتال فى الشوارع ومن بيت إلى بيت فى مدينة كبيرة من قوات الجيش النازى وذكرت الريشال بيتان ، بتلك الليالى التى أمضيناها معاً فى قطاره فى أحد الشارب بعد كارثة الجيش البريطانى الخامس سنة ١٩١٨ حيث استطاع — ولم أذكر الريشال فوش إذ ذاك — من إنقاذالموقف . وذكرته بكليمنصو وكيف كان يقول « سأقاتل أمام باريس ، وفى باريس ووراء باريس » وقد أجاب الماريشال بيتان بهدوء تام وذهوأنه كان فى تلك الأيام يعمل بقوات للمناورة تبلغ نحو ستين فرقة . أما الآن فانه لا يملك شيئاً منها . وقال « إنه فى تلك الأيام كانت فى الجبهة ستون فرقة بريطانية . وأضاف إن من العبث الذى لا يؤدى إلى نتيجة تدمير باريس » .

وأخذ الجنرال ريتويستعرض الموقف العسكرى بقدر ما وصل إلى علمه بالنسبة لهذه المعركة المذبذبة التى تدور على بعد خمسين ميلا أو ستين . وقد أثنى ثناء بالغاً على شجاعة الجيش الفرنسى . وناشدنا أن نرسل كل ما نستطيع من نجدات وفى مقدمتها أسراب المقاتلات البريطانية التى يجب دفعها إلى المعركة حالا ثم مضى يقول « هذه لحظة حاسمة ومن الخطأ إبقاء أى سرب من الطائرات فى انكلترا » ولكننى بناء على قرار مجلس الوزراء البريطانى الذى اتخذ بحضور ماريشال الجو الأعلى داودينج الذى أحضرته فى جلسة مجلس الوزراء بصفة خاصة قلت « إن هذه النقطة ليست حاسمة وهذه ليست باللحظة الحاسمة كذلك فستكون اللحظة الحاسمة عندما يوجه هتلر جميع سلاحه الجوى إلى بريطانيا العظمى . فإذا استطعنا أن نسيطر على الجو وإذا أمكننا أن نستبق البحار على حالها مفتوحة — وهذا ما سنتمكن منه ولا شك — فسنعود ونستعيد لكم كل شىء » فثمة خمسة وعشرون سربا من الطائرات المقاتلات لابد أن تظل للدفاع عن بريطانيا مهما يكن الثمن . ونحن مصممون على أن نمضى فى الحرب إلى النهاية وإننا واثقون بأننا سنتمكن من ذلك إلى حد بعيد أما التخلى عن هذه الأسراب فمعناه القضاء على فرصتنا فى الحياة » .

ووصل الجنرال جورج القائد الأعلى للجبهة الشمالية الغربية فجأة وبعد استماعه إلى

خلاصة ما دار من الحديث أكد الصورة التي رسمها فيجان للجبهة الفرنسية . وقد دعوتهم إلى التمسك بالخطة التي سبق أن أشرت إليها وهي حرب العصابات . فالجيش الألماني ليس إلى هذا الحد من القوة التي يظهر بها عند وقوع الاصطدام وإذا قامت الجيوش الفرنسية بسائر فرقها وكتائبها بمحاربة الألمان في الجبهة التي تواجههم بحيوية وعزيمة فاننا ولا شك نستطيع أن نوقف زحف الألمان ورد علىّ الفرنسيون ببيانات عن الموقف الرهيب على الطرق التي تفيض بأفواج اللاجئين الذين تتابعهم نيران المدافع الرشاشة المنصبة من الطائرات الألمانية . وعن حالة الهزائم الجماعية التي سيطرت على جماهير كبيرة من السكان وعن تداعي الجهاز الحكومي والسلطة العسكرية . وقد ذكر الجنرال فيجان في لحظة أن الفرنسيين ربما اضطروا إلى طلب الهدنة . وهنا انتفض رينو قائماً ليقول بطريقة خاطفة « هذه مسألة سياسية » وقلت في مجال الرد « إذا كانت فرنسا في محنتها ترى من صالحها أن يستسلم جيشها فعليها أن لا تتردد في ذلك بسببنا على الإطلاق ومهما يكن قراركم فاننا مصممون على القتال إلى النهاية وإلى النهاية إلى النهاية » فلما قلت إن على الجيش الفرنسي أن يستمر في القتال حيث كان وحيثما استطاع لأضعاف مائة فرقة ألمانية رد الجنرال فيجان قائلا « وحتى إذا تم هذا فإن الجيش الألماني سيظل لديه مائة فرقة أخرى لغزوكم واحتلال بلادكم . فما عسا كم تصنعون حينئذ» ورددت عليه بقولي «لست من الخبراء العسكريين ولكن مستشاريّ الفنيين يرون أن الطريقة المثلى لمعالجة الغزو الألماني المنتظر لبريطانيا هو أن نغرق أكبر عدد من الغزاة في البحر وهم في طريقهم إلينا ، وأن نهشم رءوس الباقين عندما يصلون زاحفين إلى الشاطىء » فقال فيجان وقد علت وجهه ابتسامة كئيبة « يجب أن أعترف على أي حال بأن لديكم حاجزاً منيعاً ضد الدبابات » وكانت هذه آخر الكلمات المؤثرة التي سمعتها منه . وكنت طوال هذه المناقشة المؤلمة أنوء بحزن شديد لأن بلاداً مثل بريطانيا عدد سكانها نحو ثمانية وأربعين مليوناً لم تستطع أن تساهم مساهمة أكبر مما قدمت في الحروب البرية ضد المانيا وأن تسعة أعشار المذبحة وتسعة وتسعين في المائة من الآلام وقعت على فرنسا وعليها وحدها .

ونهضنا لنغسل أيدينا لتناول الطعام وقد جيء به إلى مائدة المؤتمر وفي أثناء ذلك تحدثت إلى الجنرال جورج بصفة خاصة . وقد اقترحت أولا أن يستمر القتال

فى كل مكان فى الجبهة الداخلية . وتنظيم حرب طويلة للعصابات فى الجهات الجبلية ثم الانتقال ثانيا إلى إفريقيا وهى خطوة كنت أظنها علامة انهزام قبل أسبوع ولكن صديقى المحترم — الذى على الرغم من أنه يتولى مسئوليات مباشرة — لم يكن مطلق الحرية فى يوم من الأيام فى قيادة الجيوش الفرنسية وقد لمست أنه لا يرى أملا كبيراً فى المشروعين اللذين عرضتهما عليه .

وإنى لأتحدث ببساطة عن أحداث تلك الأيام . ولقد كانت تلك الأحداث فى حينها آلاما حقيقية تختلج فى عقولنا وأرواحنا جميعاً .

* * *

وقد جلسنا إلى مائدة العشاء حوالى الساعة العاشرة وكان مجلسى إلى يمين رينو. وكان الجنرال ديجول إلى جانبى من الناحية الأخرى . وقدم إلينا حساء وعجة بيض وقهوة ونبيذ خفيف . وكنا حتى تلك اللحظة من المحنة التى نزلت بنا من تلك الكوارث الألمانية لا نزال على حد كبير من الصداقة ولكن سرعان ما وقع فصل مؤلم وقد يذكر القارىء ما علقت من الأهمية على وجوب ضرب إيطاليا ضرباً عنيفا فى اللحظة التى تدخل فيها الحرب وإجراء الترتيبات اللازمة لنقل القاذفات البريطانية بعد موافقة الفرنسيين إلى المطارات الواقعة قرب مرسيليا لتضرب تورين وميلان . وكان كل شىء فى ذلك الوقت على استعداد تام للضرب . وما كدنا نجلس إلى المائدة حتى جاءت إشارة من ماريشال الجو بارات قائد القوات الجوية البريطانية فى فرنسا إلى الجنرال ايسمان تقول إن السلطات المحلية تعارض فى قيام القاذفات البريطانية بالاغارة من مطارات مرسيليا إذ أن الغارات على ايطاليا ستكون نتيجتها توجيه أعمال تآمرية لجنوب فرنسا وليس فى وسع البريطانيين صدها ، وقمنا عن المائدة أنا ورينو وفيجان وإيدن وديل وقد تحدثنا حديثاً قصيراً بعده وافق رينو على إصدار الأوامر إلى السلطات الفرنسية المختصة بالسماح للقاذفات البريطانية بأن تؤدى واجبها ولكن سرعان ما تلقينا اشارة تليفونية أخرى تقول إن أفواجا من الفرنسيين المقيمين بالقرب من المطارات قد جاءوا بمختلف العربات وسيارات النقل ووضعوها فى أراضى المطارات حتى أصبح من المستحيل على القاذفات أن تقوم من مرابضها لأداء واجباتها .

ولما غادرنا المائدة وجلسنا لنتناول قهوتنا مع بعض البراندى أبلغنى رينو أن المريشال بيتان قال له إن على فرنسا أن تطلب الهدنة . وأنه قد أعد مذكرة بذلك ويريد منه أن يقرأها واستمر رينو يقول « إنه لم يقدم إلى هذه المذكرة بعد . ويظهر أن الخجل لم يزل مستوليا عليه . ويمنعه من تقديمها » ولا شك أنه خجل كذلك عند تأييد طلب الجنرال فيجان بأن نرسل أسراب طائرتنا الخمسة والعشرين بعد أن قرر فى أعماق نفسه أن الأمل قد ضاع . وأن فرنسا يجب عليها أن تسلم . وقد ذهبنا جميعا إلى مضاجعنا . والأسى يملأ قلوبنا والحزن يخيم على نفوسنا وفى صباح اليوم الرابع عشر دخل الألمان باريس .

وعدنا فعقدنا مؤتمرنا فى الساعات المبكرة من الصباح . وقد حضره مريشال الجو بارات وأعاد رينو طلبه بأن نبعث بخمسة أسراب من المقاتلات إلى فرنسا وقال الجنرال فيجان انه فى حاجة شديدة إلى القاذفات النهارية لتتم النقص الذى يراه فى الجنود وأكدت لهما أن زيادة المساعدة الجوية ستبحث بحثاً شاملا فى وزارة الحرب البريطانية بمجرد عودتى إلى لندن مع التصميم على وجهة نظرى بأنه من الخطأ الشديد حرمان المملكة المتحدة وسائل الدفاع التى لا غنى عنها فى أرضها .

وبعد حديث لا طائل وراءه . عن هجوم مضاد فى أدنى حوض السين أبديت فى لهجة حاسمة رغبتى فى أن تقوم الحكومة الفرنسية عند حدوث أى تغير فى وضعها بابلاغ الحكومة البريطانية بصفة عاجلة لنستطيع الحضور فى الحال للالتقاء بهم فى المكان المناسب الذى يختارونه قبل اتخاذ قرارات حاسمة فيما يتعلق بدورهم فى المرحلة الثانية من الحرب .

واستأذنا للسفر من بيتان وفيجان وأركان حربهما . وكانت هذه آخر مرة اجتمعنا فيها وانفردت جانباً بالأميرال درلان وقلت له «اسمع يادرلان . إياك أن تسمح للألمان بالاستيلاء على الأسطول الفرنسى . فوعدنى وعداً قاطعا بأنه لن يسمح بذلك على الإطلاق .

* * *

ولم يكن لدينا من الوقود الصالح ما يسمح لقيام الطائرات « قاذفات اللهب » بمرافقتنا للحراسة . وكان علينا أن نختار أحد أمرين . إما أن نتريث حتى يصل الوقود أو نجازف بالفلامنجو وحدها . وقد أكدوا لنا أن الضباب يغطى طريقنا من سائر النواحى . وكانت عودتنا عاجلا إلى الوطن أمراً لا مفر منه ومن ثم رحلنا بالفلامنجو . وطلبنا من القيادة الجوية البريطانية أن ترسل ببعض الطائرات لمقابلتنا وحراستنا فوق المانش .

فلما اقتربنا من الشاطىء كانت الغيوم قد تبددت وصحا الجو . ورأينا على بعد ثمانية آلاف قدم مدينة الهافر تحتنا تلتهمها النيران وكانت سحب الدخان المتصاعدة من الميناء تتجه نحو الشرق ولم نر أية طائرة قادمة لحراستنا . وقد لاحظت أن قائد الطائرة يقوم بمشاورات مع مساعديه ثم أسرعت الطائرة فهبطت بنا بحركة منقضة إلى ارتفاع مائة قدم أو مايقرب من ذلك فوق البحر الهادىء حيث لا ترى الطائرات . وسألت عما حدث وعرفت فيما بعد أنهم رأوا طائرتين ألمانيتين تحتنا تطلقان النيران على زوارق الصيد . ولحسن حظنا أن الطائرتين الألمانيتين لم تنظرا عاليا ثم استقبلتنا طائرات الحراسة عندما اقتربنا من الشاطىء الإنكليزى وهبطت بنا الطائرة الأمينة فلامنجو فى مطار هيندون بسلام .

وفى الساعة الخامسة من مساء ذلك اليوم نقلت إلى وزارة الحرب ما أسفرت عنه بعثتنا . وشرحت للزملاء موقف الجيوش الفرنسية على ضوء مانقله إلينا فى المؤتمر الجنرال فيجان . فقد قطعت هذه الجيوش ستة أيام فى قتال مستمر ليلا ونهارا وأصبحت فى موقف اليأس والتهالك ويقوم العدو بهجوم عام يستخدم فيه مائة وعشرين فرقة تعززها الدبابات والمدرعات ضد أربعين فرقة فرنسية . وتقف الجيوش الفرنسية الآن عند آخر خط دفاعى تستطيع منه أن تبذل شيئا من المقاومة المنظمة . وقد استطاع الألمان إلى الآن أن يجتازوا هذا الخط من نقطتين أو ثلاث . ولا شك أن الجنرال فيجان لا يرى أملا فى الاستمرار فى القتال . وهو يرى أن الألمان يقومون بتدمير فرنسا بطريقة منظمة وواجبه يدعوه إلى إنقاذ ما تبقى من البلاد من هذه النهاية . وقرأت للزملاء المذكرة التى أعدها المرشال والتى اطلع عليها رينو ولم يسلمها إليه بعد.

ثم قلت « لا شك أن بيتان رجل خطير إلى حد بعيد فى هذه المرحلة ولقد كان من الانهزاميين على الدوام » أما المسيو رينو فيبدو مصمما على القتال ويؤيد الجنرال ديجول الذى حضر المؤتمر فكرة الاستمرار فى حرب العصابات وقلت : إن الجنرال شاب ممتلىء حيوية وقد خلف فى نفسى أثرا حسنا إلى حد بعيد . ويبدو لى أن رينو سيتجه إليه إذا انهار الخط الحالى ليتولى القيادة وذكرت لهم أن الأميرال درلان قد صمم على ألا يسلم الأسطول الفرنسى إلى العدو . وإذا لزم الأمر فإنه سيبعث به إلى كندا وإن كان يخشى أن يعارضه الساسة فى خطته .

وكان قد اتضح أن فرنسا قاربت النهاية فى مقاومتها المنظمة وأن فصلا آخر من قصة الحرب يقترب من الخاتمة . وقد يستمر الفرنسيون فى الحرب على أية حال . وقد تظهر حكومتان فرنسيتان تقوم إحداها بعقد صلح وتقوم الأخرى باعداد المقاومة المنظمة من المستعمرات الفرنسية لتتولى الحرب فى البحر عن طريق الأسطول الفرنسى وفى فرنسا بطرق العصابات . ولكن من المتعذر علينا أن نتمكن بشىء الآن أن نرسل بعض المعونة إلى فرنسا إلى حد ما . وإن كان لابد لنا أن نركز جهودنا على الدفاع عن جزرنا .

الدفاع الداخلى

وجهاز الهجوم المضاد

سيرى قارىء هذه الصفحات كيف كانت سدل الغيب شديدة تحجب ما وراءها ولا تترك أمام الناظر إلا الحيرة والذهول . والآن وقد انقشعت عنا تلك الغيوم أصبح من السهل علينا أن نرى أين كنا شديدى الفزع والجهل بسير الأمور ومتى كنا غير مكترثين أو حائرين مشدوهين . لقد أخذنا على غرة مرتين فى شهرين متتاليين وفوجئنا مفاجأة تامة وأثبت اكتساح النرويج واختراق الجبهة الفرنسية وما تبع ذلك من أحداث ، القوة الهائلة التى اتسمت بها المبادرة الألمانية . ولكن ماذا أعدوا بعد ذلك من خطط وماذا وضعوا من إجراءات إلى آخر ماهنالك ؟ هل ينزلون إلينا من السماء الزرقاء . وقد حملوا أسلحة جديدة .. ووضعوا خططا دقيقة .. واستخدموا قوة طاغية هائلة ليغزوا جزيرتنا العزلاء إلى حد بعيد ، الفقيرة إلى المعدات فى موضع أو أكثر من المواضع التى تصلح لا نزال القوات ؟ أو هل يذهبون إلى ايرلندا فيغزونها ؟ هذه كلها احتمالات كان من الحماقة أن يبت الانسان فيها برأى معتمد على منطقه وتفكيره ولقد قال الدكتور جونسون[1] « إن الرجل إذا عرف أنه سيشنق بعد أسبوعين . فإنه يركز رأسه على ذلك تماما » ولقد كنت واثقا من النصر دائما ومع ذلك فقد كانت الأوضاع تسيرنى . وإنى لأشكر تلك الأوضاع لأنها كانت تترجم آرائى إلى تنفيذ صحيح .

وقد أدرك زملائى أن من الضرورى الحصول على سلطات استثنائية من البرلمان بقانون أعدوه فى الأيام القلائل الماضية . وسيضمن هذا القانون – بعد إقراره – للحكومة السلطة التامة على حياة وحريات وممتلكات سائر رعايا جلالة الملك فى بريطانيا العظمى . وإذا استخدمنا الصيغة القانونية قلنا إن البرلمان سيضمن للحكومة السلطة

---

(١) من أدباء بريطانيا المعروفين فى القرن السادس عشر .

المطلقة . وكان يخول الحكومة « حق إصدار المراسيم بموجب قانون الدفاع — التى تطلب إلى الناس أن يضعوا أنفسهم وخدماتهم وممتلكاتهم تحت تصرف جلالته . حسب ما يراه ضروريا أونافعا لضمان السلامة العامة ، والدفاع عن المملكة . والمحافظة على الأمن العام واستمرار الحرب التى يشتبك فيها جلالته ، وضمان المؤن والخدمات اللازمة لحياة الشعب » .

وكان من سلطة وزير العمل أن يوجه أى إنسان للقيام بأية خدمة تطلب منه ، وكان النظام الذى يعطيه هذه السلطة يشتمل على بند خاص يتعلق بعدالة الأجور . وتقرر تأليف لجان فى المراكز العامة لتجنيد العمال . وفرض الاشراف على الممتلكات إلى أبعد مدى فى الإمكان . وعلى هذا المنوال تقرر فرض الاشراف على سائر المؤسسات بما فيها المصارف لتكون تحت سيطرة الحكومة وكان من واجب أصحاب الأعمال أن يقدموا دفاتر حساباتهم وأن يدفعوا الضريبة الإضافية التى تبلغ مائة فى المائة . وتقرر إنشاء مجلس للانتاج برئاسة المستر جرينوود وتعيين مدير لدائرة تجنيد العمال .

وفى اليوم الثانى والعشرين من شهر مايو قدم للبرلمان هذا المشروع وقام بتقديمه المستر تشمبرلين والمستر أتلى . وقد قام الأخير باقتراح القراءة الثانية وأقر البرلمان بمجلسيه — العموم واللوردات — بما فيهما من غالبية من المحافظين هذا القانون بالاجماع فى نفس اليوم وصدق عليه التصديق الملكى فى تلك الليلة ليصبح قانونا وكان الشعور السائد فى بريطانيا إذ ذاك ينطبق على قول الشاعر :

« ذلك لأن الرومان كانوا إذا اشتبكت روما فى قتال فى تلك الأيام القديمة المجيدة لا يضنون عليها بمال أو عقار أو ولد أو زوجة ولا عضو ولا حياة » .

كان الوقت بالنسبة لبريطانيا وقت عمل ولا شك . إلى آخر رمق وإلى آخر ذرة أو طاقة . وكان الشعب متحداً اتحاداً لا مثيل له فيما سبق من التاريخ . وكان الرجال والنساء يعملون وراء الآلات والأجهزة فى المصانع حتى يتداعى الواحد أو الواحدة ويسقط على الأرض من شدة الاعياء فيسحب إلى بيته بالرغم منه ليحل محله شخص آخر قد جاء قبل الموعد المقرر له . وكانت الرغبة الملحة على سائر الرجال والكثيرات

من النساء أن يكون لكل إنسان سلاحه . وقد ارتبط أعضاء الوزارة والحكومة بقيود لا نزال نذكرها بسرور وغبطة . وانعدم شعور الفزع عند الشعب وكان ممثلوه فى البرلمان فى هذا الموقف جديرين بثقته ولم نكن قد عانينا ماعانت فرنسا من شدة مالاقته . وليس ثمة ما يؤثر على الانكليزى ويحركه أكثر من خطر الغزو . وهى حقيقة لم يعرفها الشعب البريطانى منذ أكثر من ألف سنة . وقد صمم الشعب على أحد أمرين : النصر أو الموت ، ولم تكن بهم حاجة إلى إثارة مشاعرهم بالخطب الحماسية . ولكنهم كانوا يبتهجون حين يسمعونى أعبر عن مشاعرهم . وأقدم لهم المبررات عما يقومون بعمله أو يحاولونه . وكان كل ما هناك من خلاف هو وجود من يريدون أن يفعلوا أكثر مما تتحمله الطاقة والذين يرون أن الحماس الجنونى يزيد من طاقة العمل ويرفع من نتائجه .

* * *

وكان علينا بعد إرسال الفرقتين الوحيدتين الكاملتى التسلح اللتين نملكهما إلى فرنسا ، أن نبادر باتخاذ سائر الإجراءات التى فى مقدورنا للدفاع عن جزيرتنا ضد الهجوم المباشر . وكان مصير هولندا العاجل ما زال ماثلا فى أذهاننا جميعاً . وكان المستر إيدن قد اقترح على وزارة الحرب تشكيل جيش من الحرس الوطنى وقد وضع هذا الاقتراح موضع التنفيذ وسرعان ماتألفت جماعات من سائر أنحاء البلاد من كل مدينة ومن كل قرية وكلهم من ذوى القدرة والعزيمة الصادقة . وقد حملوا المسدسات وبنادق الصيد والهراوات والرماح وقد انتظمت من هذه الجماعات فى وقت عاجل هيئة كبيرة تضم نحو مليون ونصف مليون من الرجال . وقد أخذوا بالتدريج يحملون الأسلحة الصالحة .

وأخشى ما كنت أخشاه هو أن تستطيع الدبابات الألمانية الوصول إلى الشاطىء . ولما كانت تستحوذ على دائماً فكرة إنزال الدبابات إلى شواطئهم ، فقد كان من الطبيعى أن يدور بخلدى أنهم يفكرون نفس التفكير بالنسبة إلينا . ولم يكن لدينا العدد الكافى من المدافع المضادة للدبابات أو الذخيرة أو حتى مدافع الميدان . ونستطيع أن نتصور الحالة التى كنا فيها من القصة التالية : لقد قمت بزيارة شواطئنا فى خليج القديسة

مرجريت بالقرب من دوفر . وقد أبلغنى البريجادير قائد المنطقة أن كتيبته لا تملك إلا ثلاثة مواقع مضادة للدبابات وعليها أن تحمى أربعة أميال أو خمسة من هذا الشاطئ الذى تهدده أكبر الأخطار . وأبلغنى أنه لا يملك أكثر من ست طلقات لكل مدفع وسألنى متحديا هل من حقه أن يسمح لرجاله باطلاق طلقة واحدة من هذه الذخيرة الثمينة لكى يجربوا مدافعهم . فأجبت بأنه ليس لدينا عتاد للتجربة أو التدريب وأن ما لديكم من العتاد يجب أن لا يستخدم إلا فى اللحظة الأخيرة ومن مسافة قريبة للغاية .

ويتبين مما تقدم أن الوقت لم يكن يسمح بالسير بالطرق المألوفة وقد قررت رغبة منى فى الإسراع فى العمل أن أضع تحت إشراف كوزير للدفاع مؤسسة التجارب التى أقامها الميجور جيفريز فى وايتشيرش وكنت منذ سنة ١٩٣٩ قد ارتبطت بعلاقات ذات نفع مع هذا الضابط المبرز الذى برهن بعقليته العبقرية الخلاقة عن نفعه الكبير . كما سنرى فيما بعد ، طوال أيام الحرب . وكان ليندمان على صلة وثيقة به وبى فى وقت واحد وقد استخدمت عقليهما الجبارين مع سلطتى الشخصية . وكان جيفريز ورجاله يعدون قنبلة يمكن أن تلقى من نافذة على دبابة فتلصق بها فور اطلاقها ولا شك أن تأثير قنبلة متفجرة على لوح من الفولاذ يكون له أثره البالغ . وقد انطبعت صورة فى أذهاننا عن جنود مخلصين ، أو مدنيين يجرون وراء الدبابة ويقذفون القنبلة عليها على الرغم من أن الإنفجار سيكلف الشخص الذى يلقيها حياته . وكان الكثيرون بلا شك على استعداد للقيام بهذا العمل . وفكرت فى أن القنبلة إذا ثبتت على قضيب يمكن إطلاقها بقوة أضعف من البندقية وأخيراً رضيت بالقنبلة اللاصقة باعتبارها سلاحا من أسلحة الطوارىء التى قد نلجأ إليها عند الحاجة . ولم نستعمل هذه القنبلة فى بلادنا على الإطلاق . ولكنها أثبتت نجاحها فى سوريا حيث كانت الأوضاع البدائية ولا تزال مسيطرة .

* * *

ولأول مرة منذ مائة وخمس وعشرين سنة يقف عدو شديد المراس أمام مياه القنال الانكليزى الضيقة وقد أصبح . حتما علينا أن نعيد تنظيم جيشنا النظامى

الذى تألف حديثاً ، وجيشنا الإقليمى الأكثر عدداً والأقل فى تدريبه . ونهيء لأنفسنا جهازاً دفاعيا قويا يقف مستعداً للقاء الغزاة والقضاء عليهم وليس لنا خيار فى ذلك على الاطلاق . ولم يكن أمام الفريقين إلا « الهلاك أو الملاج » وقداستطعنا أن ندخل الحرس الوطنى كذلك فى جهاز الدفاع العام . وعرض الجنرال إيرونسايد القائد العام لقوات الوطن فى اليوم الخامس والعشرين من شهر يونيه خططه على رؤساء أركان حرب القوات المسلحة وقام الخبراء بطبيعة الحال بدراسة هذه الخطط بكل دقة واهتمام . وقمت أنا كذلك بدراستها بعناية بالغة وتمت الموافقة عليها . وكانت هذه الخطة العظيمة التى وضعت للمستقبل تتألف من ثلاثة وجوه . أولها ينطوى على قوة دفاعية من الجنود المقيمين فى الخنادق فى سائر الجهات التى يحتمل أن ينزل فيها الاعداء على طول الشاطئ . ويقاتل هؤلاء الجنود من مواقعهم ومعهم قوات احتياطية متحركة للقيام بهجوم سريع مقابل ، وثانيها إقامة خط من الحواجز المضادة للدبابات يقوم عليه جنود الحرس الوطنى ويمتد على طول الشاطئ الشرقى من أواسط إنكلترا إلى جنوبها ومهمته حراسة لندن والمراكز الصناعية العظيمة بسيارات مدرعة تصل من الطرق الداخلية . أما الثالث فهو القوات الاحتياطية الرئيسية التى تقف وراء ذلك الخط لتقوم بالهجوم المضاد الرئيسى .

وقد أدخلت على هذه الخطة مع مضى الأسابيع والشهور تعديلات وإضافات لا حد لها . لكن الفكرة لم تتبدل فى جوهرها . وأصبح على سائر القوات أن تثبت فى مواقعها إذا هوجمت لا فى الخطوط فحسب ولكن فى سائر المراكز الدفاعية . وتبادر قوات أخرى بالقضاء على المهاجمين قضاء تاما : سواء أكانوا قادمين من البحر أو من الجو . أما الرجال الذين ينقطع اتصالهم بالمساعدة العاجلة ، فلا يشترط فيهم البقاء فى مواقعهم . فقد وضعت الخطط الفعالة لصد العدو من الخلف وقطع مواصلاته وتدمير معداته الحربية تماما كما فعل الروس . وقد حققوا نتائج عظيمة . حين غمرهم تدفق المد الألمانى بعد سنة واحدة .

ولا شك أن الكثيرين قد دهشوا حين رأوا هذا النشاط العجيب فى كل ناحية من النواحى . وكان لابد أن يدركوا ضرورة مد الاسلاك ووضع الألغام على الشواطئ

وإقامة الحواجز ضد الدبابات فى الطرق والمعابر وبناء متاريس الأسمنت المسلح عند تقاطع الطرق والدخول إلى البيوت لوضع أكياس الرمل بالطوابق العليا ، وحفر الخنادق الواسعة ضد الدبابات فى ملاعب الجواف والحقول الخصبة والحدائق . نعم لقد أدركوا ذلك وارتضوه ، رغم ماينالهم من جرائه من أضرار . ولـكنهم كانوا يتساءلون فى بعض الأحيان . إذا كانت هناك خطة موضوعة لهذه الأعمال أم أنها إجراءات فردية يقوم بها أشخاص مندفعون بعامل الحماسة لاستغلال الأوضاع الجديدة التى أتاحها القانون للتدخل فى أملاك المواطنين .

وكانت هناك خطة عامة منظمة تشمل جميع أوجه هذا النشاط فلما تمت هذه الخطة اتخذت القيادة العامة مركزها بلندن . وقد قسمت بريطانيا العظمى وايرلندا إلى سبع قيادات وقسمت كل قيادة إلى مناطق للفيالق وكل منطقة قسمت إلى قيادات للفرق . وكان المطلوب من القيادات والفيالق والفرق أن تبقى جزءا من مواردها ليـكون بمثابة احتياطى متحرك وأن تحتفظ فى مراكزها بأقل ما يمكن من هذه الموارد على أن تـكون كافية للمحافظة على خطوطها الدفاعية . وقد تم بناء مواقع دفاعية فى كل منطقة منفردة من مناطق المؤخرة بطريقة تدريجية . ثم أقيمت وراءها « مناطق الفيالق » ومناطق القيادات .

وقد بلغت الخطوط الدفاعية فى عمقها نحو مائة ميل أو زيادة . وأقيمت خلف هذه جميعها الحواجز المانعة للدبابات وتمر من جنوب انـكلترا متجهة شمالا نحو نوتنجهامشير . وفضلا عن هذا فهناك القوات الاحتياطية النهائية تحت قيادة القائد الأعلى لقوات الوطن . وبهذه الطريقة وضعنا سياستنا المحافظة على أكبر قوات متحركة للاحتياط .

وقد جعلنا كل ميناء من موانينا فى الجنوب والشرق موضع دراسة معينة . ولم يكن من المستطاع الهجوم المباشر على ميناء محصن تحصينا كاملا . وعلى الرغم من ذلك فقد حولنا جميع هذه الموانئ إلى مراكز قوية تستطيع أن تصد عن نفسها أى هجوم من البر أو البحر على حد سواء ، ووضعت الحواجز على ألوف الأميال المربعة من بريطانيا لتمنع هبوط قوات تحملها الطائرات . وقد احتاجت مطاراتنا ومحطات الرادار التى نملـكها

وكذلك مستودعات وقودنا — وكنا نملك منها حتى صيف سنة ١٩٤٠ ثلاثمائة وخمسة وسبعين — إلى دفاع خاص، بواسطة حاميات خاصة وبواسطة طياريها أنفسهم فكان علينا أن نضمن حمايتها فى الليل والنهار من أعمال التدمير والهجوم المفاجىء فى ألوف من المواقع المعرضة للهجوم كالجسور ومحطات توليد الكهرباء والمستودعات والمصانع الحيوية وماشا كلها، وأعدت الخطط لتدمير المنشآت الهامة التى قد يستفيد منها العدو بمجرد وقوعها فى يده كما أعد اللازم لتدمير الطرق الميسرة فى الموانى وتفجير الطرق والمداخل الرئيسية وشل حركة مواصلات السيارات والاتصالات التليفونية والبرقية وتحطيم كل نوع من أنواع الأجهزة والآلات قبل وقوعها فى يد العدو. وعلى الرغم من كل هذه الاحتياطات السديدة التى ساعدت فيها الدوائر المدنية زميلتها العسكرية فإننا لم نفكر على الإطلاق فى سياسة التخريب. فقد كان على أبناء انكلترا أن يدافعوا عن جزيرتهم لا أن يخربوها.

* * *

وكانت هناك ناحية أخرى. فقد كان أول ما عرفته من « معجزة دنكرك » هو وجوب الإفادة من ذلك الانسحاب بالاستعداد لهجوم مضاد. فإذا كان كل أمر مازال مؤرجحا فإن استعادة زمام المبادرة تصبح أمراً حيويا. وكان اليوم الرابع من شهر يونيه بالنسبة لى من الأيام الكثيرة الأعباء. فقد كان على أن أعد الخطاب الطويل الخطير الذى ألقيته فى مجلس العموم والذى تحدثت عنه آنفا.. وبعد أن ألقيت عن كاهلى ذلك العبء أسرعت بإعداد المذكرة التى اعتقدت أن من الواجب أن تكون رائدنا فى سائر أفكارنا وأعمالنا فى هذه اللحظة، وقد وجهت إلى الجنرال إسمان الملاحظات الآتية:

« إننا نهتم بخطر نزول الألمان فى انكلترا على الرغم من سيطرتنا على البحار. وحيازتنا على قوة دفاعية قوية من الطائرات المقاتلة فى الجو. وهذا أمر من الحكمة وسداد الرأى أن نفكر فيه وقد أصبح كل شق صخرى. وكل شاطىء. وكل ميناء. مصدر قلق وتفكير بالنسبة لنا. وفضلا عن ذلك فإن قوات المظلات تستطيع أن تغزو ليفربول أو إيرلندا أو غيرها من الأماكن. وهذه حالة لها قيمتها إذا

كانت ستخلق فى نفوسنا النخوة والنشاط . ولكن إذا كان فى وسع الألمان أن يقوموا بغزونا رغم قوتنا البحرية ، فإن كثيراً من الناس يتساءلون : ولماذا لا نفكر نحن فى غزو أراضيهم ؟ إن من واجبنا ألا نسمح للعقلية الدفاعية الكاملة التى قضت على الفرنسيين بالدمار أن تسيطر على أفكارنا : ومن أهم الأمور عندى أن نرغم الألمان على إبقاء أكبر عدد ممكن من قواتهم للمحافظة على جميع الشواطىء التى احتلوها . ويجب علينا أن نعمل على تنظيم قوات تتولى غزو هذه الشواطىء والإغارة عليها لا سيما ونحن نعرف أن جميع سكانها أصدقاء لنا . ويجب أن تتكون هذه القوات من وحدات كاملة العدة مستقلة فى تموينها وتضم كل منها ألف رجل ليرتفع عددها إلى عشرة آلاف عندما يضم بعضها إلى البعض . وفى مقدورنا أن نحتفظ بميزة المباغتة باخفاء هدف الغارة حتى اللحظة الأخيرة . وقد اتضح لنا مما رأيناه فى دنكرك أنه من المستطاع نقل القوات وتحريكها إلى المواقع المختارة عندما يحتاج الأمر إلى ذلك . ومن أهم الأمور أن نرغم الألمان على أن يكونوا دائمى التفكير فى المكان الذى قد توجه إليهم فيه الضربة التالية . بدلا من أن يرغمونا هم على إحاطة جزيرتنا بالأسوار المنيعة وتغطية سقفها كذلك ، وعلينا أن نبذل ما فى وسعنا لنشعل الروح المعنوية والعقلية فى النفوس . ونلقى عنا ما نعانيه من ترك الأمور لمشيئة العدو وتمكينه من زمام المبادرة مما هو موضع شكوانا الآن » .

وقد نقل إيسمان هذه المذكرة إلى رؤساء أركان الحرب . وقد وافقوا على ما فيها من حيث المبدأ ، وظهرت إرادتهم فى الكثير من القرارات التى اتخذوها ، وقد أدت هذه المذكرة إلى سياسة مقررة مع الأيام . وكان تفكيرى فى هذا الوقت يدور دائما حول حرب الدبابات لا من الناحية الدفاعية فحسب بل من الناحية الهجومية كذلك وقد دفعنى هذا التفكير إلى عمل عدد كبير من السفن التى تصلح لإنزال الدبابات وذلك أمر كان يشغل بالى على الدوام . وله أهميته الكبرى فى المستقبل .

لقد كان لى ولع دائماً بالحرب البرمائية ، وكانت تدور بخاطرى دائماً فكرة إنزال الدبابات إلى البر من سفن تعد لذلك بحيث تظهر على شطآن لا تتوقع نزولها وكنت قبل عشرة أيام من انضمامى إلى وزارة المستر لويد جورج فى السابع عشر من شهر يوليه سنة ١٩١٧ كوزير للتموين قد أعددت بغير استعانة بأحد من الخبراء خطة للاستيلاء على الجزيرتين «بوركوم وسيلت» وقد اشتملت هذه الخطة على الفقرات التالية التى أنشرها الآن للمرة الأولى :

«يجب أن يتم النزول على إحدى الجزيرتين — بوركوم أوسيلت تحت ستار من مدفعية الأسطول مع قنابل الدخان أو الغاز تطلقها سفن لا تؤثر فيها الطوربيدات البحرية . ويجب أن يكون مع كل فرقة تنزل إلى البر نحو مائة من هذه السفن الصغيرة . ويجب كذلك أن نؤمن على الأقل خمسين قطعة لإنزال الدبابات وتحمل كل منها دبابة أو أكثر تكون صالحة لقطع الأسلاك الشائكة بمقدماتها . وبجسر متحرك تستطيع الدبابات أن تنزل إلى البر تحت حجب من قوتها النارية وحدها فتمنع وقف المشاة عن تأدية أعمالهم والهجوم على مضايق القلعة وبطارياتها عن طريق الأسلاك الشائكة . وهذه وسيلة مبتكرة تقضى على نوع من المشاق التى كنا نجدها حيث كان حتما علينا أن ننزل مدافع الميدان لقطع الأسلاك الشائكة .

وقد يكون من الخطر أن يحس العدو المقاصد التى نريدها فيقوى حامياته بإمدادات صالحة لا سيما فى جزيرة بوركوم التى يساوره القلق عليها . لكن هذا النزول يمكن أن يتم تحت درع من الدبابات الخفيفة المنيعة ضد المدافع الرشاشة ، الكثيرة العدد حتى لا تتأثر إلى حد ما بنيران المدفعية الثقيلة وتستطيع الدبابات الوافرة العدد ، لا سيما السريعة الحركة منها والخفيفة ، أن تعمل فى مواقع لم تكن على أهبة لملاقاتها . وأرى أن هذه الأمور لها أهميتها وتستحق الدرس والعناية» .

وكنت قد اقترحت بدلا من هذا المشروع فى هذه المذكرة إيجاد جزيرة صناعية فى المياه الضحلة فى « هورن ريف » فى الشمال فظلت هذه المذكرة راقدة فى محفوظات لجنة الدفاع الامبراطورى أكثر من ربع قرن . ولم أنشرها فى كتابى السابق عن « الأزمة العالمية » لأنها لم تنفذ . ولعل هذا كان من حسن حظنا . فالآراء التى أوضحتها فى هذه المذكرة أصبحت أكثر من حيوية لنا فى هذه الحرب لا سيما أن الألمان كانوا يطلعون على ما أكتبه ويدرسونه بعناية ودقة . وقد ظلت الأغراض الخفية لهذه المذكرة منطبعة بذهنى حتى حلت الأزمة الجديدة . فصارت أساسا للعمل الذى أصبح واضحا فى الأسطول الضخم من وحدات إنزال الدبابات سنة ١٩٤٣ وفى الأحداث التالية جميعها .

وبدأ العمل بنشاط فى إنتاج جميع القطع البحريه التى تتولى إنزال المعدات الحربية الثقيلة وأنشئت فى الاميرالية إدارة خاصة للإشراف على هذه الشئون ولم يحل شهر أكتوبر سنة ١٩٤٠ حتى كانت التجارب تقوم بجد على سفن إنزال الدبابات . ثم أضيفت إليها التحسينات اللازمة . وقد بدأت عملها بالفعل فى الشرق الأوسط فوصلت إلى هنالك فى صيف سنة ١٩٤١ . وقد برهنت هذه القطع البحرية على فوائدها العظمى ، ومن حسن الحظ أننا استطعنا أن نعهد بصناعتها إلى الشركات الإنشائية الهندسية التى لا تعمل فى أحواض السفن لذلك فإن إنتاجها لم يؤثر على ما كانت تقوم به أحواض سفننا من بناء القطع البحرية الكبيرة . وبهذه الطريقة استطعنا أن ننفذ البرنامج الواسع الذى رأيناه .

وكانت هذه القطع صالحة لأعمال الإغارة من بحر المانش أو البحر الأبيض المتوسط . ولكنها لم تكن تصلح للسير فى رحلات طويلة فى المحيطات . ومن ثم كانت حاجتنا إلى قطع كبيرة تستطيع نقل الدبابات و السيارات فى الأسفار البحرية الطويلة وإنزالها إلى الشواطىء ، كالقطع السالفة الذكر وأصدرت تعليماتى بإنشاء هذه السفن وأطلقنا عليها « سفن نقل الدبابات » وقد نقل التصميم إلى الولايات المتحدة فشاركت فى تنفيذه وتحسينه . وأخذ الإنتاج الأمريكى يزداد على نطاق واسع وقد ظهرت هذه الوحدات فى سائر أعمالنا البحرية التى جاءت بعد ذلك وبها حلت

مشكلة إنزال السيارات الثقيلة إلى الشواطىء وقد بنيت أكثر من ألف قطعة من هذه القطع البحرية .

وما كدنا نصل إلى نهاية سنة ١٩٤٠ حتى كانت قد تكونت لدينا فكرة صحيحة عن الحرب البرمائية وأخذ إنتاج هذه القطع ومعداتها يزداد يوما بعد يوم . وقد ألفت الوحدات الخاصة بهذه القطع وأخذ العمل فى إنشاء معداتها وتدريب أفرادها يسير بجد تحت إشراف قيادة العمليات المشتركة . وأنشئت مراكز خاصة للتدريب فى أرض الوطن وكذلك فى الشرق الأوسط وكنا بطبيعة الحال نقدم هذه الأفكار بما لها من أهمية لأصدقائنا الأمريكيين فى صورتها النهائية ، ولما جاء الوقت المناسب كان قد تم الجهاز الذى أتيح له أن يلعب دورا كبيرا فى سائر خططنا الكبرى .

وكانت جهودنا فى هذا المجال سنتى ١٩٤٠ ، ١٩٤١ محدودة بما تفرضه حرب الغواصات من جهود وأغراض . ولم يكن فى مقدورنا أن نستغنى عن أكثر من سبعة آلاف رجل لإنتاج هذه القطع التى تستخدم للانزال حتى نهاية سنة ١٩٤٠ ولم تحل سنة ١٩٤٤ حتى كان أكثر من سبعين ألف رجل فى بريطانيا وحدها يشتغلون فى هذه المهمة بالاضافة إلى عدد أكبر يعمل فى الولايات المتحدة .

أما فيما يتعلق بالأقوال والإشارات التى توحى بأننى كنت أعارض فكرة إنزال واسعة النطاق كتلك التى حدثت فى نورماندى سنة ١٩٤٤ فمن حقى أن أقول : إننى كثيرا ما كنت استثير الهمم . وأدعوا إلى إيجاد هذا الجهاز الضخم والأسطول الذى لايهزم لانزال الدبابات والمدرعات على الشواطىء . وهو جهاز لم يكن فى مقدورنا أن نحقق بغيره شيئا من تلك العمليات الرئيسية التى تمت فى السنوات التالية وهذا مايعترف به الجميع .

مأساة فرنسا

من واجبى أن أبين للأجيال القادمة البحث فيما إذا كنا سنمضى فى الحرب على انفراد لم يوضع قط فى جدول أعمال وزارة الحرب . فقد كان من المسلم به أننا سنمضى فى الحرب ونستمر فيها وقد استولت هذه الفكرة على الجميع من مختلف ممثلى الأحزاب وكنا نرى أن من العبث أن نضيع وقتنا الثمين فى هذه المواضيع الأكاديمية الخيالية . ولقد كنا متحدين جميعاً فى النظر إلى المرحلة الجديدة بعين الثقة والإيمان .

وقد كانت زيارتى الأخيرة إلى فرنسا فى الثالث عشر من شهر يوليه قبل الانقطاع الطويل الذى استمر أربع سنوات إلا يوما واحداً وكانت الحكومة الفرنسية قد جاءت إلى تور ، وتأزمت الأمور بصورة مستمرة واصطحبت معى هاليفاكس والجنرال ايسماى كما تطوع ماكس بيفربروك بالذهاب معى وهو رجل جم النشاط عندما تدلهم الأمور وكانت السماء هذه المرة صافية بينة الصفاء وطرنا وسط سرب من « نافثات اللهب » لنقوم بجولة نحو الجنوب فلما حلقنا فوق تور وجدنا المطار قد تعرض لغارات شديدة فى الليلة السابقة ولكننا تمكنا جميعاً من الهبوط بسلام رغم أن أرض المطار كانت مليئة بالفجوات . وكانت مظاهر التدهور بادية ، ولم نجد فى انتظارنا أحداً بالمطار واستعرنا سيارة قائد المطار واتجهنا إلى المدينة قاصدين دار المحافظة التى قيل إن الحكومة الفرنسية اتخذتها مقرا لها ولم نجد بها أحداً من ذوى الشأن ولكن قيل لنا إن رينو قادم من الريف نحو المدينة .

ولما كانت الساعة قد بلغت الثانية فقد صممت على تناول الغداء وبعد أن تبادلنا الحديث بعض الوقت ، طفنا بالسيارات فى شوارع المدينة المزدحمة بسيارات اللاجئين وكان أكثرها محملا بالأمتعة على ظهورها . وعثرنا على أحد المشارب وكان مغلقا . وبعد لأى عثرنا على وجبة من الطعام . وقد زارنا المسيو بودوان ونحن نتناول الغداء وكان قد اتسع نفوذه فى الأيام الأخيرة .

وأخذ يتحدث إلينا بطريقته الحريرية الناعمة عن عجز القوة الفرنسية عن

الاستمرار فى المقاومة وأن فرنسا تستطيع أن تواصل الحرب إذا أعلنت الولايات المتحدة الحرب ضد ألمانيا . وسألنى رأيى فى هذا الموضوع . وا كتفيت بأن أبديت أملى فى دخول أمريكا وعزمنا الأكيد على الاستمرار . وقد علمت فيما بعد أنه أشاع أننى وافقت على استسلام فرنسا إذا لم تدخل الولايات المتحده الحرب .

ثم عدنا إلى المحافظة فوجدنا المسيو مندل وزير الداخلية ينتظرنا ، وقد رأيت سكرتير كليمنصو الأمين السابق الذى يحمل رسالة حياته، فى أحسن حال من الناحية المعنوية ، وكنت أرى الحيوية والتحدى ممثلين فيه ورأيت أمامه دجاجة شهية لم يمسها وكان الإشراق باديا على محياه وقد حمل فى كل يد من يديه آلة تليفونية يصدر تعليماته عن طريقها وكان تفكيره منحصرا فى الاستمرار فى القتال حتى النهاية فى فرنسا إلى أن يتسع المجال لنقل أكبر ما يمكن من القوات إلى أفريقيا . وكانت هذه أول مرة أرى فيها هذا الفرنسى الباسل ، وقد أصابت الجمهورية الفرنسية الرابعة ، بعد عودتها، حيث أعدمت الماجور الذى قتله ولا شك أن ذكراه ستبقى موضع الإجلال عند مواطنيه وحلفائهم ، وبعد فترة وجيزة وصل رينو وكان يبدو عليه الوجوم ، فقد نقل إليه الجنرال فيجان أن الجيوش الفرنسية قد حل بها الضعف وأن الخطوط الدفاعية اخترقت فى عدة مواضع وأن اللاجئين يتدفقون على الطرقات فى البلاد وأن بعض وحدات الجيش أصبحت فى حالة من الفوضى . وقد رأى القائد الأعلى أن طلب الهدنة أصبح أمرا محتوما قبل أن يفقد ما تبقى من قوى قد يحتاج إليها أشد الحاجة لحفظ النظام ، حتى يعقد الصلح . هذه هى النصيحة العسكرية التى تلقاها رينو وقد أشار إلى أنه سيبعث برسالة أخيرة إلى الرئيس روزفلت يبلغه فيها بدنو ساعة النهاية وأن قضية الحلفاء أصبح مصيرها فى يد أمريكا . ولا حل غير ذلك إلا الهدنة والصلح .

ومضى المسيو رينو يقول إن مجلس الوزراء فى جلسته التى عقدها فى اليوم السابق قد كلفه بسؤال بريطانيا عن موقفها — إذا وقع ما لابد من وقوعه — وهو يدرك تماما التعهد المقدس بألا يعقد أحد الحليفين صلحا مع العدو دون الآخر . وكان الجنرال فيجان وغيره قد أعلنوا أن فرنسا قد ضحت بكل شىء فى سبيل القضية المشتركة .

ولم يبق لديها شيء تضحي به بعد . ولكنها نجحت في إنهاك العدو إلى حد بعيد . وإذا لم توافق بريطانيا على أن فرنسا أصبحت في الواقع عاجزة عن الاستمرار فستكون صدمة كبرى لفرنسا ، فهل ترى بريطانيا أن فرنسا يجب عليها أن تستمر فتصل بشعبها إلى حالة لا مفر منها من الفساد والانهيار على يدى عدو لا يرحم ؟ عدو خبير بإفناء الشعوب وإذلالها ؟ هذا هو السؤال الذى يرى من واجبه أن يطرحه : هل لبريطانيا أن تدرك الحقائق المرة التى تعانيها فرنسا ؟

وقد رأيت أن الرد على هذا السؤال له خطورته . بحيث لا بد من الاختلاء بزملائى واستشارتهم قبل أن أرد عليه ومن ثم مضيت مع اللورد هاليفاكس واللورد بيفربروك وبقية أعضاء الفريق إلى حديقة مهملة ولكنها مشمسة وتحدثنا معاً فى هذا الموضوع أكثر من نصف ساعة . فلما عدنا أخذت أشرح موقفنا فنحن لا نستطيع أن نوافق على صلح منفرد مهما تكن الصورة التى يعقد عليها ، فغرضنا من الحرب هو أن نهزم هتلر هزيمة تامة ونحن نشعر بأننا جديرون بذلك . ولسنا فى وضع نستطيع معه أن نحرر فرنسا من التزاماتها ومهما يكن من أمر فلن نوجه إلى فرنسا أى لوم أو تحذير . وإن كان هذا الموقف يختلف تماما عن الموافقة على إخلالها من عهودها . وقد حثثت فرنسا على توجيه نداء جديد أخير إلى روزفلت . وأكدت أننا سنؤيده بنداء آخر مماثل له من لندن ، ووافق رينو على توجيه هذا النداء ووعدنا بالثبات حتى تتبين النتيجة .

وقد انتقلنا بعد انتهاء المحادثات مع المسيو رينو إلى حجرة مجاورة حيث وجدنا المسيو هريو رئيس مجلس النواب ، والمسيو جانيني رئيس مجلس الشيوخ . وتحدث هذان الوطنيان المخلصان عن وجوب الاستمرار فى القتال حتى الموت . وعندما مررنا بالبهو المكتظ بالناس متجهين إلى الفناء الخارجى . رأيت الجنرال ديجول واقفا وقد علا وجهه الجمود وحييته وقلت له فى صوت خفيض لم يسمعه أحد غيره « إنك رجل الأقدار » ولكن ظل وجهه جامدا ، وقد رأيت فى الفناء أكثر من مائة شخص من كبار الفرنسيين البارزين فى حالة من البؤس الشديد . وجاءونى بابن كليمنصو فوضعت يدى فى يده وحييته ، وكانت نافثات اللهب قد حلقت فى السماء استعدادا لحراسة

طائراتنا . وركبت الطائرة ورحت فى نوم عميق طوال رحلتنا السريعة التى مرت دون أى حادث فى طريق العودة إلى الوطن .

***

وفى الساعة العاشرة والربع من المساء ، نقلت تقريرى الجديد عن رحلتى إلى مجلس الوزراء .

ووصل السفير الأمريكى كنيدى . ونحن فى الجلسة ومعه رد الرئيس روزفلت على نداء سابق كان رينو قد وجهه إليه فى اليوم العاشر من شهر يونية وجاء فى الرد « لقد كان لرسالتك تأثير عميق على نفسى وكنت قد أوضحت لك وللمستر تشرشل أن هذه الحكومة تبذل كل ما فى وسعها لتمد الحلفاء بما عساها تكون فى حاجة ماسة ، إليه وقد ضاعفنا جهودنا فى هذا السبيل ونحن إنما نقوم بهذا إيمانا منا بالمثل العليا التى يحارب الحلفاء من أجلها .

« وقد تأثر الشعب الأمريكى تأثرا بليغاً بالمقاومة العظيمة التى تقوم بها جيوش بريطانيا وفرنسا » .

« أما أنا فقد تأثرت بصفة خاصة من إعلانك أن فرنسا ستستمر فى القتال للدفاع عن الديمقراطية حتى ولو أدى ذلك إلى الانسحاب البطىء إلى شمال أفريقيا والأطلنطى ومن المهم أن نذكر أن الأسطولين البريطانى والفرنسى سيواصلان سيطرتهما على الأطلنطى وغيره من المحيطات . وأن من الضرورى الاستمرار فى إرسال المعدات الحيوية من الخارج إلى سائر الجيوش المحاربة » .

« وقد شجعنى ما ذكره تشرشل رئيس الوزراء منذ أيام عن مواصلة مقاومة الامبراطورية البريطانية ولا شك أن هذا التصميم ينطبق على الامبراطورية الفرنسية العظيمة . ولاشك أن القوة البحرية لاتزال ، كما يعرف دارلان ، على وعى لدروس التاريخ وعبره فى الشئون العالمية » .

وقد أيقنا أن الرئيس قد سار إلى حد أبعد مما كنا ننتظر منه فقد أتاح لرينو أن ينشر رسالته المؤرخة فى العاشر من شهر يونية بكل ما فيها من معان . وها هو ذا يرد عليها بهذا الرد القوى الحاسم . وإذا كانت فرنسا ستقرر أن تتحمل آلام الحرب

إلى مدى أطول ، فإن الولايات المتحدة ستلتزم إلى حد بعيد بدخولها . فقد اشتملت الرسالة على معنيين يصلان إلى حد الاشتراك ، الأول : يتعلق بالوعد الذى قطعه الرئيس بأن يقوم بكل أنواع المساعدات المادية ، والثانى : دعوة إلى الاستمرار فى الحرب حتى ولو أدى الأمر إلى الانسحاب إلى شمال أفريقيا . وأسرعت فأبرقت بشكرنا إلى الرئيس وقد بذلت غاية الجهد فى الثناء على رسالته إلى رينو بأقصى ما يمكننى من التعابير .

وفى اليوم التالى وصلت برقية من الرئيس تعلن عدم تمكنه من الموافقة على إعلان ما تشتمل عليه رسالته إلى رينو . وذكر السفير كنيدى أن الرئيس كان يود نشر رسالته ولكن وزارة الخارجية الأمريكية عارضت فى ذلك إذ رأت أن فى نشرها أشد الأخطار . وعاد الرئيس يثنى على الحكومتين البريطانية والفرنسية ويطرى بسالة جنودهما ويؤكد عزمه على إرسال سائر المدات والمؤن التى فى مقدوره أن يرسلها . ولكنه أعلن عن رغبته فى أن يوضح أن رسالته لا تعنى بأى حال التعهد بإشراك الولايات المتحدة عسكريا فى الحرب . فمثل هذا التعهد بحكم دستورها لا يمكن أن يصدر إلا من سلطة واحدة وهى سلطة الكونجرس . وكان الرئيس يفكر بصفة خاصة فى مصير الأسطول الفرنسى . وقد وافق الكونجرس بناء على رغبته على تخصيص مبلغ خمسين مليون دولار لإمداد اللاجئين الفرنسيين بالغذاء والكساء .

وكانت هذه البرقية ذات أثر مثبط ومخيب للآمال ، وقد أدركنا فى مجلس الوزراء البريطانى ما يتعرض له الرئيس من تجاوز سلطاته الدستورية . وما قد يؤدى إليه هذا التجاوز من هزيمة له فى الانتخابات القريبة التى لها أثرها فى مصيرنا . وكنت أنا واثقا بأن الرئيس مستعد للتضحية بحياته لا بمنصبه فحسب للدفاع عن قضية الحرية المعرضة للأخطار البالغة . ولكن ما الفائدة التى يمكن أن تعود من مثل هذه التضحية ؟ وأستطيع أن أحس بالآلام التى يحتملها عبر الأطلنطى . وإذا كانت المتاعب فى البيت الأبيض تختلف عما نعانيه فى بوردو أو لندن فمستوى الإجهاد الشخصى لا يقل هنالك عنه هنا أو فى بوردو .

وقد حاولت فى ردى أن أمد المستر روزفلت بالحجج التى يستطيع أن يستند إليها فى الرد على الآخرين فيما يتعلق بالأخطار التى تهدد الولايات المتحدة إذا سقطت أوروبا

وفشلت بريطانيا ، فالمسألة ليست مسألة عواطف بقدرما هى مسألة حياة أوموت، وبعث أقول « إن مصير الأسطول البريطانى سيكون كما ذكرت من قبل أمرا حاسما بالنسبة إلى مستقبل الولايات المتحدة إذ أن انضمام هذا الأسطول إلى أساطيل اليابان وفرنسا وإيطاليا وإلى موارد الصناعة الألمانية الضخمة يجعل لهتلر السيطرة البحرية الكبرى . وقد يلجأ إلى الاعتدال فى استخدامه ، ولكنه قد لا يفعل إلا أن هذا الانقلاب فى القوة البحرية قد يحدث قبل أن تستعد الولايات المتحدة لمواجهته . وإذا ما انهارت بلادنا فإن فى مقدور ألمانيا أن تخلق ولايات متحدة أوروبية تحت زعامتها أكثر عددا وأشد قوة وأحسن تسلحا من الولايات المتحده القائمة فى العالم الجديد » .

***

وفى أثناء ذلك كان الوضع قد ساء فى الجبهة الفرنسية فقد ترتب على العمليات الألمانية فى الشمال الغربى من باريس ، تلك العمليات التى ضاعت فيها فرقتنا الحادية والخمسون ، وصول العدو إلى مصب نهر السين واللوار ، وكان الجيشان الفرنسيان المحطمان السابع والعاشر ، يحاولان إقامة خط دفاعى سريع على الضفاف الجنوبية من النهرين . وقد فصل هذان الجيشان بعضهما عن بعض . ورأت القيادة العامة أن تحاول سد الفجوة بينهما فأصدرت أمرها إلى حامية العاصمة التى تدعى « جيش باريس » بأن تخرج من العاصمة وتقيم حلقة الاتصال بين الجيشين .

وكانت الجيوش — العاشر، والرابع، والثانى — فى موقف أحسن صلاحية على ضفاف نهر الراين . فقد انفسح لها المجال ثلاثة أسابيع لتوطيد مراكزها والاستفادة مما جاءها من إمدادات وقد ظلت هذه الجيوش بعيداً عن الاشتباك طوال أزمة دنكرك والزحف إلى روان ولكن قوتها كانت أقل من أن تقوم بحماية جبهة طولها مائة ميل وكان العدو قد استغل الفترة الماضية ليحشد ضدها عددا كبيرا من الفرق ليوجه الضربة القاضية . وفى التاسع من شهر يونية كان قد قضى الأمر على الرغم من المقاومة الشديدة ، فقد كان الفرنسيون يقاتلون بعناد وإصرار كبيرين وتمكن العدو من إقامة رءوس جسور إلى جنوب النهر بين سواسون ورثيل وانفسحت سريعا حتى وصلت إلى نهر اللوار .

ونقلت الفرق المدرعة الألمانية التى لعبت دوراً حاسماً فى الزحف إلى الساحل إلى ميدان المعركة الجديدة . واستطاعت ثمان من هذه الفرق فى اندفاعين عظيمين أن

تحيل الانكسار الفرنسى إلى هزيمة ولم تستطع الجيوش الفرنسية التى حل بها الذعر وسادها الاضطراب أن تثبت أمام هذا الحشد القوى من الأفواج المتفوقة والمعدات والتخطيط الحربى . ولم تمض أربعة أيام حتى كان العدو قد وصل فى السادس عشر من شهر يونيه إلى أورليان ونهر اللوار واندفع الاكتساح الثانى إلى الشرق نحو ديجون وبيزانسون تجاه الحدود السويسرية .

وكانت الفرقتان الباقيتان تقريباً من الجيش العاشر غرب باريس تتقهقران إلى جنوب غربى نهر السين نحو النيسكون وفى الرابع عشر من شهر يونيه سقطت العاصمة بعد أن تمزقت القوات المدافعة عنها وتتألف من الجيش السابع وجيش باريس وقامت فجوة كبيرة تفصل بين القوات الفرنسية والبريطانية القليلة فى الغرب وبين ما تبقى من الجيش الفرنسى المعظم .

أما خط ماجينو حصن فرنسا ودرعها فماذا حل به ؟

إن الألمان لم يكونوا قد شنوا هجوماً مباشراً عليه حتى الرابع عشر من شهر يونيه . ولكن بعض الوحدات الفرنسية العاملة كانت قد أخذت تنضم إلى جيوش الوسط فى انسحاب عاجل ، وقد خلفت وراءها جنود الحاميات . وكان الوقت قد فات . ففى ذلك اليوم اخترق الألمان الخط عند ساربروكن وعبر نهر الراين عند كولمار . وأدركوا القوات المتراجعة وأرغموها على القتال بعد أن فقدوا سبيلهم نحو النجاة . ولم يمض يومان حتى كان الاندفاع الألمانى السابق نحو بيزانسون قد قطع عليها طريق الرجعة .

وهكذا تم تطويق أكثر من ربعمائة ألف رجل ولم يعد لهم أمل فى النجاة . وقد حاولت بعض الحاميات المطوقة أن تصمد وتستميت وقد رفضت الاستسلام حتى بعد توقيع الهدنة حيث وافاهم الضباط الفرنسيون ومعهم الأمر بوقف القتال وأذعنت آخر الحصون للأمر فى الثلاثين من شهر يونية وقد احتج قائدها بأن خطوطه الدفاعية مازالت سليمة فى سائر المواقع .

وهكذا كانت المعركة الواسعة غير المنظمة قد آذنت بالنهاية فى سائر أنحاء الجبهة

الفرنسية . وليس لى إلا أن أذكر الدور الضئيل الذى استطاع البريطانيون أن يقوموا بتمثيله .

***

لقد أبدى الجنرال بروك مهارة عظيمة فى تراجعه إلى دنكرك . وعلى الأخص فى المعركة التى نشأت عن استسلام بلجيكا . لذلك رأينا اختياره لقيادة القوات البريطانية التى بقيت فى فرنسا وسائر الإمدادات الأخرى إلى أن نرى قواتنا قد وصلت هنالك إلى الحد الذى يدعو إلى إعادة اللورد جورت كقائد عام للجيش ، وكان بروك قد وصل إلى فرنسا وقابل الجنرالين فيجان وجورج فى الرابع عشر من شهر يونية . وصرح لى فيجان بأن القوات الفرنسية لم تعد تستطيع المقاومة المنظمة وقد انقسم الجيش الفرنسى إلى أربع مجموعات ويقف الجيش العاشر إلى طرفها الغربى . وذكر فيجان كذلك أن الحكومتين الحليفتين اتفقتا على إقامة رأس جسر فى شبه جزيرة بريتانى يقوم بحمايته الفرنسيون والبريطانيون معا على خط يمتد إلى الشمال والجنوب من رين . وأمره بمد قواته على خط دفاعى يمر بهذه المدينة واعترض بروك بأن هذا الخط يبلغ طوله مائة وخمسين كيلو مترا ويحتاج إلى خمس عشرة فرقة على الأقل ، فرد عليه فيجان بأن هذه التعليمات أمر يجب أن يذعن له .

والحق أننى اتفقت مع رينو فى الحادى عشر من شهر يونيه فى اجتماع « بريار » على إقامة خط كهذا فى مؤخرة شبه جزيرة بريتانى ، ولكن كل شىء قد تداعى وانهار . ولم تصل هذه الخطة على الرغم من صلاحيتها إلى حد العمل . فالفكرة صحيحة ولكن ليس لها سند من الواقع . ومتى تحطمت الجيوش الفرنسية الرئيسية ، فإن هذا الخط رغم ماله من قيمة لا يمكن استبقاؤه أمام هجوم ألمانى مركز . ولكن استمرار المقاومة هنا بضعة أسابيع سيكون من شأنه المحافظة على الاتصال ببريطانيا ويتيح لفرنسا أن تقوم بانسحاب واسع النطاق إلى أفريقيا من البقية الباقية التى تمزقت شر ممزق ، وإذا كان لمعركة فرنسا أن تستمر فإن ذلك لن يكون إلا فى أماكن كشبه جزيرة بريست أو مناطق الفوج الجبلية . أما الحل الآخر لفرنسا فهو

الاستسلام . فليس لإنسان إذن أن يستهين بفكرة رأس جسر فى بريتانى . وقد كلف هذا الجسر الحلفاء بقيادة إيزنهاور ثمنا غالياً فيما بعد .

وقد قام الجنرال بروك بعد محادثاته مع القادة الفرنسيين ونظره إلى الأوضاع التى كانت تسير من سيئ إلى أسوأ كل يوم بإرسال تقرير تليفونى إلى وزارة الحربية وإلى المستر إيدن شخصيا أعلن فيه أن الأوضاع تدعو إلى اليأس التام .

ونصح بوقف إرسال النجدات البريطانية ، وإجلاء كل ما تبقى من الحملة البريطانية فى فرنسا وعدده مائة وخمسون ألفا إذ ذاك ، واتصل بى ليلة الرابع عشر من شهر يونيه ، رغم ما يعرفه عنى من عناد ، على خط تليفونى كان لحسن الحظ مفتوحا تلك الليلة فأبدى تصميمه على رأيه وكان الحديث واضحاً وقد اقتنعت بوجهة نظره بعد عشر دقائق وبأن علينا أن نجلو . فأصدرت أمرى عاجلا وأبحت له التخلص من الأوامر الفرنسية. وبدأ شحن المقادير الكبيرة من المعدات والمستودعات والعتاد ، والعدد الكبير من الرجال ، وقد استطاعت الفرقة الكندية التى كانت قد نزلت هناك أن تعود إلى بواخرها وتراجعت الفرقة الثانية والخمسون السهلية إلى بريست ولم يكن معظم رجالها قد اشتركوا فى المعركة ،وفى اليوم الخامس عشر من شهر يونية تحررت البقية الباقية من قواتنا من أوامر الجيش الفرنسى العاشر وفى اليوم التالى اتجهت نحو شربورج . وفى السابع عشر من شهر يونيه أعلن أن حكومة بيتان طلبت الهدنة وصدرت الأوامر إلى القوات الفرنسية بوقف القتال ولم تبلغ قواتنا . وأصدرنا أوامرنا إلى الجنرال بروك بالعودة ومعه أكبر عدد يمكنه من الرجال والعتاد .

ومن ثم عدنا إلى عملية دنكرك ولكن على نطاق واسع . وقد استخدمنا لهذه العملية بواخر أكبر وأضخم وقد استطاع عشرون ألف جندى بولندى أن يصلوا إلى البحر ، وكانوا قد أبوا الاستسلام فنقلتهم بواخرنا إلى بريطانيا ، وكان الألمان يطاردون قواتنا فى سائر الأنحاء وفى صباح اليوم الثامن عشر من شهر يونية اشتبكوا مع مؤخرتنا فى شبه جزيرة شربورج على بعد عشرة أميال من الميناء . وفى الساعة الرابعة بعد الظهر غادرت الباخرة الأخيرة الميناء ، فى حين وصل العدو بقيادة

الجنرال رومل وفرقته المدرعة السابعة إلى مسافة ثلاثة أميال من الميناء . ولم يقع في يد العدو من رجالنا إلا عدد قليل . واستطعنا أن نجلي ١٣٦ ألف جندي بريطاني وعشرين ألف بولندي مع ثلاثمائة وعشرة مدافع ، من سائر الموانئ الفرنسية .

وكانت الغارات الجوية التي شنها الألمان على سفن النقل عنيفة وقد وقع في سان نازير في السابع عشر من شهر يونية حادث مفزع . فتعرضت باخرة الركاب « لانكاستريا » من حمولة عشرين ألف طن وعلى ظهرها خمسة آلاف جندي لغارة شديدة بعد خمس دقائق من إبحارها فقتل من جراء هذه الغارة أكثر من ثلاثة آلاف جندي . وأنقذ الباقون من الغرق على الرغم من الغارات الجوية العنيفة بفضل القطع الصغيرة ، فلما نقلت إلى هذه الأنباء وأنا في حجرة مجلس الوزراء أمرت بعدم نشرها وقلت « إن لدى الصحف ما يكفيها من أنباء السكوارث اليوم » وكنت أنوي نشر الخبر بعد بضعة أيام ولكن أنساني ذلك توالي الحوادث السود ، وقد انقضى وقت طويل قبل نشر خبر هذه الكارثة .

* * *

ولنترك الآن ميدان الكوارث العسكرية ونتناول ما حل بالوزارة الفرنسية وما يتصل بها من خلل وفوضى .

قام بزيارتي بعد ظهر اليوم السادس عشر من شهر يونية المسيو مونيه والجنرال ديجول . وكان الجنرال باعتباره وكيلا لوزارة الدفاع أصدر أوامره إلى الباخرة الفرنسية « باستور » التي كانت تحمل أسلحة أمريكية إلى بوردو بأن تتجه إلى إحدى الموانئ البريطانية . وكان مونيه يضع خطة لنقل سائر العقود التي وقعتها فرنسا للحصول على عتاد من أمريكا إلى بريطانيا . إذا وقعت فرنسا صلحاً منفرداً مع ألمانيا . . . وكان يتوقع ذلك ويريد أن ينقذ كل ما يمكن من عتاد هذا العالم . وكان لموقفه هذا أثر كبير الفائدة وانتقل إلى الحديث في موضوع إرسال ما بقي من أسراب طائراتنا المقاتلة للاشتراك في المعركة الأخيرة في فرنسا . وكانت هذه المعركة قد انتهت فعلا . فقلت له ليس من الممكن تنفيذ ذلك .

ونحن في هذه المرحلة نسمع الحجج المعتادة « كالمعركة الفاصلة » و « الآن أولا » و « إذا سقطت فرنسا سقط الجميع معها » إلى ما هنالك من التعبيرات التي

كثر ترديدها . ولكن لم يكن فى مقدورى أن أصنع شيئاً لتلبية رغباته فى هذا المجال .
وسرعان ما غادر زائراى الفرنسيان متقدمهما واتجها إلى الباب وبونيه فى المقدمة
فلما وصلا إلى الباب التفت ديجول ولم يكن قد نطق بكلمة واحدة . وعاد متجهاً
نحوى ثم قال باللغة الإنكليزية « إننى أرى أنك على حق » وقد بدا لى أن هذا الرجل
فى مظهره الساكن الوقور يكن فى أطوائه قدرة بالغة على احتمال الآلام . وما زلت
أحفظ فى نفسى هذا الأثر بالنسبة لهذا الرجل المتشق القامة والشديد البرود
وكنت أقول « هذا هو شرطى فرنسا » وقد عاد بعد ظهر ذلك اليوم إلى بوردو
فى طائرة وضعتها تحت تصرفه . ولكنه لم يبق فيها طويلا .

وظل اجتماع وزارة الحرب ذلك المساء حتى الساعة السادسة مساء وكان جميع
الوزراء فى حالة من العواطف الثائرة التى اهتاجها سقوط فرنسا . وكان التفكير
فى حالتنا وما تقتضيه من مواجهة الموقف وحدنا أمراً يحتل المرتبة الثانية . فهنالك
قبل كل شيء أهمية ما ينتظر للأسطول الفرنسى . وكنا قد أعددنا منذ بضعة أيام
مشروعاً لاتحاد فرنسى بريطانى ذى جنسية مشتركة وأجهزة مشتركة للدفاع وسياسة
خارجية واقتصادية ومالية واحدة وغير ذلك . وكان مقصدنا — فضلا عما لهذا المشروع
من فوائد عامة — أن نعطى فرصة للمسيو رينو لاقناع الغالبية من أعضاء وزارته
بحقيقة واضحة الانتقال إلى أفريقيا لمواصلة الحرب منها وقد تذرعت بهذه الوثيقة
واصطحبت رئيسى حزبى العمال والأحرار والرؤساء الثلاثة لأركان الحرب وعدداً
كبيراً من الضباط وكبار الموظفين وبدأت رحلة أخرى إلى فرنسا . وكان فى انتظارنا
قطار خاص فى محطة واترلو وسنصل إلى سوثهامبتون فى ساعتين ثم نبحر فى الليل
بسرعة ثلاثين عقدة فى الساعة فى طراد يصل إلى المكان الذى نلتقى فيه ظهر اليوم
السابع عشر من شهر يونيه . واتخذنا أماكننا فى القطار وجاءت زوجتى لتودعنى
فى المحطة . وقد حدث تأخر غريب فى بدء مسير القطار . نتيجة خلل طارىء .
ووصل سكرتيرى فجأة من داوننج ستريت وأنفاسه تكاد تنقطع وقد حمل إلى الرسالة
التالية من السير رونالد كامبل سفيرنا فى بوردو .

« أخذت الأزمة الوزارية فى الظهور وأرجو الحصول على معلومات قبل منتصف الليل . وقد أصبح الاجتماع المقرر غدا أمراً مستحيلا »

وعدت أدراجى إلى داوننج ستريت بقلب مثقل بالهموم كان الفصل الأخير فى حياة وزارة رينو كما يلى : لقد انهارت الآمال التى بناها رينو على إعلان الاتحاد بين البلدين بصفة عاجلة . ولم يقابل قط عرض سخى بمثل ما قوبل به هذا العرض من جفوة وعداء ، فقد قرأ رئيس الوزراء الفرنسى نص الوثيقة على زملائه الوزراء مرتين وأعلن تأييدها المطلق لها وأنه أعد ترتيبه معى للاجتماع فى اليوم التالى لبحث التفاصيل . ولـكن الوزراء ومعظمهم من المشاهير وبعضهم من خاملى الذكر ، أعمتهم جميعاً الانقسامات . وأوجمتهم الهزائم ولم يكن أكثرهم قد تهيأ لقبول مثل هذه النظريات البعيدة المدى . فـكان الشعور السائد فى مجلس الوزراء رفض هذه الخطة . وكانت الدهشة والشـكوك مستولية على الغالبية الـكبرى وكان المجلس منعقداً فى انتظار رد بريطانيا على الطلب الذى أرسلته فرنسا بالإجماع لتحريرها من التزاماتها حتى تستطيع سؤال الألمان عن الشروط التى يطلبونها للهدنه . ومن المحتمل أننا إذا كنا قد أرسلنا ردنا الرسمى أن تتقبل غالبية الوزراء شرطنا الأول فيه وهو إرسال الاسطول إلى بريطانيا وتعرض هذه الغالبية إقتراحاً مقبولا إلى حدما لتحرير فرنسا من إلتزاماتها ونسمح لها بمفاوضات العدو مع إحتفاظها بحق الانسحاب إلى أفريقيا اذا كانت الشروط الألمانية قاسية لا يمكن قبولها أما الآن فقد سادت الإجراءات المعروفة فى الاجتماعات العامة « نقطة قانونية مماكسة ثم لا قانون ولا نظام بل فوضى » .

ولم يستطع بول رينو التغلب على الأثر السيئ الذى خلفه الاقتراح الداعى لإقامة اتحاد فرنسى انـكليزى . وقد رفض دعاة الهزيمة الذين يتزعمهم المريشال بيتان حتى مجرد دراسة المشروع . وقذف بعضهم بعضا بالاتهامات المنيفة فقيل إنها « خطة آخر لحظة » ، وقيل إن المشروع « مباغته » وقيل إن « المشروع يضع فرنسا تحت السيطرة والوصاية ، أو يرمى إلى اغتصاب إمبراطوريتها » وقال بعضهم إنه يهبط بفرنسا إلى مرتبة الدومنيون . وغضب بعضهم لافتقاره إلى عنصر المساواة . إذ أن المشروع كان فى نظرهم سيخلع على الفرنسيين جنسية الامبراطورية البريطانية لا جنسية

بريطانيا العظمى بينما يصبح الفرنسيون بمقتضاه حاملين الجنسية الفرنسية وكل هذه المزاعم باطلة ينكرها نص المشروع .

وقد ظهرت بعد هذه الأقوال حجج أخرى فقد استطاع « فيجان اقناع بيتان بأن بريطانيا قد انتهى أمرها كذلك . وأنها خسرت الحرب . وكانت الدوائر العسكرية العليا قد ذكرت « أن بريطانيا ستقصف رقبتها فى مدى ثلاثة أسابيع كما تقصف رقبة الدجاجة » ومن ثم وصف بيتان الاتحاد مع بريطانيا بأنه « اتحاد مع جثة هامدة » وقال إيبار نيجارى الذى كان من المشهورين فى الحرب الماضية « خير لنا أن نكون إمارة نازية . لأن هذا شىء واضح معروف على الأقل » وقال الشيخ ريبل وهو صديق شخصى لفيجان « إن هذا المشروع معناه تدمير فرنسا وخضوعها خضوعاً تاماً لبريطانيا » وعبثاً حاول رينو أن يقنعهم بقوله « إننى أفضل أن أتعاون مع حلفائى ولا أتعاون مع أعدائى » وقد ذهب هباء قول مندل « أليس لنا أن نكون ضمن الدومنيون البريطانى ولا نكون مقاطعة ألمانية » ؟

ونحن لا نشك فى أنه لم يقترع فى مجلس الوزراء الفرنسى على بيان رينو بشأن اقتراحنا . ومن ثم فإن هذا صدمة شخصية للرئيس فى نضاله . وقد حدت من نفوذه وسلطانه على مجلس الوزراء . وانتقلت المباحثات بعد ذلك إلى موضوع الهدنة . وطلب الشروط التى يريدها الألمان . وكان المسيو شوتان جامداً وثابتاً ، وكنا قد بعثنا إلى مجلس الوزراء ببرقيتين بشأن الأسطول ولكنهما لم تعرضا عليه . ولم تقم وزارة رينو بدراسة الذى تقدمنا به بضرورة إبحار الأسطول إلى الموانئ البريطانية كشرط مبدئى قبل التفاوض مع الألمان فقد كانت الوزارة فى موقف انهيار تام . وما كادت الساعة تصل إلى الثامنة من المساء حتى كان رينو قد بلغ منه الأعياء مبلغه بسبب الجهد العقلى والجسمانى الذى تحمله طوال هذه المدة فأرسل استقالته إلى رئيس الجمهورية وأوصى باستدعاء بيتان ، ولا شك أن هذا العمل يجب أن يوصف بالاندفاع والتعجل وكان لا يزال يأمل أن يلتقى بى فى اليوم التالى وقد تحدث إلى سبيرز فى ذلك فقال له الجنرال أن حكومة جديدة ستكون غداً ولن تستطيع أن تقابل أحداً .

وقد ألف المريشال بيتان حكومة فرنسية جديدة ترمى إلى عقد هدنة عاجلة مع

ألمانيا . وكانت جماعة دعاة الهزيمة التي هو رأسها قد تألفت مساء السادس عشر وظهرت سورتها حتى إن تأليف الحكومة لم يستغرق وقتاً طويلا وقد أصبح شوتان ، الذى قال إن طلب شروط الهدنة لا يمنى قبولها ، نائبا لرئيس الوزراء وأصبح الجنرال فيجان ، الذى كان يرى أن كل شيء قد انقضى ، وزيراً للدفاع وعين الأميرال دارلان وزيرا للبحرية والمسيو بودان وزيرا للخارجية .

وكانت العقبة الوحيدة ، كما يبدو ، فيما يتعلق بالمسيو لافال ، فقد كان رأى الماريشال بادىء الأمر أن تعرض عليه وزارة العدل ولكنه رفضها بأنفة وازدراء وأصر على أن توكل إليه وزارة الخارجية لينفذ عن طريقها خطته التي تدعو إلى القضاء على التحالف مع انكلترا والانضمام إلى أوروبا النازية الجديدة كحليف صغير ، وسرعان ما أذعن الماريشال بيتان لتأثير هذه الشخصية القوية وضغطها وكان المسيو بودان قد بدأ في عمله بوزارة الخارجية وإن كان يحس في أعماق نفسه عجزه عن مزاولة أعمالها وكان راغبا عنها كل الرغبة . وقد ثار المسيو شارل رو ، الوكيل الدائم لوزارة الخارجية، حين علم بتغيير الوضع وأسرع إلى فيجان يطلب تأييده فلما دخل فيجان على الماريشال ليتحدث إليه في هذا الشأن امتعض لافال واشتد غضبه حتى إن العسكريين الكبيرين خنعا وخضعا لإرادته ولكن الوكيل الدائم رفض أن يتعاون في العمل مع لافال ولما واجه الماريشال هذه المشكلة أذعن لرأى وكيل الوزارة وخرج لافال يغلى حقدا وغيظا .

كانت الآونة حرجة إلى أقصى الحدود . وبعد أربعة أشهر أى فى الثامن والعشرين من شهر أكتوبر حين أصبح لافال وزيراً للخارجية ، بدأ إدراك جديد للقيم العسكرية فقد أصبحت مقاومة بريطانيا للالمان هاملاه أهميته وقد اتضح أن الجزيرة البريطانية لا يمكن إسقاطها من الحساب . وعلى أى حال « لم تقصف رقبتها كالدجاجة خلال ثلاثة أسابيع » وكانت هذه حقيقة جديدة اغتبط لها الشعب الفرنسى جميعاً .

وقد أذعت بناء على رغبة مجلس الوزراء البيان التالى :

« إن الأنباء الواردة من فرنسا جد سيئة وإنى لأحس أشد الألم لهذه الكارثة التى أصابت الشعب الفرنسى الباسل ولكن هذا لا يغير شيئاً

من عواطفنا الحقيقية نحو فرنسا أو اعتقادنا بأن عبقرية فرنسا ستتألق ثانياً . وماحل بفرنسا لايمكن أن يغير من أعمالنا وأهدافنا وقد أصبحنا الآن المدافعين الوحيدين الذين يحملون السلاح الدفاع عن القضية العالمية . وسنبذل غاية جهدنا لنكون جديرين بهذا الشرف العظيم . وسندافع عن جزيرتنا ووطننا وسنمضى مع الإمبراطورية البريطانية فى الجهاد بعزيمة لا تعرف الملل حتى تزول لعنة هتلر من جبين الإنسانية ونحن لانشك فى أن كل شيء سيسير على ما يرام آخر الأمر »

وقد أبلغت زملائى أنى تلقيت من الجنرال سبيرز إشارة تليفونية يبلغنى فيها عجزه عن أداء دور نافع فى الجهاز الجديد الذى ظهر فى بوردو . وقد حدثنى عن قلقه الشديد على سلامة الجنرال ديجول — وقد رأى أن سير الأمور على النحو الذى تسير عليه يجعل من الخير لديجول أن يغادر فرنسا . وقد وافقت على خطة ملائمة لتحقيق هذه الغاية . وهكذا مضى ديجول صباح ذلك اليوم ، أى السابع عشر ، إلى مكتبه فى بوردو وارتبط ببعض المواعيد بعد الظهر للتعمية ثم انتقل فى سيارة مع صديقه الجنرال سبيرز إلى المار ليودعه فى سفره . وقد صافح ديجول صديقه فى المطار قبل أن يستقل الطائرة وعندما بدأت حركتها قفز إليها ديجول وأغلق من خلفه الباب وقد حلقت الطائرة فى الجو ورجال الشرطة الفرنسية ينظرون إليها فى دهشة ، لقد ذهب ديجول وحمل معه فى تلك الطائرة الصغيرة شرف فرنسا .

الأميرال دارلان

والأسطول وهران

كان السؤال الذى يتردد على الألسن لدى الأعداء والأصدقاء بعد سقوط فرنسا هو « هل ستستسلم بريطانيا كذلك » ؟ أما بالنسبة للحقائق التى تجرى بها الأحداث فقد بينت باسم حكومة جلالته مرارا عزمنا على موالاة القتال وحدنا . وكنت فى الرابع من شهر يونيه بعد دنكرك قد عبرت عن موقفنا « بأننا سنستمر فى الحرب سنوات إذا لزم الأمر ووحيدين إذا اضطررنا إلى ذلك » . ولم أكن قد ألقيت هذه الكلمة اعتباطا وبغير قصد . وقد تلقى السفير الفرنسى بلندن أمرا من حكومته ليستوضحنى ماأعنيه بهذا القول وكان الرد « إننى أعنى ما قلت تماما » وإنى لأستطيع أن أذكر مجلس العموم بالخطاب الذى ألقيته فيه فى اليوم الثامن عشر من شهر يونيه غداة انهيار بوردو : فقد قدمت للمجلس إذ ذاك « بعض بيانات عن الأسس العملية الصحيحة التى بنينا عليها تصميمنا الذى لا يتزحزح على الاستمرار فى الحرب » وكنت أستطيع أن أؤكد للبرلمان أن المستشارين المحترفين الذين يمثلون القـــوات العسكرية الثلاث على ثقة تامة بآمال كبيرة معقولة فى النصر النهائى . وأبلغت المجلس أننا تلقينا من رؤساء دول الدومنيون الأربع رسائل يؤيدون فيها قرارنا بشأن الاستمرار فى الحرب . ويعلنون وقوفهم إلى صفوفنا ومشاركتنا فى الأقدار التى تتاح لنا ثم قلت . « وإنى إذ أضع هذه الموازنة المخيفة وأنظر إلى الاخطار بعين لا تخدع ، أرى أمامى أسبابا عديدة تدعونا إلى اليقظة وبذل الجهد ولكنى لا أرى ما يدعو إلى الفزع والرهبة » ومضيت أقوال « إن الحلفاء لم يروا غير الكوارث والفشل المتتابع » وكنا نتساءل على الدوام « كيف نستطيع أن نكسب الحرب ؟ » ولم يكن فى مقدور أى إنسان أن يجيب عن هذا السؤال بدقة حتى النهاية ، حيث اندحر عدونا المخيف بغتة ، وبصورة لم تكن فى الحسبان ، ففوجئنا بالنصر حتى إننا لم ندر به لحماقتنا وأهملناه جانبا .

وانتهيت إلى قولى « وما دعاه الجنرال فيجان معركة فرنسا قد انتهى . وإنى لأترقب أن تبدأ فى القريب معركة بريطانيا وعلى هذه المعركة يتوقف بقاء الحضارة المسيحية . نعم تتوقف عليها حياة الشعب البريطانى ودوام وجودنا ومنظماتنا وامبراطوريتنا . ولا شك أن العدو سيصب علينا نقمته . ويستخدم ضدنا أقصى قوته ، فهتلر يعرف جيداً أن عليه أن يهلكنا فى هذه الجزيرة ، وإن لم يفعل فانه ولاشك سيخسر الحرب . وإذا استطعنا أن نثبت أمامه فإن أوروبا جميعاً ستتحرر وسينطلق العالم نحو آفاق تشرق عليها أشعة الشمس . أما إذا فشلنا فإن العالم جميعه سينحدر إلى هاوية عصر جديد مظلم أشد فساداً بالأنوار الزائفة المسلطة عليه من عالم الظلمات والضلال .

لهذا كان حتما علينا أن نفى بواجباتنا وأن نقوم بدورنا على أكمل وجه . فإذا كان للامبراطورية البريطانية وشعوبها أن تعيش ألف سنة أخرى ظل الناس يقولون لقد كانت هذه أجل ساعاتهم » .

وقد صحت كل هذه الأقوال التى تتردد كثيراً على الألسنة فى أوقات النصر . ولكنها كانت إذ ذاك مجرد أقوال . ولا شك أن الأجانب ، الذين لا يعرفون طبيعة الشعب البريطانى عندما تغلى دماؤه ، حين سمعوا أقوالى ظنوا أننى أكابر فيها لتهيئة جو صالح لمفاوضات الصلح .

لقد كان هتلر فى أشد الحاجة لإنهاء الحرب فى الغرب . وهذا أمر واضح . ويستطيع أن يعرض الشروط المغرية ، وكان يبدو لى ولزملائى الذين يفهمون نوازعه بعد أن أمعنوا فى دراستها أنه لن يوافق على بقاء بريطانيا وأمبراطوريتها وأسطولها على حالها . وأنه ينظر إلى عقد صلح يطلق يده فى الشرق . وهذا ما كان يحلم به منذ زمن بعيد حيث تحدث إلى به ريبنتروب سنة ١٩٣٧ ولم نكن قد أنزلنا به خسائر بالغة حتى ذلك الوقت وكل ما صنعناه هو أننا أضفنا هزيمتنا إلى انتصاره على فرنسا . فليس بمستغرب إذا كان الحاسبون الماهرون فى كثير من البلاد — جهلا منهم بشئون الحرب فى البحار ، وبحقيقة القوة التى يتمتع بها سلاحنا الجوى واغتراراً بقوة ألمانيا وإرهابها — قد اقتنعوا بالأوهام . وليس من السهل على أية حكومة ، ديمقراطية كانت أو دكتاتورية ، ولا على أى شعب يحارب بمفرده وقد تخلى عنه الجميع أن يصرا على تحمل فظائع الحرب وأن يرفضا بأنفة فرصة تتاح للسلام ولديهما عشرات الأعذار وتستطيع حكومة اخرى أن تأتى وتقول : « إن دعاة الحرب قد فشلوا بعد أن أتيحت لهم فرصتهم

وإن أمريكا ما زالت فى عزلتها ولسنا ملزمين بأى شىء نحو الاتحاد السوفيتى . لماذا لا تقف بريطانيا فى صفوف المتفرجين مع اليابان والولايات المتحدة والسويد وأسبانيا . ترقب الأمور عن كثب وتهتز طربا للنضال المدمر الذى سيبدأ بين الإمبراطوريتين النازية والشيوعية . ولا شك أن الأجيال القادمة سوف تجد من الصعب عليها أن تصدق أن الأفكار التى ألممت بطرف منها لم تجد طريقا لها إلى جدول أعمال مجلس الوزراء ، لأنها ليست جديرة بالبحث . ولم تبحث حتى فى أحاديثنا الخاصة . وليس للشكوك أن تزول إلا بالأعمال وستأتى الأعمال فيما بعد .

* * *

لقد أصبح الأميرال دارلان فى الأيام الأخيرة شخصية لها أهميتها الكبرى فى بوردو . وكانت اتصالاتى به على جانب من البساطة وفى نطاق الرسميات . وكنت أجله لجهده فى إعادة خلق الأسطول الفرنسى ، الذى أصبح بعد عشر سنوات من تولى قيادته ، أعظم شأنا من أى وقت منذ تاريخ الثورة الفرنسيه . فلما زار انكلترا فى ديسمبر سنة ١٩٣٩ أقمنا له فى الأميرالية حفلة عشاء تكريما له .وكان يرد على النخب الذى شربناه ويذكرنا بأن أحد أجداده قتل فى معركة الطرف الأغر . لهذا كنت أعده من العناصر الفرنسية الطيبة .

وقد برهنت الحادثات البحرية بين فرنسا وانكلترا فى شهر يناير على أن الأميرال كان غيوراً على المركز الذى يحترفه من أى وزير سياسى للبحرية . وأعتقد أن هذه الغيرة قد خلقت لديه عقدة كان لها أثرها فى الدور الذى قام به فيما بعد .

ولقد حضر دارلان أكثر المؤتمرات والاجتماعات التى أشرت إليها . فلما اقترب موعد انتهاء المقاومة الفرنسية أكد لى أكثر من مرة أن الأسطول الفرنسى لا يقع فى أيدى الألمان مهما تكن الأمور . وقد حلت فى بوردو الآونة الدقيقة فى حياة هذا الأميرال القدير الطموح المعتز بنفسه ، وقد أصبحت سلطته مطلقة على الأسطول من الناحية العملية . وكان له أن يصدر الأوامر للأسطول بالتوجه إلى الموانىء البريطانية أو الأمريكية أو موانىء المستعمرات الفرنسية فيذعن لأمره . وقد صرح فى صباح اليوم السابع عشر من شهر يونيه ، بعد سقوط حكومة رينو ، للجنرال جورج بأنه سيصدر هذا القرار . وقابله جورج بعد ظهر اليوم التالى وسأله عما حدث فأجاب دارلان بأنه غير رأيه فلما سأله الجنرال عن السبب قال ببساطة « لأننى أصبحت الآن وزيراً للبحرية ، ولم يكن يقصد بطبيعة الحال أن يقول إنه غير

رأيه ليصبح وزيراً للبحرية ، ولكنه أراد أن يقول إن وصوله إلى وزارة البحرية جعله يغير رأيه .

ما أخس تفكير الانسان حين يبحث عن مصالحه الشخصية !! وليس لدينا من مثل أصدق من دارلان . لقد كان فى مقدور هذا الرجل أن يبحر على ظهر أية باخرة إلى ميناء خارج فرنسا ليسيطر على جميع مصالح فرنسا الخارجة عن النفوذ الألمانى . ولم يكن فى هذه الحال سيأتى كالجنرال ديجول وليس فى حوزته إلا قلب يأبى الخنوع . لقد كان فى مقدوره أن يحمل معه خارج النفوذ الألمانى رابع أسطول فى العالم . وقد حمل له ضباطه وجنوده خالص الولاء ولو صنع هذا لكان درلان رأس المقاومة الفرنسية . وفى حوزته سلاح قوى جبار تفتح له أمريكا وبريطانيا الأرصفة والأحواض مرحبة وتقدم إليه كل ما يحتاج من وقود وعتاد ومؤن وصيانة . وكان لأرصدة الذهب الفرنسية فى الولايات المتحدة أن تؤمن له ، بعد الاعتراف به ، مورداً غير قليل للاشراف على الإمبراطورية الفرنسية التى لا شك أنها كانت ستلتف حوله . لقد كانت السلطة والشهرة اللتان كان يحلم بهما بين يديه . ولكنه بدلا من ذلك قضى عامين من القلق فى حكومة معيبة . وقد لقى فى نهاية ما مصيراً مؤلما وأودع قبراً لا يجله أحد ومحى اسمه من سجل الأسطول الفرنسى والأمة الفرنسية بعد أن خدمهما خدمة صالحة مدى طويلا .

وهناك نقطة أخرى يحسن ذكرها هنا . فقد زعم دارلان فى رسالة بعث بها إلى فى اليوم الرابع من شهر ديسمبر سنة ١٩٤٢ ، أى قبل ثلاثة أسابيع من اغتياله بقسوة وعنف ، يقول إنه حافظ على وعده لى ، وقد نشرت هذه الرسالة فى مكان آخر من هذا الكتاب . ولا ينكر أحد أن الألمان لم يستطيعوا أن يضعوا أيديهم على أية سفينة حربية فرنسية ليستخدموها ضدنا فى الحرب . ولم يكن هذا نتيجة الاجراءات التى قام بها دارلان لحسب . وإن كان قد ألقى فى روع ضباط الأسطول وسائر بحارته أن واجبهم يقضى بتدمير بواخرهم قبل أن تقع فى أيدى الألمان الذين يكرههم كما يكره الإنكليز تماما .

ولكن انضمام الأسطول الفرنسى إلى الأسطولين الألمانى والإيطالى فى يونيه سنة ١٩٤٠ مع وجود الأسطول اليابانى كان خطراً يهدد بريطانيا والولايات المتحدة بالمخاطر . فقد نصت المادة الثامنة من الهدنة على وجوب وضع الأسطول الفرنسى

باستثناء بعض القطع التى تبقى حرة لحماية المصالح الفرنسية فى مستعمراتها ، فى موانئ تحددها لجنة الهدنة لينزع منها السلاح تحت إشراف المراقبين الألمان والإيطاليين . وكان معروفا أن السفن الحربية الفرنسية ستنتقل إلى إشراف أيد معادية وهى مسلحة بكل المعدات . وصحيح أن المادة نفسها تنص على عدم استخدام الأسطول فى أغراض حربية مدى الحرب . ولكن هل يستطيع أحد أن يثق فى كلام هتلر بعدما عرف من ماضيه وبعد الحقائق التى كشفت عنها الأحداث ؟ . وهناك نقطة أخرى فقد استثنت المادة والوحدات اللازمة لمراقبة الشواطئ وكنس الألغام ، والألمان هم الذين يفسرون هذا الاستثناء . وأخيرا فثمة احتمال خرق الهدنة دائما بحجة الإهمال والتجاوز . ومعنى كل هذا عدم وجود ضمانات لدينا على أى حال . ومهما يكن الثمن ومهما يكن الأمر فعلينا أن نتأكد بأى طريق من أن الأسطول الفرنسى لا يقع فى أيدى الذين يجب أن لا يقع فى أيديهم . فإن ذلك من شأنه أن يؤدى بنا وبغيرنا إلى الدمار .

* * *

ولم تتردد وزارة الحرب فى القرار الذى اتخذته . وعين الوزراء الذين كانوا منذ أسبوع واحد يقدمون قلوبهم لفرنسا . وعرضوا عليها جنسية واحدة . وقد قرروا اتخاذ جميع الإجراءات لتحقيق الهدف الجديد . لقد كان قرارا كريها إلى . بل ربما كان هذا القرار أكثر إيلاما لنفسى من أى قرار اتخذته فى حياتى ، فقد ذكرنى باستيلاء أسطولنا الملكى على الأسطول الدنمركى فى كوبنهاجن سنة ١٨٠٧ ولكن الفرنسيين كانوا حلفاءنا الأعزاء حتى الأمس القريب . وكان عطفنا عليهم فى محنتهم عطفا صادقا ، ولكن حياة دولتنا وقضيتنا معرضتان للخطر . إنها لمأساة . ولكن لم يكن لبريطانيا والشعوب التى تعتمد عليها عمل أكثر ضرورة من هذا العمل . وقد تذكرت دانتون وهو يقول سنة ١٧٩٣ « إن الملوك المتحالفين يهددوننا وإننا على استعداد لأن نقذف على أقدامهم ، كرهان على المعركة ، رأس أحد هؤلاء الملوك » وكان الحادث جميعه يسير فى هذا النطاق من تتابع الأفكار .

كان الأسطول الفرنسى يتألف من : بارجتين وأربعة طرادات خفيفة وعدد من الغواصات منها غواصة كبيرة باسم سيراكوف وثمان مدمرات ونحو مائتى قطعة صغيرة من بينها عدد من كانسات الألغام ووحدات مكافحة الغواصات . وكل هذه ترسو فى بورتسماوث وبليموث أى تحت إشرافنا . وفى الإسكندرية بارجة فرنسية واحدة وأربعة طرادات منها ثلاثة من طراز حديث وتحمل مدافع من عيار ثمانى

بوصات وعدد من القطع الصغيرة . وهذه تشرف عليها وحدة قوية من البوارج البريطانية . وفى وهران فى الجانب الثانى من البحر المتوسط ، وفى المرسى الكبير المجاور لميناء وهران قطعتان من أحسن قطع الأسطول الفرنسى هما : « دنكرك » و « ستراسبرج » وهما من البوارج الطرادات التى تفوق شارنهورست وجينزناد وقد أنشئتا بصفة خاصة لتكونا متفوقتين على القطعتين الألمانيتين . ووقوع هاتين القطعتين فى يد الألمان فى طريق خطوط تجارتنا يعرض مصالحنا لأشد الأخطار . لا سيما أن معهما بارجتين وعددا من الطرادات الخفيفة والمدمرات والغواصات والسفن الحربية ، وفى ميناء الجزائر سبعة طرادات منها أربعة تقل مدافع عيار ثمانى بوصات . وفى جزر المارتينيك حاملة طائرات وطرادان ، وفى الدار البيضاء البارجة جان برت . وقد وصلت أخيراً من سان نازير ولكن دون مدافع . وهى إحدى البوارج الرئيسية فى قوات العالم البحرية . ولم يكن قد تم بناء هذه البارجة ولا يمكن أن يتم فى الدار البيضاء وعليها أن تظل هنالك . أما ريشليو التى أوشك بناؤها أن ينتهى فقد وصلت إلى داكار . وتستطيع أن تبحر وتستطيع مدافعها عيار خمس عشرة بوصة أن تطلق نيرانها وثمة عدد آخر من السفن الحربية الفرنسية التى تقل أهمية فى شتى الموانىء . وكان فى طولون عدد من البوارج التى يتعذر علينا الوصول إليها . وكانت عملية المنجنيق التى ستتم فى آن واحد فى كل مكان ترمى إلى الاستيلاء على كل ما يمكن الاستيلاء عليه من الأسطول الفرنسى أو الإشراف عليه أو تدميره إذا اقتضت الحال .

وفى الصباح المبكر من اليوم الثالث من شهر يوليه وضع الإشراف البريطانى على السفن الحربية الفرنسية فى بورتسماوث وبليموث وكان العمل مفاجئا وقد استخدمت فيه قوات متفوقة . وتبين من العملية كيف كان من السهل على الألمان أن يستولوا على البوارج الفرنسية فى الموانىء التى يسيطرون عليها وتمت العملية فى سائر القطع ، عدا سيركوف ، بالرضى والقبول . ونزل البحارة الفرنسيون إلى البر مختارين ، أما فى سيركوف فقد قتل فرنسى واحد وأسر المئات من الفرنسيين وتطوعوا للعمل إلى جانبنا . وقد غرقت سيركوف بعد أن أبلت بلاء مجيدا فى اليوم التاسع عشر من شهر فبراير سنة ١٩٤٢ بكل من عليها من البحارة الفرنسيين البواسل .

وكانت الضربة القاضية غرب البحر الأبيض المتوسط حيث تلقى الأميرال سمر فيل فى جبل طارق وهو على رأس « القوة ه » وتتألف من البارجة — الطراد هود والبارجتين فالبانت وريسوليوشون وحاملة الطائرات « أرك رويال » وطرادين

وإحدى عشرة مدمرة ، الأوامر من الأميرالية فى الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والعشرين من صباح اليوم الأول من شهر يوليه .

وتقول « استعد لعملية المنجنيق فى اليوم الثالث من سهر يولية، وكان بين الضباط العاملين تحت إشراف سمر فيل الربان هولاند وهو ضابط ممتاز شجاع . وكان ملحقا بحريا فى باريس ومعروفا بميوله الفرنسية . وأرسل نائب الأميرال فى الساعات المبكرة بعد ظهر اليوم الأول من شهر يوليه يقول :

« بعد الحديث الذى تم بين نائب الأميرال وبين هولاند وغيره من القادة فى القوة « هـ » اقتنع نائب الأميرال برأيهم فى أنه يجب عدم استخدام القوة مهما تكن الأمور . ويرى هولاند أن أى عمل هجومى ستكون نتيجته عداء الفرنسيين فى سائر الأنحاء » .

وفى الساعة السادسة والدقيقة العشرين ردت الأميرالية بالبرقية التالية :

« إن حكومة جلالته تصر على أنه إذا لم يوافق الفرنسيون على شىء من الأغراض التى تعرضونها فيجب إغراق قطعهم البحرية والقضاء عليها » .

وبعد منتصف الليل بقليل تلقى الأميرال سمرفيل رسالة من الأميرالية عنى بإعدادها كل العناية لينقلها إلى الأميرال الفرنسى وكان الجزء الهام فيها ما يلى :

(ا) إما الابحار معنا والاستمرار فى القتال ضد الألمان والإيطاليين حتى النصر .

(ب) أو الابحار تحت اشرافنا بعدد قليل من البحارة إلى ميناء بريطانى . وسيعاد هؤلاء البحارة إلى وطنهم فى أقرب وقت .

فإذا اتبعتم أحد هذين الأمرين . فسوف نعيد قطعكم البحرية إلى فرنسا بعد انتهاء الحرب أو ندفع التعويضات عنها كاملة إذا تعرضت للضرر .

(ج) أما إذا وجدتم أنكم فى حالة تلزمكم بعدم استخدام بوارجكم ضد الألمان أو الإيطاليين إلا إذا خرقوا الهدنة فعليكم أن تبحروا بها معنا بعدد قليل من البحارة إلى أى ميناء فرنسى فى الهند الغربية

كالمارتنيك حيث ينزع سلاحها لتطمئن ، أو تسليمها كأمانة إلى الولايات المتحدة حيث تبقى فى زمامها حتى نهاية الحرب مع الوعد بإعادة البحارة إلى أوطانهم .

أما إذا رفضتم ما أعرضه عليكم فأنى أدعوكم ، مع الأسف ، إلى إغراق سفنكم الحربية فى مدى ست ساعات وإذا لم تستجيبوا فإن لدى الأوامر من حكومة جلالته بأن أستخدم كل مالدى من قوة لمنع وقوع سفنكم فى أيدى الألمان والإيطاليين » .

وعند الفجر أبحر الأميرال فوصل أمام وهران حوالى الساعة التاسعة والنصف وبعث بالقبطان هولاند على ظهر أحدى المدمرات لمقابلة الأميرال جنسول الفرنسى فلما رفض مقابلته بعث هولاند رسالة إلى الأميرال . وقدرد جنسول كتابة بأن البوارج الفرنسية لن تقع بحال من الأحوال فى أيدى الألمان أو الإيطاليين وأن القوة ستقابل بمثلها .

وقد دامت المفاوضات طوال النهار . وسمح للقبطان هولاند أخيرا فى الساعة الرابعة والربع بالصعود إلى البارجة دنكرك . ولكن المقابلة بينه وبين الأميرال الفرنسى كانت جامدة . وكان جنسول قد أرسل فى أثناء ذلك رسالتين إلى الأميرالية الفرنسية . وفى الساعة الثالثة من المساء عقد مجلس الوزراء الفرنسى اجتماعا لدراسة الشروط البريطانية . وقد حضر الجلسة الجنرال فيجان . وسجل مؤرخ حياته ما دار فيها ويبدو من قصة المؤرخ أن الاحتمال الثالث وهو ذهاب الأسطول إلى الهند الغربية لم يذكر فى الجلسة على الاطلاق وقد قال «يتضح أن الأميرال درلان ، سواء أكان ذلك عن عمد أم عن براءة . عن علم أو عن جهل ، مما لا أعرفه ، لم يخبرنا بالقصة مفصلة كاملة ويظهر لى الآن أن شروط الإنذار البريطانى كانت أقل خشونة مما تصورناه فى ذلك الحين فقد اشتملت على شرط ثالث كنا نستطيع قبوله لو عرفناه إذا ذاك وهو أن يتجه الأسطول إلى مياه جزر الهند الغربية ، ولم أستطع إلى الآن «سنة ١٩٥٠» أن أهتدى إلى سبب لهذا الحذف أو السهو .

وكان تأثر الأميرال البريطانى وكبار ضباطه ظاهراً فيما تبادلناه من البرقيات ولم يكن ثمة من سبيل سوى الأمر بإطلاق النار على أولئك الذين كانوا إلى وقت قريب زملاء فى القتال . . وقد عم شعور مماثل فى الأميرالية نفسها ولكن لم يكن هناك أى أثر للضعف أو التراجع فى اصرار وزارة الحرب . وقضيت طوال الوقت بعد ظهر ذلك اليوم فى قاعة مجلس الوزراء . وأنا متصل إتصالا مباشراً بكبار زملائى

ويلورد البحر الأول ووزير البحرية . وأخيراً أرسلنا البرقية التالية فى الساعة السادسة والدقيقة السادسة والعشرين من المساء :

« إما أن تخضع السفن الحربية الفرنسية لشروطنا أو تغرق نفسها أو تتولوا إغراقها قبل حلول الظلام » .

ولكن العمل قد اتخذ مجراه . فقد شرع الأميرال سمرفيل فى الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والأربعين فى إطلاق النار على هذا الاسطول الفرنسى القوى الذى تحميه بطاريات السواحل . وفى الساعة السادسة أبرق إلينا يقول إن المعركة شديدة وقد استمر تبادل إطلاق النار عشر دقائق . انفجرت خلالها البارجة « بريتانى » وأصيبت دنكرك بأضرار خطيرة . ولجأت البارجه بروفنس إلى الساحل . أما ستراسبرج فقد استطاعت النجاة وقد وصلت إلى طولون على الرغم من قذفها بالطوربيد من الطائرات القائمة فى « أرك روياك » كما وصلت إليها الطرادات التى كانت فى ميناء الجزائر .

أما فى الإسكندرية فقد وافق الأميرال الفرنسى جودفيرى ، بعد مفاوضات طويلة مع الأميرال كننجهام ، على انزال كل ما تحمله بواخره من وقود . ورفع أجزاء هامة من مدافعه وأسلحته وإعادة عدد من بحارته إلى أرض الوطن . فقد هاجمت حاملة الطائرات هيرفر البارجة الفرنسية ريشليو ، واشتركت فى الهجوم بعض الزوارق البخارية وأصيبت ريشليو بطوربيد من الجو ألحق بها أضراراً جسيمة . أما حاملة الطائرات الفرنسية والطرادات الخفيفة فى الهند الغربية فقد نزع سلاحها بعد مفاوضات طويلة مع الولايات المتحدة .

* * *

وقد أبلغت مجلس العموم ببيان مطول . عما قمنا بتنفيذه . وعلى الرغم من نجاة البارجة ـــ الطراد ستراسبرج من وهران ، وعلى الرغم من أن نبأ تعطيل ريشليو لم يكن قد وصل إلينا ، فإن ما اتخذناه من الإجراءات قد أزال تقدير الاسطول الفرنسى من حساب الألمان وفكرتهم الأساسية . وتحدثت بعد ظهر ذلك اليوم فى المجلس ساعة أو أكثر من ساعة . وقدمت للنواب وصفا مطولا للأحداث المؤلمة التى وقعت كما أبلغت إلى . وليس لدى ما أزيده على ما سبق أن أعلنته للمجلس وللعالم أجمع وقد رأيت من المناسب أن أختتم حديثى بهذا التحذير الذى كنت قد أعلنته بصفة عامة بموافقة مجلس

الوزراء على سائر الدوائر ذات النفوذ فى الجهاز الحاكم فى اليوم السابق. وهذا نصه :

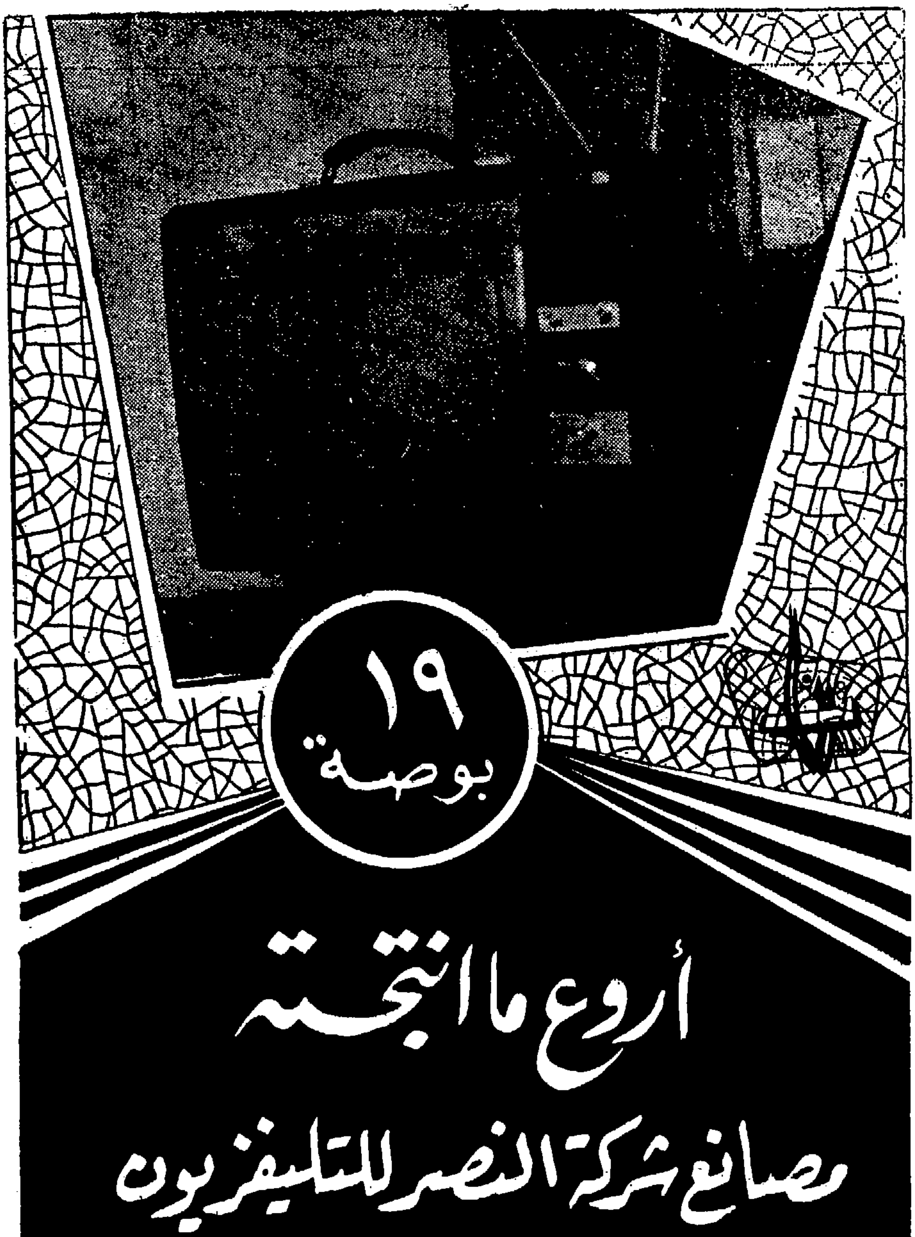
« قد تقوم محاولة لغزو هذه الجزر وتبدأ معركة الوطن ما بين عشية أو ضحاها ، ويود رئيس الوزراء أن يصارح جميع من يتولون مناصب ذات مسئولية فى الحكومة أو القوات المسلحة أو الدوائر المدنية ، أن عليهم واجبا بأن يظلوا محافظين على روح الحذر والحيوية واليقظة وإذا كان علينا أن نتخذ كل ما يمكن من الإجراءات الاحتياطية التى يتيحها وقتنا الضيق ووسائلنا . فليس ثمة من حاجة إلى الاعتقاد بأن الألمان يستطيعون أن ينزلوا قوات فى هذه البلاد من الجو أو البحر على حد سواء ، أكثر مما فى طوقنا أن ندمره أو نأسره بقواتنا القوية المتوثبة الآن . فالسلاح الجوى فى هذه الآونة فى أحسن حالاته وقد بلغ أقصى قوة عرفناها. والأسطول الألمانى لم يكن فى أى وقت أضعف منه الآن . ولم يكن الجيش البريطانى فى وقت ما أقوى مما هو اليوم . . ويتوقع رئيس الوزراء من جميع موظفى صاحب الجلالة الذين يشغلون المناصب العالية أن يكونوا مثلا يقتدى به فى الاصرار والثبات . وعليهم واجب أن يردوا أية فكرة تدعو إلى التراخى والاستسلام فى بيئاتهم أو عند مرءوسيهم . وأن يوجهوا إلى أصحابها أشد عبارات اللوم والتأنيب . وعليهم أن يبلغوا رؤساءهم عن كل شخص سواء أكان موظفا أم ضابطا يقوم بنشر أنباء مثيرة . أو يفوه بألفاظ تدعو إلى اليأس والفزع . بهذا وحده يكون هؤلاء الموظفون جديرين بأن يكونوا مواطنين لهؤلاء الذين يناضلون العدو فى الجو والبحر والبر . وقد أثبتوا أن العدو لا يزيد عنهم فى القوى الحربية بحال من الأحوال » .

وكان السكون مخيما على المجلس وأنا أتلو هذا البيان وما كدت انتهى منه حتى رأيت مظهراً عجيبا لم يتح لى أن أرى مثيلا له فى حياتى . لقد هب كل من فى المجلس على قدميه يهتف ويطيل الهتاف . وكان حزب المحافظين حتى هذه الآونة يعاملنى بتحفظ شديد وكانت مقاعد العمال وحدها هى التى تلقانى بترحيب حار حين أدخل إلى المجلس أو أبدأ الحديث فى مناسبة ذات شأن . أما الآن فقد اشترك الجميع فى هذا التأييد الإجماعى الصادر من أعماق القلوب .

وقد كان لتصفية الإسطول الفرنسى ،كعامل حرب له قيمته بضربة قاصمة ، أثرعميق

فى سائر بلاد العالم . فهاهى ذى بريطانيا التى كان يظن الجميع أنها تترنح تحت ضربات العدو وتتهيأ للاستسلام تضرب بلا رحمة أعز أصدقائها بالأمس لتؤمن لنفسها السيطرة على البحار فترة من الزمن . وقد تبين للجميع أن وزارة الحرب البريطانية لاتهاب شيئا ولا تتردد فى القيام بأى شىء تراه وكان هذا أمراً مقضيا .

وقد استطاع الشعب الفرنسى أن يستخلص بعبقريته من كارثة وهران أملا جديدا وعزما قويا صادقا وكان الجنرال ديجول الذى لم أستشره قبل فى شأن الأسطول قد ظهر بمظهر جليل . وقد أيدت فرنسا بعد تحريرها موقفه ، وأنى مدين للمسيو تتيجى ، من زعماء المقاومة الفرنسية المعدودين والذى أصبح فيما بعد وزيرا للدفاع ، بالقصة التى سأرويها : كانت هناك عائلتان من الفلاحين تسكنان قرية بالقرب من طولون وقد فقدت كل منها ولدا بنيران المدافع البريطانية فى وهران وكانا يعملان بحارين فى الأسطول وقد أعد مشهد لتشييع الشابين . ورغب سائر الجيران أن يشاركوا فيه . وقد أصرت الأسرتان على أن يوضع العلم البريطانى على النعش إلى جانب العلم الفرنسى . وكان للأسرتين ماأرادتا . ومن هذه القصة نرى كيف ترتفع القوى المعنوية عند بعض البسطاء إلى معارج السمو والخلود .



١٩
بوصة
أروع ما انتجته
مصانع شركة النصر للتليفزيون
على أحدث طراز عالمى

هيئة قناة السويس

من انباء القناة

حركة البضائع

سجلت كميات البضائع التى عبرت القناة خلال شهر أكتوبر سنة ١٩٦١ زيادة على تلك العابرة خلال نفس الشهر من العام الماضى قدرها ١٣٣٠٠٠ طن أى بنسبة ٩,٠٪ حيث بلغت كميات الشهر الحالى ١٤٩٠٤٠٠٠ طن مقابل ١٤٧٧١٠٠٠ طن فى أكتوبر ١٩٦٠ .

حركة البضائع من الشمال :

كانت الزيادة المسجلة فى كميات البضائع العابرة من الشمال خلال شهر أكتوبر سنة ١٩٦١ السبب الرئيسى فى ارتفاع الكميات العابرة من الاتجاهين. فقد بلغت كميات أكتوبر سنة ١٩٦١ ٢٨٨٥٠٠٠ طن مقابل ٢٠٧٨٠٠٠ طن، بزيادة قدرها ٨٠٧٠٠٠ طن أى بنسبة ٣٨,٨٪ وترجع تلك الزيادة إلى ارتفاع كميات جميع أنواع البضائع العابرة فى هذا الاتجاه وكان أولها المواد البترولية التى ارتفعت كمياتها بمقدار ٣٢٠٠٠٠ طن أى بنسبة ١٠٠٪ (٦٣٩٠٠٠ طن خلال شهر أكتوبر سنة ١٩٦١ مقابل ٣١٩٠٠٠ طن فى أكتوبر ١٩٦٠) ، وقد شملت الزيادة كميات البترول الخام بمقدار ١٨٩٠٠٠ طن (٤٠٧٠٠٠ طن مقابل ٢١٨٠٠٠ طن) والمازوت بمقدار ١١٦٠٠٠ طن (١٣٦٠٠٠ طن مقابل ٢٠٠٠٠ طن) والسولار والديزل بمقدار ٢٠٠٠ طن (٢٧٠٠٠ طن

مقابل ٢٥٠٠٠ طن) والبنزين بمقدار ١٣٠٠٠ طن (٢٣٠٠٠ طن مقابل ١٠٠٠٠ طن) بينما لم تتغير كميات الكيروسين (٣٧٠٠٠ طن) .

وبالنسبة لمناطق شحن المواد البترولية فقد صدر الاتحاد السوفيتي ما يعادل ٨٤ ٪ من كمياتها ، وإيطاليا ٥ ٪ ، بينما استقبلت اليابان ٥٣ ٪ من تلك المواد ، والجمهورية العربية المتحدة ٢٧ ٪ ، والملايو ٧ ٪ .

وقد زادت كميات البضائع الأخرى عدا المواد البترولية بمقدار ٤٨٧٠٠٠ طن أى بنسبة ٢٨ ٪ (٢٢٤٦٠٠٠ طن مقابل ١٧٥٩٠٠٠ طن) .

وقد سجلت جميع كميات البضائع الرئيسية نسب الزيادة الآتية مقارنة بمثيلاتها العابرة فى أكتوبر ١٩٦٠ :

السكر	+ ٤٢١ ٪
الأسمنت	+ ٤٩ ٪
الحبوب	+ ٣٠ ٪
المعادن المصنوعة	+ ٢٥ ٪
الآلات	+ ٢٠ ٪
الأسمدة	+ ٦ ٪

حركة البضائع من الجنوب

بلغت كميات البضائع العابرة فى هذا الاتجاه خلال شهر أكتوبر سنة ١٩٦١ ١٢٠١٩٠٠٠ طن مقابل ١٢٦٩٣٠٠٠ طن خلال أكتوبر ١٩٦٠ بنقص قدره ٦٧٤٠٠٠ طن أى بنسبة ٥,٣ ٪ . ويرجع هذا النقص إلى انخفاض كميات المواد البترولية والمعادن وخاماتها . فقد بلغت كميات البترول التى عبرت القناة خلال أكتوبر سنة ١٩٦١ ٩٦٦٥٠٠٠ طن مقابل ١٠٣٣٧٠٠٠ طن فى أكتوبر ١٩٦٠ بنقص قدره ٦٧٢٠٠٠ طن أى بنسبة ٦,٥ ٪ . وقد شمل النقص جميع أنواع المواد البترولية .

الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج
تليفون ٤٥٣٤٦ ـ ٤٥٤٠٥ ـ ٣١٦٢٥

مجموعة
اخترنالك

تصدر
نصف شهرية باللغات العالمية
يشترك في تحريرها وإعدادها
لجنة "اخترنالك"

المراسلات : الدار القومية للطباعة والنشر
١٥٧ شارع عبيد — روض الفرج — القاهرة
تليفون ٤٥٣٤٦ — ٤٥٤٠٥ — ٣١٦٢٥

الثمن ١٠ قروش